

ترجمة مجموعة الروح، ما في الجنة إلا الله

الغنوصية

ضوء جديد على التقاليد القديمة للمعرفة الباطنية

ستيفان أ. هولر

uest Boolts@

eosopJiica$ HouSe$

Wbeaton, Illinois 4 Chennai (Madras), India

تعرف على المزيد حول عمل ستيفان أ. هولر على en.wikipedia.org/ wiki/StephanA.Hoeller و http://gnosis.org/welcome.html

ابحث عن المزيد من الكتب مثل هذا على www.questbooks.net حقوق

الطبعة الأولى من البحث 2002

كتب البحث

دار النشر الثيوصوفية

P. O. Box 270

Wheaton, IL 60187-0270

فهرسة بيانات النشر هولر، ستيفان أ.

الغنوصية: ضوء جديد على التقليد القديم للمعرفة الباطنية/ ستيفان هولر. — الطبعةالأولى من كويست.

p. cm.

ردمك 978-0-8356-0816-9

1. الغنوصية. I. العنوان.
BT1390.H64 2002

299.932 - dc 21 2001048901

ISBN للطبعة الإلكترونية، بتنسيق pdf: 978-0-8356-4029-9

8 7 6 5 4 3 2 1 * 05 06 07 08 09 10

المحتويات

قائمة الرسوم التوضيحية

تمهيد

هذا الكتاب هو عرض موجز ومتعاطف للتعاليم والأجواء الروحية للتقاليد الغنوصية. في القرن العشرين، تطورت الغنوصية من موضوع ذي أهمية أثرية إلى موضوع يجذب انتباه الناس بشكل متزايد في أماكن كثيرة وفي جميع مناحي الحياة. يوجد اليوم في أذهان الكثيرين ميل نحو الغنوصية وتعاطف مع مواقف الغنوصيين لم يكن موجوداً منذ العصور التي شرح فيها كبار أساتذة الغنوصية رؤيتهم في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. قبل خمسين عاماً فقط، كان معظم أولئك المنخرطين حالياً في الدراسات الغنوصية سيتجنبون التفكير الجاد في الغنوصية. ربما كانت اعتراضاتهم الرئيسية هي: (1) أن الغنوصية تمثل تقليدًا منقرضًا ولا يمكن تناوله إلا تاريخيًا؛ (2) أن الغنوصية غارقة بعمق في التشاؤم الكوني لدرجة أنها غير ذات صلة في عصر التقدم؛ و(3) أن الغنوصية عبارة عن نسيج من الخيال التأملي لا علاقة له بالعقل والتجربة. دعونا

نلقي نظرة سريعة على كل اعتراض من هذه الاعتراضات بدوره.

بمعنى ما، يمكن القول إنه لا يوجد تقليد روحي ينقرض. إن البصيرة التي تنطلق في محيط النفس البشرية تشبه دائرة متوسعة في بركة ماء ناتجة عن سقوط حجر؛ فهي تستمر إلى الخارج إلى الأبد، حتى عندما لا تعود محسوسة بحواسنا. إن حكمة الغنوصيين تشبه إلى حد كبير هذا؛ فهي لا تزال تؤثر على التفكير البشري والحدس، سواء تم الاعتراف بها كمصدر أم لا. يرتبط جزء كبير من الروحانية البديلة في الغرب بطريقة أو بأخرى بالغنوصية أو يستمد منها. (ومن الجدير بالذكر أن البابا يوحنا بولس الثاني نفسه أقر في كتابه "عبور عتبة الأمل" (90) "بعودة الأفكار الغنوصية القديمة

تحت ستار ما يسمى بالعصر الجديد".) وهكذا فإن الأفكار الباقية والمتجددة للغنوصية موجودة بيننا. يمكننا أن نطبق عليهم استعارة أخرى: استعارة النهر. كلما اقتربنا من المصدر، كلما كان الماء أنقى. إذا أردنا اكتشاف الحكمة الغنوصية في تعبيرها النقي، فعلينا أن نذهب إلى منبعها. هذا ما يحاول العمل الحالي القيام به.

لقد شكل ما يسمى بالتشاؤم في النظرة الغنوصية للعالم عقبة أمام العديد من النقاد. قبل قرن أو حتى نصف قرن، كانت الثقافة الغربية مليئة بالأمل؛ فقد كان توسع العلوم، إلى جانب الرغبة في التقدم البشري، بمثابة مادة مسكرة تنشر البهجة والتفاؤل. لقد جعلتنا اضطرابات الحربين العالميتين وما رافقها من دمار نفسي نعيد التفكير. وقد كشفت الأحداث الأخيرة بشكل أكبر عن هشاشة العقلية المتفائلة. في بداية الألفية الجديدة، نواجه ظروفاً تبعث على القلق: الطائرات التي كانت تُعتبر في السابق بمثابة نذير "القرية العالمية" أصبحت صواريخ مدمرة؛ والرسائل التي تحملها خدمة البريد أصبحت أدوات قاتلة. كتب إيفلين وو في مذكراته: "كلنا أمريكيون في سن البلوغ، لكننا نموت فرنسيين" - في إشارة إلى كيف يتحول التفاؤل الساذج إلى واقعية كئيبة نتيجة للتجربة. إن نضوج ثقافتنا هذا قد يجعلنا نقدر الغنوصية مرة أخرى.

في محاولاتهم لتشويه سمعة الغنوصية، قام منتقدوها الأوائل والأكثر تأثيراً بتصويرها على أنها مليئة بالتفلسف عديم الفائدة ونتاج خيال مفرط. وقد تم التشكيك في هذه الأحكام بشكل جدي من قبل بعض المفكرين البارزين في القرنين التاسع عشر والعشرين. في حين أن الدراسات الكتابية قد ميزت الكثير من الأشياء ذات القيمة في النصوص الغنوصية، فقد أدرك الفلاسفة الوجوديون والظاهراتيون الأرضية المشتركة التي تجمعهم مع الغنوصية. من **نواحٍ** عديدة، جاءت أقوى الجهود لإعادة تأهيل الغنوصيين من عالم النفس العظيم كارل غوستاف يونغ، الذي رأى صورًا أصلية للجماعة.

اللاوعي في النصوص الغنوصية، وبالتالي تم التحقق من الأصل الرؤيوي ومحتوى الوحي الغنوصي. هذه النقطة الأخيرة ذات أهمية بالغة بالنسبة لمواضيع هذا الكتاب، وبالتالي فهي تحتاج إلى مزيد من التوضيح.

يتم نشر هذا العمل الحالي بعد مرور عشرين عامًا تقريبًا على كتابي الرئيسي الأول، "الغنائيات الغنوصية والخطب السبع للموتى"، والذي استكشفت فيه اهتمام يونغ الاستثنائي بالغنوصية، بالإضافة إلى الإشارة إلى العديد من أوجه التقارب بين علم النفس التحليلي اليونغي والغنوصية. لقد لاقى عملي استحسانًا كبيرًا، بشكل عام، من قبل مجتمع يونغ، ويعتبر عمومًا دراسة رائدة تتعلق بيونغ والغنوصية. (من بين أعز ممتلكاتي رسالة كتبها لي ابن يونغ، فرانز، بتاريخ 3 يناير 1989، شكرني فيها بلطف على الطريقة التي مثلت بها موقف والده فيما يتعلق بالغنوصية). وقد أرفقت الرسالة بنسخة أصلية مطبوعة بشكل خاص من كتاب يونغ *"Septem Sermones ad Mortiios"*، وهو الكتاب الذي استند إليه كتابي. فيما يتعلق بهذه الأمور المتعلقة بيونغ والغنوصية، فقد اتضحت لي بعض القضايا على مر السنين، ولها تأثير على هذا الكتاب.

اعتبر يونغ الغنوصيين أصحاب رؤى عبروا عن أفكارهم في المقام الأول في شكل أساطير. كان يرغب في إعادة تأهيل أساطير الغنوصيين حتى مع تأييده لإعادة تأهيل أساطير أخرى - وهي مهمة قام بها إلى حد كبير رفاقه كارل كيريني، وهينريش زيمر، وجوزيف كامبل. وبصفته عالم نفس، فضل يونغ التفسير النفسي بدلاً من التفسير الميتافيزيقي للأساطير الدينية؛ وهذا يعني أنه كان معارضاً للتفسيرات الدينية السائدة للكتاب المقدس، والتي اعتبرها ملموسة واختزالية. كان هذا التوجه لدى يونغ نحو معنى الأساطير مسؤولاً إلى حد كبير عن اهتمامه الإيجابي بالغنوصيين؛ فالأساطير الغنوصية تقبل بسهولة بالغة مثل هذه المعالجة الرمزية بدلاً من المعالجة الحرفية.

وهنا تبرز صعوبة معينة. يصر يونغ على أن تفسيره الرمزي للأساطير لا يدعي الوصول إلى الحقيقة الميتافيزيقية. أما الغنوصية، من ناحية أخرى، فتحتل منطقة غريبة بين الدين وما يُعرف اليوم بعلم النفس - وهي منطقة تلتقي فيها النفس والروح، وتتحول فيها الأحلام والرؤى إلى تجربة محررة. إن الأساطير الغنوصية، برموزها واستعاراتها القوية، تتضمن دائماً معاني نفسية وميتافيزيقية. غالباً ما تظهر هذه الأمور على شكل حلقات لا نهاية لها، حيث يشير المعنى النفسي إلى معنى ميتافيزيقي يقودنا بدوره إلى النفس الفردية. علم الكونيات وعلم النفس، والآلهة والنماذج الأصلية، تتحول – فتشير أحيانًا إلى بعضها البعض، وفي أحيان أخرى تندمج معًا فقط لتنفصل مرة أخرى. قد يواجه قارئ هذا الكتاب مراراً وتكراراً الظروف المحيرة التي يبدو فيها أن القصص الأسطورية الغنوصية وأبطالها ينتمون إلى مجال علم النفس العميق وإلى مجال الدين في آن واحد. على عكس يونغ، يدعي الغنوصيون وجود حقيقة ميتافيزيقية في تفسير أساطيرهم، على الرغم من أنهم يشيرون أيضًا إلى طرق تفسيرية يمكن اعتبارها اليوم ذات طابع نفسي عميق. إن الحل الأكثر ترجيحاً لهذا اللغز هو الرأي القائل بأن الأساطير الغنوصية يمكن تفسيرها بمعنى نفسي داخلي وخارجي، وأن كلا التفسيرين قد يكون صحيحاً ويمكن أن يتعايشا مع بعضهما البعض. ربما تكون النماذج الميتافيزيقية والنفسية، كما سيوافق يونغ بالتأكيد، مجرد محاولات لصياغة وتعبير وتشكيل ما لا يمكن التعبير عنه. من الحكمة أن يضع القارئ هذه الاعتبارات في الحسبان أثناء قراءة هذا العمل.

هذا الكتاب ليس في المقام الأول عملاً أكاديمياً بحثياً. لقد حاولت حصر المراجع والوثائق في الحد الأدنى الذي لا يمكن اختزاله مع توسيع قائمة القراءة الموصى بها وإضافة تعليقات توضيحية إليها لتسهيل الأمر على القارئ. إن شكل وأسلوب هذا الكتاب أبسط بكثير من كتبي الأخرى، بل وأبسط مما

أحب. والسبب في ذلك هو أن الكتاب يطمح إلى أن يكون بمثابة مقدمة للموضوع. ليست الغنوصية حكراً على المتعلمين أو المتدينين. ومثل أنظمة التعليم الباطنية الأخرى، يمكن تشبيهها بالمحيط، حيث يمكن لطفل صغير أن يخوض في المياه الضحلة بينما يمكن لغواص أعماق البحار أن يخترق الأعماق. ومع ذلك، من المستحيل كتابة كتاب يحمل عنوان "الغنوصية للمبتدئين". إن الموضوع ليس من النوع الذي يمكن معالجته بشكل سطحي للغاية؛ بل يتطلب قدراً معيناً من دقة التفكير وميلاً إلى الإدراك الحدسي.

ويمكننا أن نقول كلمة عن الرسوم التوضيحية. بالنظر إلى قصر تاريخ نشاطها العلني ووجودها السري الطويل، فإن الغنوصية لا تملك سوى القليل جداً من الفن المقدس الذي يمكنها أن تسميه ملكاً لها. من المحتمل جداً أن تكون هناك أيقونات غنوصية وأن هذه الأيقونات قد دُمرت خلال عمليات الاضطهاد. إلا أن جشع المضطهدين لم يسمح لهم بتدمير أعداد كبيرة من الأحجار الكريمة التمائمية ذات الأصل الغنوصي. تحتوي هذه التصاميم على أشكال رمزية، وغالباً ما تصور كائنات مذكورة في الأساطير الغنوصية. معظم هذه الأحجار الكريمة موجودة في مجموعات خاصة وليست متاحة لأغراض الاستنساخ. لحسن الحظ، سمح لي صديق مجهول بإعادة إنتاج صور لبعض التصاميم الموجودة على الأحجار الكريمة في مجموعته، وقد تم إعادة إنتاج بعض هذه التصاميم في هذا الكتاب. لا يوجد الكثير مما يمكن توضيحه مما هو غنوصي حقًا، باستثناء بعض الأماكن التاريخية، وصور الأشخاص الذين شاركوا في الحركات الغنوصية اللاحقة.

يصف عنوان هذا الكتاب محتواه بأنه يحتوي على رؤى ثاقبة حول أحد التقاليد. هذا ليس مجرد تعبير مجازي، لأن الغنوصية هي في الحقيقة تقليد وليست مجرد مجموعة من الأفكار والأساطير والرموز التي يمكن تفسيرها وفقًا لأي نزوة أو رأي. ما لدينا هنا هو تقليد متكامل ذو رؤية عالمية محددة، وكتب مقدسة، وطقوس سرية، وكهنوت، وسلالة روحية. لو كانت الغنوصية مجرد شكل من أشكال

الروحانية ذات الدافع التلقائي، دون وساطة التقاليد، لما كانت هناك حاجة لكتاب كهذا. لكن الأمر ليس كذلك، ولذلك يُعرض هذا الكتاب الآن على القارئ للنظر فيه.

شكر وتقدير

نتقدم بجزيل الشكر والامتنان لجون ألجيو لاقتراحه كتابة هذا الكتاب؛ ولشارون دور وآنا إي. أوروسيفيتش من دار نشر كويست بوكس لمساعدتهما؛ ولصديق مجهول في ولاية أوهايو لإذنه بإعادة إنتاج جزء من مجموعته من الجواهر الغنوصية؛ ولأوباديا هاريس، رئيس جمعية البحوث الفلسفية، لإذنه بإعادة إنتاج صورة خاتم مانلي ب. هول الغنوصي؛ ولجاي كيني لإذنه بإعادة إنتاج مواد من تأليف مؤلف هذا الكتاب نُشرت أصلاً في مجلة غنوسيس؛ ولمجلة كويست لإذنها بإعادة إنتاج مواد من تأليف المؤلف نُشرت أصلاً فيها؛ ولبول كينويتش لإهدائه لنا العديد من صوره لقلعة مونسيغور؛ وللمرحوم بي. إي. دي لا تور لإهدائه لنا صوراً لآثار وتصاميم الكاثاريين، بالإضافة إلى تصاميم تتعلق بملابس الكنيسة الغنوصية الأصلية في فرنسا. وخاصةً لبريان كامبل لمساعدته القيّمة في إعداد المخطوطة والرسوم التوضيحية لهذا العمل.

الفصل الأول

مباشرة من وراء الحجاب

إن أحد أقدم وأعظم المحفزات للفكر الفلسفي والرؤى الصوفية هو سر السماء الليلية. قبل وقت طويل من كشف علم الفلك عن اتساع الفضاء، أو الولادة الرائعة

للنجوم الجديدة إلى جانب الوجود المشؤوم للثقوب السوداء الملتهمة، نظر الرجال والنساء إلى قبة السماء المظلمة المرصعة بالنجوم واستلهموا من تلك الرؤية. إحدى الصور التي تنشأ من تأمل سماء الليل هي التباين بين النقاط الضوئية التي لا تعد ولا تحصى والسواد الكثيف الذي تبدو معلقة عليه. يبدو أن وعاءً أو غطاءً داكناً يغطي عالمنا، ويحيط بنا بعتامة كثيفة وقمعية. ومع ذلك، فإن هذه الكرة المقلوبة مليئة ببقع

من الضوء يمكن تخيلها بسهولة على أنها ثقوب في الحجاب الأسود، مما يشير إلى عالم لا حدود له من النور ينبعث منه ضوء النجوم.

"هناك شرخ في كل شيء؛ هكذا يدخل النور" - هكذا غنى ليونارد كوهين في أغنية "أنثيم". ربما كان من الممكن بسهولة أن تُقال استعارته البسيطة قبل ألفي عام أو نحو ذلك من قبل الأشخاص غير العاديين

1

والساحرين على الدوام الذين أصبحوا يُعرفون باسم الغنوصيين. بعد أن تعرضوا للسخرية والاضطهاد باعتبارهم زنادقة، تراجع وجود الغنوصيين إلى حد الهشاشة بعد القرون المسيحية الثلاثة أو الأربعة الأولى، ومع ذلك استمرت تعاليمهم وممارساتهم في الظهور على مر تاريخ الثقافة الغربية. ما إن يتم إعلان الغنوصيين والغنوصية منقرضين حتى يعودوا للظهور، وقد تغير شكلهم لكن جوهرهم لم يتغير. على الرغم من أن أعدائها يصورونها باستمرار على أنها ظاهرة تاريخية غريبة ذات أهمية أثرية بحتة، إلا أن الغنوصية جذبت أصدقاء وحتى أتباعًا من مكانة فولتير، وويليام بليك، وويليام بتلر ييتس، وهيرمان هيسه، وكارل غوستاف يونغ، على سبيل المثال لا الحصر. من بين الميول الفلسفية، تدين الوجودية بالكثير للغنوصية، واليوم يتزايد عدد الأشخاص في مختلف مناحي الحياة الذين يعلنون انتماءهم إلى الغنوصية. في بداية الألفية الثالثة من العصر المسيحي، يبدو أن الغنوصيين قد عادوا وأنهم هذه المرة **يعتزمون البقاء.**

إن مصطلحي غنوصي و غنوصية مشتقان من الكلمة اليونانية *GNOSiS*، والتي تُترجم عادةً (وإن كان ذلك بشكل مضلل إلى حد ما) إلى "المعرفة". لفترة طويلة، كان معظم الناس أكثر دراية بنقيض كلمة osrir - أي اللاأدري - بمعنى "شخص يدعي أنه لا يعرف شيئًا عن الحقائق والمخاوف النهائية". وعلى النقيض من ذلك، يُعرَّف الغنوصي غالبًا بأنه الشخص الذي يسعى إلى الخلاص من خلال المعرفة. لكن المعرفة التي يسعى إليها الغنوصي ليست معرفة عقلانية؛ بل إنها أقل من ذلك بكثير، فهي ليست تراكمًا للمعلومات. تُفرّق اللغة اليونانية بين المعرفة النظرية والمعرفة المكتسبة من خلال التجربة المباشرة. وهذه الأخيرة هي الغنوص، والشخص الذي يمتلك هذه المعرفة أو يطمح إليها هو غنوصي. تشير إيلين باجلز، في عملها الشهير "القطيع الغنوصي"، إلى أنه بالمعنى الذي يستخدمه الغنوصيون أنفسهم، ربما ينبغي ترجمته على أنه "بصيرة"، لأن الغنوص يتضمن عملية حدسية تشمل كلاً من المعرفة الذاتية ومعرفة الحقائق الإلهية النهائية. إن حيوية وجاذبية الرسالة الغنوصية الدائمة تستند في المقام الأول

إلى تقاربها مع الطبقات الأعمق للعقل البشري. وقد اقترح عدد من العلماء الجادين، بمن فيهم إي. آر. دودز، وجيل كويسبيل، وجيرشوم شوليم، أن الغنوصية تنشأ من تجارب النفس، حيث يلتقي علم النفس النمطي والتصوف الديني. لا عجب أن المستكشفين العظماء للأبعاد النفسية العميقة للأسطورة، مثل كي. غي. يونغ، وكارل كيريني، وميرسيا إلياد، وجوزيف كامبل، قد أبدوا جميعًا تعاطفًا كبيرًا مع الغنوصية.

بما أن جوهر الغنوصية ينشأ من نوع محدد من الخبرة، فإن ذلك يترتب عليه أن أولئك الذين يفتقرون إلى هذه الخبرة يسيئون فهم الرؤى الغنوصية بسهولة. من المفاهيم الخاطئة التي يتبناها حتى بعض العلماء أحيانًا أن الغنوصية، بسبب تنوع صورها وأساطيرها، لا يمكن اعتبارها تقليدًا متماسكًا أو "مذهبًا". هذا الفهم الخاطئ له تاريخ طويل. في القرن الثاني، هاجم الأسقف إيرينيئوس الليوني، وهو معارض شرس للغنوصيين، الغنوصيين بسبب إبداعهم الروحي والأدبي، متهمًا إياهم بإنتاج إنجيل جديد كل يوم. كان من ضمن تصريحاته الرأي القائل بأنه حيثما توجد ثروة من الصور والأساطير والتعاليم المتنوعة، فلا يمكن أن يكون هناك مذهب متماسك يعادل العقيدة والقانون الخاص بالكنيسة المسيحية السائدة. إن ما يغيب عن بال النقاد من إيرينيئوس إلى العلماء المعاصرين هو أن التعاليم الغنوصية هي النتيجة المباشرة لتجربة الغنوص.

من ناحية أخرى، نادراً ما تؤدي هذه التجربة، إن لم يكن أبداً، إلى صياغات موحدة وعقائدية على غرار اللاهوت الأرثوذكسي. ومع ذلك، وعلى الرغم من الغياب المنعش لمثل هذه الصياغات، إلا أن هناك تعليمًا مشتركًا أو أساسيًا في الغنوصية يعكس تجربة غنوصية مشتركة أو أساسية.

لقد اتجه العديد من الناس في العقود الأخيرة، بل ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى الديانات الشرقية بحثاً عن تعاليم وممارسات أقل جموداً وأكثر إلهاماً. ربما لم يكن لديهم أدنى فكرة عن وجود بديل كهذا أقرب إلى ديارهم، وأنه يُطلق عليه اسم الغنوصية. كما يبدو أنهم

لم يدركوا أوجه التشابه بين الرؤى الغنوصية والشرقية حول الواقع والنفس والحاجة إلى التنوير. وقد كان بعض هؤلاء الأشخاص مسؤولين عن غرس أفكار من **الشرق** في عقول الغنوصيين. وقد اقترح آخرون، وبنفس القدر من المعقولية، أن بعض المدارس الفكرية الشرقية، وخاصة البوذية الماهايانية، ربما تأثرت بالأفكار الغنوصية. ومرة أخرى، يبدو أن أهم عنصر مشترك يربط الشرق والغرب في هذا الصدد هو تجربة الغنوص. وقد لوحظ هذا التشابه في وقت مبكر حوالي عام 225 ميلادي من قبل هيبوليتوس، وهو خصم مسيحي أرثوذكسي آخر للغنوصيين، الذي كتب في ردوده على الهرطقات عن البراهمة في الهند: "يقولون إن الله نور، ليس مثل النور الذي يراه المرء، ولا مثل الشمس أو النار، ولكن بالنسبة لهم الله هو الكلام، ليس ما يجد تعبيرًا في أصوات واضحة، بل هو المعرفة [غنوص] التي من خلالها يدرك الحكماء أسرار الطبيعة الخفية".

الغنوص في الشرق أو في الغرب لا زال غنوصا، وهذا هو المهم حقًا بمعنى حقيقي. خلافاً لآراء البعض، فإن مصطلح الغنوصية ليس صندوقاً فارغاً يمكن للمرء أن يضع فيه ما يشاء. بل إن التقاليد الغنوصية تستند إلى تجربة الغنوص وتتميز بمواقف معينة تجاه الحياة والواقع وببعض الأساطير والتعاليم المتعلقة بأصول وطبيعة الكون والإنسان والتي هي نتيجة لهذه التجربة نفسها. هذه الخصائص تميز الغنوصية كتقليد متميز وغير منقطع يمكننا تحديده وتتبعه عبر العصور وعبر العديد من الثقافات.

تجربة الغنوص

لا يبدو أن مصطلح *gnostikos*، الذي يعني "الغنوصي" أو "العارف"، قد تم استخدامه كثيرًا في القرون الأولى الميلادية. أطلق معظمهم على أنفسهم ببساطة اسم

المسيحيين، على الرغم من وجود مدرسة غير مسيحية للغنوص تُعرف باسم الهرمسية. ومع ذلك، هناك اتفاق واسع النطاق على أن الأشخاص المعنيين كانوا يطمحون إلى تجربة جلبت لهم معرفة محررة بالألوهية وبتعقيدات ومآزق الحالة الإنسانية، وكانوا مشاركين فيها. لا نستطيع أن نروي بالتحديد كيف اكتسب العارفون معرفتهم. ذكر يونغ مراراً وتكراراً أن نصوص الغنوصيين تشهد على تجارب نفسية صوفية ذات مستوى مثير للإعجاب للغاية، وأن ما يسمى بالغنوص هو بلا شك معرفة نفسية مستمدة محتوياتها من رؤى النفس النموذجية. تحدث جيرشوم شوليم، العالم الكبير في التصوف اليهودي، عن هذه التجربة باعتبارها باطنية صوفية تقوم على اكتساب معرفة أعلى بالأمور السماوية والإلهية. وقد أعجب شوليم بشدة أيضاً بانشغال الغنوصيين في القرنين الثاني والثالث بالصعود عبر أفلاك الكواكب إلى عالم يتجاوز الأرض والكون، وبالتالي العودة في الوعي إلى موطنهم الروحي الحقيقي في كمال النور الإلهي - وهي عودة كانت تعني الفداء في التقاليد الغنوصية. لعل هذه "الرحلات السماوية" هي الاستعارة المركزية للمعرفة المحررة والمقدسة التي كان هؤلاء الناس يطمحون إليها.

لقد أولت الديانات التوحيدية، اليهودية والمسيحية والإسلام، في مظاهرها الرئيسية، أهمية كبيرة للإيمان. "أنا أؤمن" *(credo)* هو التأكيد المركزي لكثير من العقل الديني التقليدي. وعلى النقيض من ذلك، فإن العقل الغنوصي لا يطمح إلى الإيمان، بل إلى معرفة داخلية معينة تحرر المرء من اللاوعي وتنقله في النهاية إلى ما وراء حدود الوجود الظاهر نفسه، وهو ما يحققه في نهاية المطاف. من المرجح جداً أن تتمتع هذه الحالة بمزايا معينة مقارنة بمجرد الإيمان أو الاعتقاد. لاحظ ويليام جيمس، الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي العظيم، أن الإيمان بالنسبة لمعظم الناس يعني الإيمان بإيمان شخص آخر. في أذهان العديد

من المتدينين، تحول الإيمان إلى اعتقاد يتم تلقيه بشكل غير مباشر من مؤمنين آخرين، ومن غير المرجح أن يكون لأي منهم أي تجربة مع موضوع إيمانهم.

الإيمان هو نمط مختلف تمامًا عن المعرفة، لذلك من السهل جدًا فهم سبب اختلاف الدين التقليدي عن الغنوصية. يُعترف بنوع معين من الإيمان (*pistis*-بيستيس) على أنه صحيح في الغنوصية، ولكنه إيمان بتجربة المرء، وولاء دائم يشعر به المرء تجاه تجربته للمعرفة الداخلية المحررة. تُسمى الشخصية الأنثوية الإلهية الغنوصية، صوفيا، بيستيس (الإيمان) لأنها في جميع مصائبها تظل وفية لرؤيتها للنور.

يصف هارولد بلوم، أحد أبرز المعجبين المعاصرين بالغنوصية، تجربة الغنوص بمصطلحات معاصرة في كتابه "نذير الألفية". ويقول إن الغنوص ظاهرة متنوعة. قد يحدث ذلك عندما يكون المرء وحيداً، أو قد يحدث من خلال وجود شخص آخر. قد يقرأ المرء أو يكتب أو يراقب صورة أو ظاهرة طبيعية، أو قد ينظر فقط إلى داخله. قد تلعب الموسيقى والبخور والطقوس دورًا مهمًا؛ في الواقع، إن الميول الطقسية والاحتفالية للغنوصيين معروفة جيدًا. في جميع الحالات، يحدث تغيير كبير في الوعي ينقل العارف إلى ما وراء حدود الوعي الشخصي، بل وإلى ما وراء حدود العالم الذي نعيش فيه. يصف بلوم بدقةٍ أهمّ مظاهر تجربة الغنوص بأنها (1) معرفة إلهٍ مجهولٍ للعالم وبعيدٍ عنه، إلهٌ في منفى من خلقٍ زائف و

(2) الاعتراف بأن الطبيعة الأعمق للفرد لم تكن جزءًا من الخلق (أو السقوط) ولكنها كانت ولا تزال جزءًا من الكمال الذي هو الله. هذا الإله أكثر إنسانية وأكثر إلهية من أي إله يُعبد في العالم. استخدم المسيحيون الأوائل مصطلح "غنوص" بمعنى المعرفة من خلال المعرفة الشخصية. استخدم القديس بولس الرسول هذا المصطلح بشكل متكرر للإشارة إلى معرفة الله التي قد يمتلكها البشر. من أوضح التصريحات التي أدلى بها بشأن الطابع الرؤيوي

وربما حتى البصري للغنوص جاء في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (4.6): "الله ... أشرق في قلوبنا ليعطينا نور المعرفة [الغنوص] لمجد الله في وجه المسيح". ومن الرسل الآخرين الذين كانوا يميلون إلى الغنوصية (أي ما يشبه الغنوصية) القديس يوحنا، الذي كتب كثيراً عن معرفة *(gignoskein)* الله أو المسيح. إن كل من يقرأ إنجيل يوحنا الجميل يندهش من تشابهه مع الأسلوب الشعري والرؤيوي لكتابات الغنوصيين. إن تركيز الكثير من أدبيات العهد الجديد على الغنوص هو مصدر الأهمية التي أولاها كل من المتصوفين المسيحيين السائدين والغنوصيين لكلمة الغنوص.

يقترح الباحث المعاصر المتفائل، دان ميركور، في كتابه "الغنوص: تقليد باطني للرؤى والاتحادات الصوفية"، أن المصادر التجريبية للغنوص موجودة في نوعين مترابطين من التجارب. أحد هذه التجارب هو نوع مميز من التجارب الرؤيوية التي تكشف عن الحقائق النهائية، وإن كانت تتجلى في تجارب عقلية شخصية وبالتالي تختلف إلى حد ما من فرد لآخر. أما الأمر الآخر فيتعلق بتجارب الاتحاد الروحي. لم يعتبر الغنوصيون أنفسهم هذه الرؤى بمثابة إدراكات حسية خارجية لبيانات خارجية موجودة على "مستويات" أعلى، كما فهمها علماء الخوارق في القرن التاسع عشر. ولم يعتبروها تمثيلات رمزية لأفكار مجردة، كما كان شائعاً بين الفلاسفة اليونانيين الأكثر ميلاً إلى التصوف. بل يبدو أن الغنوصيين قد سلكوا طريقاً حاداً بين شبه الموضوعية الاستبصارية والذاتية الفلسفية المجازية. وهكذا، على الرغم من وجود جوهر مشترك للمعنى والاتجاه، فإن روايات تجارب الغنوصيين متنوعة ومتعددة.

كثيراً ما يميز دارسو التجربة الصوفية بين ما يسمونه الحالات الصوفية الرؤيوية والوحدوية، فالأولى وصفية، والثانية تدل على الاتحاد الإلهي. يبدو أن الغنوصيين القدماء قد تناولوا كليهما. غالباً ما تضمنت الرؤى الغنوصية عمليات الصعود إلى السماء، ولكن أنواعاً أخرى من الرؤى، مثل الموت النشواني،

كانت موجودة أيضاً. مات المرء للعالم المخلوق وصعد عبر المناطق الأبدية، منخرطاً في حوارات مع سكان هذه العوالم. ويبدو أن الغنوصيين كانوا يعلمون أن هذه الرؤى هي جزئياً على الأقل رؤى نفسية داخلية، وقد منحوها مكانة خاصة. وصفوها بأنها تجارب تتحد فيها "الشرارة الإلهية" *(بنيوما (الروح))* الموجودة في الفرد مع حقيقة العوالم العليا. ومثل غيره من المتصوفين، **يبدو** أن الغنوصي فهم التجربة الوحدوية على أنها اقتران *(بالنسبة للمتصوفين)* إما بكائن إلهي (صوفيا، المسيح) أو بالجوهر الروحي للألوهية المطلقة. يمكن وصف عملية توليف هذه التجارب الرؤيوية والوحدوية بأنها غنوص.

الغنوص والغنوصية

لقد بُذلت عدة محاولات للتمييز بين الغنوص والغنوصية. بعض هذه التعريفات - من بينها التعريفات التي وضعتها مجموعة من العلماء في ندوة ميسينا عام 1966 - كانت واعدة ولكنها أثبتت أنها معيبة. إن تعريف الغنوصية بأنها مجموع معتقدات بعض "طوائف القرن الثاني" الذين كانوا "ثنائيين، ورافضين للعالم" لا يبدو مفيداً ولا دقيقاً. ولا يبدو تعريف الغنوص على أنه "معرفة الأسرار الإلهية المحفوظة للنخبة" مفيدًا بشكل خاص. وقد لاحظ بعض الباحثين المطلعين في هذا المجال أن هذه التعريفات، بالإضافة إلى بعض التصريحات الأخرى حول الغنوصيين التي تظهر في العديد من الكتب، هي استمرار للمنظور المنحرف لعلم الهرطقة المسيحية. من هذا المنظور، يهتم المرء حقًا بالغنوصية ليس بشروطها الخاصة، ولكن فقط لأنها أثارت غضب مجموعة من الأشخاص المتعصبين قبل ألف وثمانمائة عام. تبدو العديد من تصريحات علماء الهرطقة القدامى ضد الغنوصيين والغنوصية غير ذات مصداقية، بل وحتى سخيفة إلى حد ما اليوم. لقد تم دحض فكرة أن الغنوصية كانت في الأساس مزيجًا من تعاليم من مصادر مختلفة كانت موجودة في ذلك الوقت. يتفق عدد

متزايد من الباحثين المعاصرين مع يونغ، الذي أقر بأن النصوص الغنوصية كانت في الواقع تستند إلى تجارب مؤلفيها المباشرة مع صور أصلية لكائنات ومناطق غامضة. ولا يبدو النقد الصريح لإله العهد القديم، الذي عبر عنه الغنوصيون بشكل متكرر، بمثابة تدنيس للمقدسات بشكل خاص بالنسبة للأشخاص المعاصرين، الذين غالباً ما يتغذون على أفكار نيتشه أو اللاهوتيين الذين يؤمنون بموت الإله، مثل ألتيزر وهاملتون. في ضوء الأدلة المتاحة الآن، قليلون هم الذين سيوافقون آباء الكنيسة الذين صوروا الغنوصية على أنها بدعة معادية للمسيحية عن قصد، وانحراف شيطاني للمسيحية يستحق كل أنواع الإدانة.

لقد أثر التحيز الهرطقي على نظرة معظم الكتاب والوعاظ فيما يتعلق بالغنوصية لفترة طويلة للغاية. صحيح أن النزعات المعادية لرجال الدين في عصر التنوير والعديد من حركات الإحياء الباطنية في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين قد ولّدت قدراً كبيراً من التعاطف مع الغنوصيين، إلا أن التحيز القديم المنبثق من النقاد المسيحيين الأوائل ظل قائماً. لم يحدث ذلك إلا بعد اكتشاف وترجمة مخطوطات نجع حمادي الغنوصية (والتي سنتحدث عنها لاحقًا) حيث شهد المناخ المتعلق بالغنوصية تغييرًا حميدًا متسارعًا باستمرار. الآن، في مطلع القرن الحادي والعشرين، أصبح من الممكن أخيراً تقديم شرح للغنوصية دون مواجهة المعارضة الهائلة للتحيز الذي حكم ثقافتنا لفترة طويلة جداً.

ما هي الغنوصية إذن، وما علاقتها بتجربة الغنوص؟ لا يعمل الوعي البشري في فراغ مفاهيمي. إن التجارب الذهنية الرؤيوية والوحدوية تترجم بالضرورة إلى إطار مفاهيمي يتناسب مع محتواها وأهميتها. من الرؤى والنشوات تولد العقائد الدينية، والبنى الفلسفية، والمفاهيم اللاهوتية والثيوصوفية. لقد كان الأمر كذلك منذ عهد الشامان الأوائل، وكذلك كان الحال مع الغنوصيين في القرون المسيحية الأولى. يكمن الفرق

بين التدين السائد، أياً كان نوعه، من جهة، والغنوصية، من جهة أخرى، في ما يحدث لأنظمتهما بعد ذلك. بينما يبدو أن الأديان التقليدية راضية بروايات تجاربها التأسيسية المسجلة في الكتب المقدسة، فقد سعى الغنوصيون دائمًا إلى مزيد من التوسعات والإضافات للتجارب الأولية للغنوص. لم يكن الغنوصيون في المقام الأول مؤمنين بغنوص الآخرين، بل كانوا يميلون إلى إضافة رؤى إلى مؤسسيهم ومعلميهم من خلال تجاربهم الخاصة. والأهم من ذلك، أن عملية الغنوص المستمرة هذه تتطلب إطارًا مفاهيميًا تجد فيه التجارب الجديدة مكانها ذي المعنى. أصبح هذا الإطار المفاهيمي أو النظرة العالمية، الذي لطالما وجدت التجارب الغنوصية مكانها فيه، يُعرف باسم الغنوصية.

يُعرّف بيان غنوصي معياري مبكر محتوى

وآثار الغنوص:

ما يجعلنا أحراراً هو غنوص من كنا،

وما أصبحنا عليه، وأين كنا،

وإلى أين أُلقينا، وإلى أين نسرع، وما الذي نتحرر

منه، وما هي الولادة حقاً، وما هي الولادة الجديدة حقاً.

(مقتطفات من كتابات ثيودوتوس)

إن الشخص الذي يتلقى بشكل حدسي إجابات دقيقة على هذه الأسئلة يكون قد حصل على الغنوص التحرري. يمكن القول إن الجمع بين هذه الأسئلة وإجاباتها يشكل المذهب الغنوصي، ويمثل جوهر ليس فقط الغنوص بل الغنوصية.

قد يفترض الباحثون المعاصرون في هذه الأمور أنه يمكن أن يكون هناك غنوص بدون الغنوصية، وأن الشخص يمكن أن يختبر الرؤى والاتحادات دون تبني النظرة الغنوصية للعالم. قد يرد الغنوصيون القدماء،

وكذلك أتباعهم المعاصرون، بأنه على الرغم من أن هذا ممكن، إلا أنه لا يؤدي إلى نتائج مثمرة. ما فائدة خوض تجارب غير عادية دون وجود سياق مناسب لفهمها؟ لقد تطورت تقاليد الغنوصية على أساس هذه التجارب في المقام الأول، وهي مناسبة بشكل فريد لتسهيل المزيد من التجارب الغنوصية. من الواضح أن الغنوص والغنوصية مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً ومفيداً، وفي الواقع، لا يمكن فصلهما بأمان.

نعلم اليوم أن الغنوصيين كانوا يؤكدون دائماً على الفهم والرؤى المستمدة من الفهم. لم يكن هذا الفهم شائعاً وعادياً، بل كان يجسد معرفة أعلى، وفهماً أعمق للأمور الإلهية والبشرية، مما هو متاح عادةً للإيمان أو للفلسفة. ومثل المتصوفين في التقاليد الأخرى، اعتقد الغنوصيون أن هذه المعرفة المنقذة لا تنشأ فقط من عمليات التفكير العقلانية القائمة على حفظ العبارات (حتى وإن كانت مقدسة) أو دراسة الكتب؛ ومع ذلك، مثل المتصوفين الآخرين، قاموا بتأليف وثائق توسع رؤاهم الرؤيوية ومحاولة توصيلها للآخرين. تعلن هذه النصوص عن وجود إله متعالٍ ولطيف تمامًا، وهو أساس للواقع لا يتغير ولا يمكن قياسه، ويتجاوز أي خصوصية أو فرض مقيد قد ينسبه المرء إليه. من البديهي أن صورة الإله هذه لا تتوافق إطلاقاً مع صورة إله شخصي تعسفي ومتسلط، يبدو فيه، على أقل تقدير، الخير والشر مختلطين بشكل كبير.

من هذه الجوهرية المطلقة تنبثق الشرارات أو الأرواح التي هي جوهر النفوس البشرية، وإليها تسعى للعودة. كل كيان روحي هو شرارة نقية أو ذرة من الوعي الإلهي وهو من نفس جوهر الله. ومع ذلك، فرغم أن هذه الشرارات متحدة وجودياً مع الإلهي، إلا أنها منفصلة عنه وجودياً. يجب فك هذا الانفصال، لأنه كما تعبر عبارة كتابية عن ذلك، "قلوبنا لا تهدأ حتى تجد راحتها" في الله. إن الشوق

المؤلم، الذي غالباً ما يكون غير واضح، إلى شيء أعظم وأكثر معنى وأكثر ديمومة مما يمكن تجربته في الجسد الأرضي هو بداية تفكيك هذا الانفصال الكبير. إن تحرير الغنوص، مما يؤدي إلى وعي متعالٍ، هو الغاية الفعالة للانفصال.

باستخدام استعارة سماء منتصف الليل مرة أخرى، يمكننا أن ننظر إلى القبة المظلمة فوقنا على أنها حجاب مثقوب، ومن خلال الثقوب الصغيرة التي يخترق ضوء الحقيقة المطلقة رؤيتنا. من خلال الثقوب - الشقوق في الكون - يدخل نور متعالٍ إلى وعينا. هذا النور هو نور الغنوص الذي يوقظنا على إمكانيات طالما رغبنا بها ولكن لم تتحقق بعد. ينادي النور النور، أو ينادي الله أبناءه، حتى وهم يصرخون إليه. يُرفع الغطاء الذي يغلق كوننا، فنرى المحيط الشاسع من النور الذي لا حدود له، والذي نحن شراراته المنفية مؤقتًا. هكذا كانت ولا تزال رؤية الغنوصيين. المكونات الأساسية لهذه الرؤية قليلة العدد وبسيطة في طبيعتها؛ أما آثارها التفصيلية فهي أكثر عدداً وتعقيداً. لننتقل الآن إلى دراسة هذه التفاصيل.

النظرة العالمية الغنوصية

يكمن جوهر الغنوصية في تجربة روحية محددة، متجذرة في الرؤية والاتحاد، لا تخضع للغة اللاهوت والفلسفة، بل ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأسطورة وتعبر عن نفسها من خلالها. في هذا السياق، لا يعني مصطلح الأسطورة قصصًا غير صحيحة، بل قصصًا تجسد حقائق من نوع مختلف عن عقائد اللاهوت أو نظريات الفلسفة. كانت الأساطير تحظى بمكانة مرموقة في العالم القديم. على الرغم من فقدانها للتقدير في القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلا أنها تستعيد مكانتها بشكل متزايد في عصرنا الحالي. شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين نهضة أسطورية صغيرة، ساهم في تسهيلها إلى حد كبير كل من كي غي يونغ، وميرسيا إلياد، وجوزيف كامبل. لقد عزز عملهم الفهم الواسع النطاق بأن المعاني

الموجودة في الأساطير، القديمة منها وغير القديمة، يمكن أن تساعد في التخلص من الاغتراب وانعدام الجذور السائد في النفس الفردية والجماعية لثقافتنا. وهكذا، نحن اليوم في وضع أفضل بكثير مما كنا عليه قبل قرن من الزمان لتقدير الرسالة الأسطورية للغنوصيين. يعرض هذا الفصل

بعضاً من المواضيع الرئيسية للأساطير الغنوصية. وبما أن هذا العرض يجب أن يكون بالضرورة نثرًا وليس باللغة الشعرية والخيالية للمصادر الأصلية، فإن بعض جاذبية وجمال الأساطير يضيع.

الله و الكون

تُقر معظم الأنظمة الدينية والفلسفية، بشكل أو بآخر، بأن العالم غير كامل. يكمن الاختلاف بينهما في ما يقترحان فعله حيال ذلك. في العديد من التقاليد، يُصوَّر البشر على أنهم الأشرار. على سبيل المثال، يرى الفكر اليهودي المسيحي السائد أن تجاوز أول زوجين من البشر أدى إلى سقوط ليس فقط الجنس البشري ولكن كل الخليقة. تُعتبر عيوب وشرور الحياة الدنيوية من نتائج هذا السقوط. يتبنى بعض دعاة حماية البيئة المتطرفين موقفاً يبدو وكأنه ترجمة علمانية حديثة لعقيدة السقوط. يُنظر إلى البشر على أنهم المخربون، والخطاة الأصليون الذين يدمرون الفردوس الطبيعي بشكل دائم. لدى الغنوصيين وجهة نظر فريدة ومثيرة للدهشة ربما حول هذه الأمور: فهم يعتقدون أن العالم معيب لأنه خلق بطريقة معيبة.

تبدأ الغنوصية بالاعتراف بأن الحياة الأرضية مليئة بالمعاناة وعدم الدوام. "الحياة صعبة ثم تموت" هو قول مأثور يتفق معه الغنوصيون، على الرغم من أنهم قد يعدلون الجزء الأول منه وبالتالي يعوضونه. تستهلك جميع أشكال الحياة أشكالاً أخرى لتغذية نفسها، وبالتالي تجلب الألم والخوف والموت لبعضها البعض. هذه الحقيقة تنطبق حتى على الحيوانات العاشبة، التي تعيش عن طريق تدمير حياة النباتات. بالإضافة إلى ذلك، فإن ما يسمى بالكوارث الطبيعية - الزلازل والفيضانات والحرائق والجفاف والانفجارات البركانية والأوبئة - تجلب معها المعاناة والموت. كلما كان الكائن الحي أكثر تعقيداً، كلما كان إحساسه بالمعاناة والضيق أشد.

إن مواجهة هذه الحقائق المقلقة بشكل مباشر ليس **بالأمر السهل.** معظم البشر لديهم حاجة نفسية قوية للنظر إلى الحياة على أنها حميدة وسعيدة إلى حد ما. كثيراً ما وُصِف الغنوصيون (والبوذيون) بأنهم متشائمون وكارهون للعالم بسبب استعدادهم لمواجهة الجانب المظلم من العالم. ومع ذلك، يؤكد كلا هذين التقليدين على وجود مخرج من المعاناة والجهل، وأن هذا المخرج ينطوي على تغيير جوهري وخلاصي في الوعي.

طالما أن الشخص لا يرفع وعيه إلى ما وراء العالم المادي إلى حقائق روحية أعلى، فإن استعباد النفس في الظلام - سواء كان الظلام في العالم المادي الخارجي أو في عالم العقل - يستمر. يبدو الأمر كما لو أن الجسد والعقل كانا بمثابة قضبان قفص تُحبس فيه النفس (أو الروح). عندما يخرج الكيان الأسير من القفص ويحلق عالياً، فإنه يرتفع إلى عوالم روحية حيث يكمن المعنى المطلق والسعادة. وبعد أن يحلق عبر هذه المناطق، يصل في النهاية إلى موطنه البدائي، الإلهي.

إن وصف الغنوصيين بأنهم متشائمون لا يكون صحيحاً إلا إذا اعتبر المرء أن المجالات المادية والنفسية الشخصية هي الحقائق الوحيدة. للأسف، تشكل هذه النظرة أساساً للكثير من الفكر العلماني المعاصر في ثقافتنا. وعلى النقيض من هذا الرأي، يولي الغنوصيون قيمة عالية لإمكانية التحرر الذاتي للوعي المتعالي.

قد يكون القارئ على دراية بتشبيه أفلاطون الشهير بالكهف. يظن السجناء المحتجزون في الكهف، لعدم قدرتهم على رؤية الخارج، أن الظلال على جدار الكهف هي الواقع. لكن النور الذي هو مصدر الظلال هو الحقيقة المطلقة. يعتقد الغنوصيون أن لدى البشر القدرة على الابتعاد عن الظلال على الجدار بشكل دائم والتواصل مع الواقع مباشرة. هذا هو الأساس لنقطة مهمة: يُنظر إلى العالم المخلوق، بما في ذلك جزء كبير من العقل البشري، على أنه شر من قبل الغنوصيين في المقام الأول لأنه يصرف الوعي عن معرفة الإلهي. إن الجانب المادي يجذب المرء حتماً إلى الخارج (يطلق علم النفس على هذا "الانفتاح")، بينما يركز اضطراب العقل الشخصي

الانتباه على نفسه. من خلال هذا التشتيت المزدوج، يتم نسيان الذات الداخلية. ومع ذلك فإن هذا الذات الداخلية ("الروح"، باليونانية *pneuma (بنيوما)*) هي نقطة التجاوز في مجال التجربة الإنسانية، لأنها وحدها لها صلة مباشرة بالألوهية المطلقة. من خلال تجربة التجاوز، يمكن التراجع عما يعتبره الغنوصيون "الخطيئة الأصلية" الحقيقية، ألا وهي اغتراب الإنسان وانفصاله عن الإلهي.

إن القول بأن الغنوصية مناهضة للكون، وأن الغنوصيين يكرهون العالم، هو تبسيط مفرط للغاية. إن ما يكافح ضده الغنوصي ليس الكون بقدر ما هو اغتراب الوعي عن الحقيقة المطلقة الكامنة وراء الكون، والتي تسمى في لغة التوحيد "الله". بما أن الكون يبدو للنفس التي لا تمتلك الغنوص هو الحقيقة الوحيدة، فإنه يشكل عقبة أمام الهدف الحقيقي للغنوصي، وهو رفع الوعي فوق كل الحقائق المادية والعقلية البديلة إلى الحقيقة الحقيقية، التي تتجاوز المادة والعقل.

عاش الغنوصيون القدماء في بيئة توحيدية إلى حد كبير. آمن اليهود والمسيحيون، وحتى الوثنيون الهرمسيون، بإله واحد. يتصور الموحدون الله على أنه الخالق، وعادة ما يكون أيضًا على أنه المعيل، ومشرّع القوانين، ومنفذ القوانين في الكون. بما أن الغنوصيين - وهو أمر معقول إلى حد ما، على ما يبدو - لم يستطيعوا أن يعتقدوا أن زوجًا خاطئًا من أسلاف البشر يمكن أن يكون قد تسبب في الشرور والمصائب التي لا تعد ولا تحصى في العالم، فقد بقي لديهم مذنب واحد فقط: الخالق، الله نفسه. لم يسقط العالم، كما قال الغنوصيون؛ بل كان ناقصاً منذ البداية.

إن فكرة أن العالم قد خلقه إله ناقص على صورته المعيبة تصبح أكثر منطقية عندما يفهم المرء المفهوم الغنوصي لله، وهو مفهوم أكثر دقة من معظم المفاهيم الأخرى. إله الغنوصيين هو الحقيقة المطلقة، وهو يتجاوز الكون المخلوق، بل هو غريب عنه بمعنى ما. مثل الكاباليين ومعظم الباطنيين في جميع أنحاء العالم، يستبدل الغنوصيون فكرة الانبثاق الإلهي

بفكرة الخلق. إن الله المتعالي لا يخلق؛ بل ينبثق الجوهر الإلهي، ويظهر، من الحالة غير الظاهرة إلى الحالة الظاهرة، مما يجعل من الممكن خلق المزيد من الخلق الأكثر تحديداً. يبقى الإله الأصلي دائماً هو السبب الأول، بينما تصبح الكيانات الأخرى أسباباً ثانوية أو تابعة للخلق.

لنستخدم تشبيهاً بسيطاً: قد يقرر ممول أو مالك أرض تطوير قطعة أرض كبيرة. على الأرجح لن يشارك هذا الشخص بشكل مباشر في تنظيف الأرض وإعدادها أو في تخطيط وبناء المباني. سيقوم المهندسون المعماريون والمهندسون وعمال البناء وغيرهم بهذا العمل. هل من غير المعقول الاعتقاد بأن العالم ربما يكون قد خُلق بطريقة مماثلة؟ لطالما تبنى الغنوصيون هذا الرأي. ولتوضيح التشبيه: إذا أصبح مالك الأرض أقل انخراطاً في عملية التطوير وكان كبير المهندسين غير كفؤ وعماله مهملين، فعلى الرغم من النوايا الحسنة للمالك، فإن النتائج النهائية ستكون بعيدة كل البعد عن الكمال. كان المهندس المعماري معروفًا في الغنوصية القديمة باسم الديميورج - من الكلمة اليونانية *demiurgos*، "نصف صانع"، لأنه لم يصنع سوى الشكل وليس الحياة الداخلية للعالم. كان يُطلق على العمال والمديرين المستقبليين اسم "أركونات"، باستخدام الكلمة اليونانية التي تعني "الحكام الصغار". من البديهي أن غالبية أفعال وأقوال إله العهد القديم تتوافق مع شخصية الديميورج. يجب

أن يُعزى ازدراء الغنوصية ليهوه تحديداً إلى هذا الظرف.

الإنسان

ترى الغنوصية أن البشر ليسوا في جوهرهم نتاجاً للعالم المادي. إن المصطلح المهم في هذا البيان هو "أساساً"، لأن الغنوصية تركز على الجوهر بدلاً من الحاويات المادية والعقلية التي تغلف هذا الجوهر. على الرغم من أن نظرية التطور البيولوجي لم تكن موجودة في زمن الغنوصيين القدماء،

إلا أنه يمكن للمرء أن يخمن أنهم، على عكس إخوانهم المسيحيين السائدين، لم يكونوا ليعترضوا عليها. لأنهم كانوا يعتقدون أن الجسد البشري ينشأ على الأرض، لكن الروح البشرية تأتي من بعيد، من عالم الكمال، حيث تسكن الألوهية الحقيقية. يتكون الإنسان من مكونات مادية ونفسية، وهي مكونات قابلة للفناء، بالإضافة إلى مكون روحي، وهو جزء من الجوهر الإلهي، ويسمى أحيانًا بالشرارة الإلهية. ولأن التقاليد الغنوصية تعترف بهذه الطبيعة المزدوجة - للعالم وكذلك للبشر - فقد اكتسبت صفة الثنائية.

يجهل الناس عموماً الشرارة الإلهية الكامنة في داخلهم. هذا الجهل يخدم مصالح الأركونات، الذين يتصرفون كأسياد عبيد كونيين، ويحافظون على شرارات النور في الأسر. إن أي شيء يجعلنا نبقى متعلقين بالأشياء الأرضية، بما في ذلك المفاهيم العقلية التي نؤمن بها، يبقينا في عبودية لهؤلاء الحكام الكونيين الأدنى. أغلبية الرجال والنساء مثل آدم، الذي كان نائماً في الجنة. استغل المعلمون الباطنيون المعاصرون (ولا سيما جي. غوردجييف) هذا الموضوع الغنوصي، حيث صوروا البشرية على أنها حشد من السائرين نياماً. إن الاستيقاظ من هذا النوم هو نتيجة مشتركة لرغبتنا في التحرر وللمساعدة السماوية التي مُنحت لنا.

تزعم الغنوصية وجود علم خلاص مميز ومفصل للغاية - أي تعليم يتعلق بالخلاص والمخلصين. تُوقظ الروح البشرية النائمة بنداء الإله المطلق عن طريق رجال إلهيين، أو رسل النور. لقد انبثقت مثل هذه الكائنات من الإله الحق عبر التاريخ. إنهم ينزلون من أعلى العوالم الروحية لاستدعاء النفوس؛ يأتون لإعادة الروح البشرية إلى وعيها الأصلي وإعادتها إلى الإلهي. لم يُذكر سوى عدد قليل من هذه الشخصيات الخلاصية في الكتاب المقدس الغنوصي؛ ومن أهمها شيث (الابن الثالث لآدم)، ويسوع، والنبي ماني. في بعض الأحيان يُنسب دور خلاصي إلى بعض أنبياء العهد القديم، وفي التقاليد الغنوصية اللاحقة (المانوية) يتم الاعتراف ببعض مؤسسي الديانات العظيمة الأخرى، مثل بوذا وزرادشت،

باعتبارهم رسلًا حقيقيين للنور. لطالما نظر غالبية الغنوصيين إلى **يسوع** باعتباره الشخصية الرئيسية المخلصة. حتى ماني، الذي واصل عمله في إيران وآسيا، كان يعتبر نفسه نبياً ليسوع المسيح ويجل يسوع باعتباره المخلص.

ماذا يعني الخلاص عند الغنوصيين؟ من نواحٍ عديدة، يقترب المفهوم الغنوصي للخلاص من مفهوم التحرر الموجود في التقاليد الهندوسية والبوذية؛ فالغنوصيون ينظرون إلى الخلاص ليس من الخطيئة (الأصلية أو غيرها)، ولكن من الجهل الذي تكون الخطيئة نتيجته. أولئك الذين يعرفون الإله من خلال الغنوص يتخلصون من كل خطيئة، بينما أولئك الذين لا يملكون الغنوص لا يسعهم إلا الاستمرار في المعاصي. إن الجهل - الذي يعني الجهل بالحقائق الروحية - يتبدد من خلال الغنوص. لقد جاء الكشف الحاسم عن الغنوص من قبل رسل النور، وخاصة من قبل يسوع، الذي يُعرف بأنه رسول هذا العصر.

إن مفهوم الخلاص عند الغنوصيين مفهوم دقيق. غالباً ما يسيء طلاب الروحانية الذين يكون فهمهم للأفكار الغنوصية سطحياً فهم الخلاص عن طريق الغنوص على أنه تجربة فردية غير وسيطة تماماً، نوع من المشاريع الروحية التي يقوم بها الفرد بنفسه. إن هذا الإسقاط على التقاليد الغنوصية هو إلى حد كبير نتاج عصرنا ومجتمعنا العلمانيين المنعزلين دينياً. لو كان الخلاص ممكناً دون أي مساعدة خارجية، لكانت الغالبية العظمى من الجنس البشري قد تحررت منذ زمن بعيد. كما أن الغنوص الخلاصي ليست نتيجة مجرد القراءة والتأمل الفكري والخطاب. لكي نتحرر من مأزق الجهل الروحي، نحتاج إلى المساعدة، إلى جانب جهودنا الخاصة.

الخلاص الفردي

لطالما اعترفت الغنوصية بأن إمكانات الغنوص، وبالتالي الخلاص، متأصلة في كل رجل وامرأة، وأن الخلاص ليس بالإنابة والجماعية ولكنه فردي. وبالتالي فإن الرسالة

الكاملة للاهوت الكفارة المسيحي السائد لا معنى لها بالنسبة للغنوصي. لم يُخلق العالم كاملاً، وحالته الحالية ليست نتيجة سقوط، ولم يرتكب الجنس البشري خطيئة أصلية تنتقل إلى جميع الرجال والنساء. وبالتالي، لا حاجة للتضحية بابن الله من أجل تهدئة غضب أبيه وبالتالي إنقاذ البشرية. والجدير بالذكر أن الكلمة اليونانية الأصلية للخطيئة، وهي "*hamartia*-هامارتيا"، تعني "عدم تحقيق الهدف". عند استخدام كلمة "خاطئ" بهذا المعنى، فإنها تصف معظم الناس. جميعنا نخطئ الهدف، ونفعل ذلك لأننا نجهل الأمور الحقيقية والإلهية. يأتي رسل النور العظماء لتحفيز قدرتنا على التخلص من هذا الجهل. نحن بحاجة إلى التعاليم المستنيرة والأسرار المحررة (الطقوس المقدسة) التي يقدمونها لمساعدتنا على إظهار إمكاناتنا الكامنة للتحرر.

أولئك الذين يوقظهم رسل النور من سباتهم الروحي - والذين يبذلون بعد ذلك القدر المطلوب من الجهد الروحي والاجتهاد - يصبحون غنوصيين حقيقيين (عارفين، أو روحانيين، أشخاص روحانيين حقًا)، بينما يظل الآخرون غير واعين ومقيدين بالأرض. يصف البعض هذا الرأي بالنخبوية، بينما تميل العقلية المساواتية المعاصرة إلى التمرد على النخبوية. لكن ثمة فرق بين النخبوية التعسفية والانتهازية التي تميز المرء ورفاقه كمجموعة مختارة، من جهة، والوجود الحتمي للأشخاص النخبة، من جهة أخرى. كتب المعلم الروحي الراحل ج. كريشنامورتي في كتابه الكلاسيكي الصغير، عند أقدام المعلم (6): "في كل العالم، لا يوجد سوى نوعين من الناس - أولئك الذين يعرفون وأولئك الذين لا يعرفون". لا يمكن لأي غنوصي، قديماً كان أم حديثاً، أن يعبر عن ذلك بشكل أفضل.

لم يملّ أعداء الغنوصيين (بدءًا من آباء الكنيسة الذين زعموا أنهم هرطقيون) من الادعاء بأن الغنوصيين كانوا نخبة متكبرة تحتقر بقية البشرية. ومع ذلك، لا توجد سجلات لجرائم غنوصية ضد الإنسانية - أي أن أتباع الغنوصية استبدوا أو اضطهدوا أولئك الذين لم يكونوا

على قناعاتهم الروحية أو الذين اختلفوا معهم. لم تكن محاكم التفتيش والحروب الصليبية والجهاد من ابتكار الغنوصيين، بل كانت تُدبّر ضدهم في كثير من الأحيان.

كثيراً ما يُساء فهم الموقف الذي يُزعم أنه ينكر وجود العالم في الغنوصية، على أنه يؤدي إلى الانتحار أو غيره من الأفعال التي تضر بالحياة. بعض حالات الانتحار الجماعي الديني في الربع الأخير من القرن العشرين (جونستاون، معبد سولير، بوابة السماء) اعتبرها الجمهور ووسائل الإعلام نتيجة للعقائد والممارسات الغنوصية. وهذا أبعدُ ما يكون عن الحقيقة. نعم، يشعر الغنوصي بأن الحياة الأرضية هي في نواحٍ كثيرة حالة من الاستعباد لقوى الظلام، ومع ذلك لا يُعرف أن أي غنوصي قد اعتقد أن الموت يؤدي إلى التحرر التلقائي من هذه الظروف القاسية. يجب أن تأتي المعرفة المحررة بينما لا يزال الشخص في حالة التجسد، وأولئك الذين يحققون هذا التحرر الروحي يتمتعون بحريتهم سواء كانوا في حالة التجسد أو خارجها. من ناحية أخرى، فإن أولئك الذين لم يتحرروا في الوعي ما زالوا بحكم التعريف محاصرين في قيود التجسيد، سواء كانوا داخل الجسد أو خارجه. تشير العديد من الوثائق الغنوصية إلى أن البشر يعودون مرارًا وتكرارًا إلى هذا العالم الأرضي (أي أنهم يتناسخون) حتى يصبح وعيهم المتحول غير ضروري للولادة الجديدة.

عندما سُئل كونفوشيوس عن الموت، أجاب: "لماذا تسألني عن الموت وأنت لا تعرف كيف تعيش؟" أجاب يسوع على سؤال مماثل طُرح في إنجيل توما الغنوصي:

> هل تعرفون البداية حتى تسألوا عن النهاية؟ فحيث البداية تكون النهاية. طوبى للرجل الذي يقف في البداية، لأنه سيعرف النهاية ولن يذوق الموت. (القول 18)

إن الدلالات واضحة: يحتاج الغنوصي إلى معرفة العالم الأبدي الذي تنشأ منه النفوس. هذه المعرفة تجعل جميع قضايا

الحياة والموت بديهية وتزيل كل خوف مما يسميه العالم الموت. عندما نكون على اتصال بالحقيقة الإلهية التي لا توصف والتي هي مصدرنا، فإننا نعرف أيضاً الحالة التي سنعود إليها. بدون هذه المعرفة نكون أمواتًا بالفعل، حتى وإن أظهرنا علامات على الحياة الجسدية. من هذا المنطلق، يبدو الانتحار - سواء كان بدافع ديني أو غيره - بمثابة عمل غير منتج على الإطلاق.

بالإضافة إلى اتهامهم بالنخبوية الروحية، فقد اتُهم الغنوصيون مرارًا وتكرارًا بالدعوة إلى العدمية الأخلاقية، والمعروفة تقنيًا باسم اللاأخلاقية، أو "معارضة القانون". وهنا أيضاً يسهل إغفال دقة الموقف الغنوصي. تُعلّم معظم الأديان أن الناس ينالون الخلاص من خلال طاعة القواعد (على سبيل المثال، قوانين مانو، أو حمورابي، أو موسى) التي تم الكشف عنها من مصدر إلهي أو شبه إلهي. من الواضح أن هذا الموقف يفتقر إلى النضج النفسي. لا يتصرف الناس بمعزل عن الواقع؛ فسلوك الشخص ينبع من حالة وعيه. القتل هو نتيجة حالة ذهنية قاتلة، والكذب هو مظهر من مظاهر انعدام النزاهة والأصالة في العقل والنفس. قال بوذا، العارف العظيم في آسيا، إن التفكير الصحيح يجب أن يكون موجوداً حتى يحدث العمل الصحيح. الغنوصية هي نظام فكري قائم على التجربة النفسية والروحية الداخلية. وبناءً على ذلك، فليس من المستغرب أن تؤكد الغنوصية على حالات العقل وتعتبر الأفعال ثانوية في طبيعتها وأهميتها. لطالما اعتبر الغنوصيون أن الوعي، وليس الفعل الخارجي، هو المؤشر الحقيقي للقيمة الأخلاقية.

إذا اعتبرنا أن الأخلاق والقيم تشير إلى نظام من القواعد، فمن غير المرجح أن ينظر إليها الغنوصي نظرة عالية. القواعد بدون الوعي الذي يكشف السبب الكامن وراءها لا تعدو كونها عديمة الفائدة. وهكذا يقول العديد من الغنوصيين إن القواعد والقوانين في حد ذاتها ليست خلاصية، لأن الخلاص لا يأتي إلا من خلال الغنوص. من ناحية أخرى، إذا تم تعريف الأخلاق على أنها نزاهة داخلية تنبع من الإشراق الناجم عن الشرارة العلوية الكامنة، فمن المرجح أن يتم تبنيها بحماس من قبل أتباع التقاليد الغنوصية.

قد يثير هذا العرض الموجز للأفكار الأساسية للغنوصية بعض التساؤلات حول التفسير والتطبيق. كما رأينا سابقاً، بمعنى ما لا يوجد غنوص بدون الغنوصية، لأن تجربة الغنوص تستدعي حتماً رؤية للعالم تتناسب مع فهمها. إن النظرة الغنوصية للعالم تجريبية، لأنها تستند إلى نوع محدد من التجربة. ولهذا السبب، لن يكون من المناسب حذف أو تخفيف أجزاء من النظرة الغنوصية للعالم، لأنه حينها لن تتوافق النظرة مع التجربة.

تنشأ الغنوصية من نوع محدد وخاص من التجربة. وكذلك، فإن الغنوصية كنظرة للعالم تختلف عن الأشكال الأخرى للتصوف. هناك أوجه تشابه، بلا شك، بين اعترافات القديس يوحنا الصليب أو القديسة تيريزا الأفيلاوية والتصوف لدى عراف غنوصي، مثل فالنتينوس، لكن القديس يوحنا والقديسة تيريزا يشتركان في رؤية كاثوليكية رومانية للعالم (وإن كانت رؤية يشعر معها البيروقراطيون الكنسيون بعدم الارتياح في كثير من الأحيان)، بينما يتميز فالنتينوس بنظرة غنوصية واضحة. على الرغم من العناصر المشتركة التي توحد التقاليد المختلفة، فإن الخصائص المميزة، بل والفريدة في بعض الأحيان، التي تفرق بينها ذات أهمية وقيمة.

نحن نعيش في عصر انتقائي. وكما نشتري طعامنا من المتاجر الكبرى، حيث غالباً ما تكون الخيارات محيرة، كذلك يمكننا اختيار غذائنا الروحي في نوع من السوق حيث يكون التنوع بارزاً. عند مواجهة الغنوصية في سوق العلوم النفسية والروحية، قد نميل إلى قبول بعض جوانب رؤيتها للعالم ورفض جوانب أخرى. قد نتصور بكل سرور ذواتنا الحقيقية كشرارة إلهية انبثقت من كمال متعالٍ، ولكن لدينا تحفظات بشأن الرؤى الغنوصية الأكثر ظلمة وإثارة للقلق، مثل شخصية الديميورج وأتباعه من الأركونات الخبيثة، والطبيعة المعيبة جذرياً للكون، ووجود الشر في نسيجه. لكن النظرة الغنوصية للعالم هي وحدة متماسكة داخلياً؛ فعندما نزيل أجزاء من هذه الوحدة، تتأثر سلامتها.

وثمة سؤال مهم آخر هو ما إذا كان ينبغي فهم عناصر النظرة الغنوصية للعالم حرفياً أم رمزياً. إن التمسك الحرفي بالنصوص والجمود الفكري، اللذين يتجليان في كثير من الأحيان في الكنائس الرئيسية التي أعلنت أن الغنوصية هرطقة، هما وجهان نظر غير غنوصيين على الإطلاق. للغنوصية رؤية للعالم، لكنها لا تملك لاهوتاً ولا عقائد تؤمن بها. إن النصوص الغنوصية ذات محتوى أسطوري في المقام الأول، ويمكن تفسير جميع الأساطير بطرق متنوعة. لقد استكشف علم النفس التحليلي الحديث، وخاصة كما درّسه يونغ، الأساطير الغنوصية في المقام الأول بسبب صلتها بالنماذج الأصلية، والتفرد، والظل، والمفاهيم المماثلة. يمكن أن تحمل الأساطير الغنوصية، مثل الأساطير الأخرى، عدداً من المعاني التي لا تلغي بعضها بعضاً بل توجد في آن واحد. يمكن العثور على حقائق نفسية، بالإضافة إلى أنواع أخرى من الحقائق، في هذه الأساطير، ولا داعي لإنكار أي من هذه الحقائق.

تتمتع النظرة العالمية الغنوصية بجاذبية دائمة لأنها كانت دائماً متوافقة مع "معرفة القلب" التي هي الغنوص. يرى البعض أن الغنوصية مناسبة بشكل خاص في بداية الألفية الثالثة. شهدت نهاية الألفية الثانية تدهوراً جذرياً للعديد من الأيديولوجيات التي لم تستطع الصمود أمام أسئلة العصر؛ ومع ذلك، فإن هذه الأسئلة قد تمت معالجتها من قبل حكماء الغنوصية. إن وضوح وصراحة وأصالة الإجابات الغنوصية على أسئلة المأزق الإنساني، فضلاً عن أهميتها المعاصرة في كثير من الأحيان، لا يمكن إلا أن تثير الإعجاب، ومع مرور الوقت، تقنع.

الفصل الثالث

نظرة فعّالة للخلق: إعادة النظر في سفر التكوين

قبل بضع سنوات، وجدت إيلين إتش. باجلز، الباحثة التي ساهمت أكثر من أي شخص آخر في الاهتمام الشعبي بالغنوصية، نفسها في العاصمة السودانية تجري نقاشًا مع وزير خارجية ذلك البلد. أخبرها هذا الشخص المرموق، وهو عضو في قبيلة الدينكا، كيف أثرت أسطورة الخلق لدى شعبه تأثيراً دائماً على العديد من جوانب حياتهم الاجتماعية والثقافية. بعد ذلك بوقت قصير، كانت باجلز تتصفح نسخة من مجلة تايم، حيث احتوت عدة رسائل إلى المحرر على اعتراضات على مقال سابق حول تغير الأعراف الاجتماعية في أمريكا. ولدهشتها، أشارت العديد من هذه الرسائل إلى قصة آدم وحواء للدفاع عن قواعد السلوك المرغوبة. وقد بررت الرسائل باستمرار أخلاقيات وقيم العصر الحالي بالإشارة إلى قصة الخلق المسجلة في سفر التكوين. لم يقتصر تأثير ابتكارهم على شعب الدينكا فحسب، بل شمل الأمريكيين أيضاً. أدركت باجلز أن الأمريكيين ورجال قبائل الدينكا ليسوا مختلفين كثيراً؛ فأساطير الخلق لدى كليهما لا تزال حيوية وذات صلة حتى اليوم.

يفترض معظم الغربيين أن الثقافة الغربية لا تملك سوى أسطورة خلق واحدة: تلك الموجودة في الفصول الثلاثة الأولى من سفر التكوين. يبدو أن قلة قليلة تدرك وجود بديل - أسطورة الخلق عند الغنوصيين. قد تبدو هذه الأسطورة جديدة ومثيرة للدهشة، لكنها تقدم وجهات نظر حول الخلق وحياتنا تستحق التفكير فيها.

كتب ويليام بليك، الشاعر الغنوصي في أوائل القرن التاسع عشر: "كلاكما يقرأ الكتاب المقدس ليلاً ونهاراً، لكنك تقرأ الأسود حيث أقرأ الأبيض". ربما نطق الغنوصيون الأوائل بكلمات مماثلة عن خصومهم في صفوف اليهودية والمسيحية. كانت النظرة غير الغنوصية، أو الأرثوذكسية، في العالم المسيحي المبكر تعتبر معظم الكتاب المقدس، وخاصة سفر التكوين، بمثابة تاريخ يحمل في طياته عبرة أخلاقية. كان آدم وحواء شخصيتين تاريخيتين أدت خطيئتهما المأساوية إلى السقوط، ومن سقوطهما تعلم البشر دروساً أخلاقية بالغة الأهمية. إحدى نتائج هذه القراءة لسفر التكوين كانت الوضع المتناقض، بل والأسوأ من ذلك، للنساء، اللواتي اعتبرن شريكات حواء في العصيان في الجنة. كتب ترتليان، أحد آباء الكنيسة الذين احتقروا الغنوصيين، إلى مجموعة من النساء المسيحيات على النحو التالي:

> أنتن بوابة الشيطان ... أنتن من أقنعته، وهو الذي لم يجرؤ الشيطان على مهاجمته. هل تعلمن أن كل واحد منكن هو
>
> حواء؟ إن حكم الله على ممارستكن للجنس لا تزال قائمة في هذا العصر؛ والذنب، بالضرورة، لا يزال قائماً أيضاً. [طوائف النساء 1.12)

إن المسيحيين الغنوصيين، الذين نجد إرثهم الأدبي المقدس في مكتبة نجع حمادي الرائعة، لم يقرأوا سفر التكوين كتاريخ ذي مغزى أخلاقي، بل كأسطورة ذات معنى. لم ينظروا إلى آدم وحواء كشخصيات تاريخية، بل كممثلين لمبدأين نفسيين موجودين داخل كل إنسان. كان آدم التجسيد الدرامي للنفس، أو "psyche": وهو المركب العقلي العاطفي الذي ينشأ منه التفكير والشعور. أما حواء فكانت تمثل *pneuma* "الروح"، التي تمثل الوعي الأعلى والمتعالي.

هناك روايتان توراتيتان تتعلقان بخلق المرأة الأولى. تخبرنا إحدهما أن حواء خلقت من ضلع آدم (تكوين 2 :21)؛ والآخر أن الله خلق أول زوج بشري، ذكر وأنثى، على صورته (تكوين 1 :26-27). ويشير السرد الثاني إلى أن الإله الخالق نفسه له طبيعة ثنائية، تجمع بين الخصائص الذكورية والأنثوية. أيد الغنوصيون عموماً هذه النسخة وطوروا تفسيرات مختلفة لها. هذه النسخة تمنح المرأة المساواة، بينما نسخة ضلع آدم تجعلها تابعة للرجل.

بالنسبة للغنوصيين القدماء، لم تكن الصورة التقليدية لحواء ذات مصداقية. لقد صورتها تلك الصورة على أنها الشخصة الذي **أغواها** الثعبان الشرير والتي أقنعت آدم بعصيان الله بسحرها الأنثوي المغري. من وجهة نظرهم، لم تكن حواء امرأة ساذجة تحولت إلى مغرية مقنعة؛ بل كانت امرأة حكيمة، ابنة حقيقية لصوفيا، الحكمة السماوية. وبهذا المنصب، كانت هي من أيقظت آدم النائم. وهكذا **تقول** حواء في الكتاب السري ليوحنا:

> دخلتُ إلى قلب الزنزانة التي هي سجن الجسد. فقلت: "من يسمع فليقم من نومه العميق". ثم بكى [آدم] وذرف الدموع. تحدث متسائلاً:
>
> "من الذي ينادي باسمي، ومن أين أتى إليّ هذا الأمل، وأنا مقيد بسلاسل هذا السجن؟" وقلت هكذا: "أنا المعرفة المسبقة للنور الخالص؛ أنا فكرة الروح الطاهرة.... انهض وتذكر... واتبع أصلك الذي هو أنا... واحذر من النوم العميق".

وفي نص ديني آخر، بعنوان "**أصل العالم**"، تُقدم حواء على أنها ابنة، وخاصة رسولة، الإلهة صوفيا. وبصفتها رسولة، تأتي كمعلمة لآدم وتوقظه من نومه وغيبوبته. في معظم النصوص الغنوصية، تظهر حواء على أنها متفوقة على آدم. من الواضح أن الاستنتاج المستخلص من هذه النصوص يختلف عن استنتاج آباء الكنيسة مثل

ترتليان: الرجل مدين للمرأة لأنها منحته الحياة والوعي. لا يسع المرء إلا أن يتساءل كيف كان من الممكن أن يتطور الموقف الغربي تجاه المرأة لو كانت النظرة الغنوصية لحواء هي النظرة المقبولة على نطاق واسع.

عن الأفعى والرجال

يخبرنا الرأي السائد أن خطأ حواء كان أنها استمعت إلى الحية الشريرة، التي أقنعتها بأن ثمرة الشجرة ستجعلها هي وآدم حكيمين وخالدين. وتعكس رسالة من مجموعة نجع حمادي الغنوصية، بعنوان "شهادة الحقيقة"، هذا التفسير. وبعيداً عن كونها تجسيداً للشر، تعتبر الأفعى أحكم المخلوقات في الجنة. يشيد النص بحكمة الأفعى ويلقي بظلال من الشك على الخالق، متسائلاً: "ما نوعه إذن، هذا الإله؟" ويجيب ذلك بأن تحريم الله لثمار الشجرة مدفوع بالحسد، لأنه لا يريد أن يستيقظ البشر على المعرفة العليا.

كما أن تهديدات وغضب الإله الخالق في العهد القديم لا تخلو من اللوم. وتخبرنا شهادة الحق أنه أظهر نفسه بأنه "حسود نمام"، إله غيور يوقع عقاباً قاسياً وظالماً على أولئك الذين يغضبونه. ويعلق النص قائلاً: "لكن هذه هي الأشياء التي قالها (وفعلها) للذين يؤمنون به ويخدمونه". والنتيجة الواضحة هي أنه مع إله كهذا، لا يحتاج المرء إلى أعداء، وربما لا يحتاج إلى شيطان أيضاً.

ويخبرنا نص آخر من نفس المجموعة، بعنوان "أقنوم الأركونات"، أن حواء لم تكن الوحيدة التي استلهمت ووجهت من قبل صوفيا الإلهية، بل أيضاً الأفعى. سمحت صوفيا لحكمتها بالدخول إلى الأفعى، التي أصبحت بذلك معلمة، ثم علمت آدم وحواء عن مصدرهما الحقيقي. لقد أدركا أنهما لم يكونا كائنات دنيا خلقها الديميورج (في هذه الحالة،

الخالق في قصة سفر التكوين)، بل إن ذواتهما الروحية قد نشأت خارج هذا العالم، في كمال الألوهية المطلقة.

بينما تقول النسخة السائدة من سفر التكوين أن آدم وحواء سقطا من نعمة الفردوس بعد أكلهما من الثمرة المحرمة، تقول النسخة الغنوصية أن "أعينهما انفتحت" - وهو استعارة للغنوص. عندها استطاع البشر الأوائل أن يروا لأول مرة أن الآلهة التي خلقتهم كانت بغيضة المظهر، ولها وجوه حيوانات، فانفروا رعباً من رؤيتهم. على الرغم من أن الزوجين البشريين الأولين قد لعنهما الديميورج وأتباعه، إلا أنهما اكتسبا القدرة على الغنوص. وكان بإمكانهم نقل هذا إلى أحفادهم الذين كانوا يميلون إلى تلقيه. وهكذا نقلت حواء موهبتها في الغنوص إلى ابنتها نوريا، وأعطى آدم نفس الشيء لابنه الثالث، شيث.

البدايات الأسطورية للغنوصية

نوريا وشيث

كانت نوريا، ابنة حواء، امرأة حكيمة. تزوجت في النهاية من نوح، وهو رجل حسن النية ولكنه غير مدرك. بحلول ذلك الوقت، كان البشر قد تكاثروا، وبإلهام من آدم وحواء، أصبحوا غير واثقين من سادة الأرض الأركونيين وعاصين لهم. وبعيدًا عن أن يصبحوا أشرارًا وبالتالي يتسببوا في ندم الله على خلقه، كما تقول النسخة "الرسمية" من سفر التكوين، فقد أصبحوا حكماء وكانوا يسعون جاهدين للتحرر من الأركونات. أُمر نوح من قبل الخالق ببناء فلك ووضعه على قمة جبل سعير - وهو اسم غير موجود في سفر التكوين، على الرغم من أنه موجود في أحد المزامير التي تشير إلى الطوفان.

حاولت نوريا إقناع زوجها الساذج برفض التعاون مع الأركونات. بل إنها في إحدى المرات أحرقت

القارب الخشبي الذي بناه نوح. ثم أحاط الخالق وجيشه المظلم بنوريا، وكانوا يعتزمون اغتصابها كعقاب لها. لقد دافعت عن نفسها بقوة من خلال الجدال معهم، وفي النهاية صرخت طلباً للمساعدة إلى الإله الحق، الذي أرسل الملاك الذهبي إيليليث (الحكمة). لم يكتفِ الملاك بإنقاذها فحسب، بل قام أيضاً بتعليمها الحكمة الغنوصية وأكد لها أن ذريتها ستكون من العارفين الحقيقيين للحقيقة.

تشير العديد من النصوص الرئيسية من مجموعة نجع حمادي - كتاب "أقنوم الأركونات" و "الكتاب السري ليوحنا" وكتاب "فكر نوريا" - إلى قصة نوريا والفلك. ويتفقون على أن نسل نوح لم يكن مختبئاً في الفلك، كما في النسخة "الرسمية"، بل في سحابة مضيئة، حيث حمتهم ملائكة الإله الحق.



الشكل 1. جوهرة غنوصية، تعود إلى القرن الثالث الميلادي تقريبًا، تصور أبراكسيس. يحمل الشكل السوط والدرع التقليديين، وهما رمزان للهجوم والدفاع. يحيط بـ "أبراكسيس" نجوم ذات عدد متفاوت من الأشعة بالإضافة إلى رمز ثماني الأضلاع للـ الأجدود: المملكة "الثامنة"، وهو رمز تجاوز الكواكب السبعة.

لطالما اعتُبر شيث، الابن الثالث لآدم (بعد قابيل وهابيل)، شخصية غامضة. يكتب المؤرخ القديم يوسيفوس

أن سيث كان رجلاً عظيماً للغاية، وأنه هو وعائلته كانوا حراس العديد من الفنون السرية، بما في ذلك علم التنجيم. قام أحفاد شيث بنقش سجلات اكتشافاتهم الخفية على عمودين، وفقًا ليوسيفوس، حتى يتم حفظها للأجيال القادمة. في رسالة "رؤيا آدم"، لا يخبرنا الكتاب الغنوصيون عن شيث (ووالده آدم) فحسب، بل يخبروننا أيضًا عن مستقبل التقاليد الغنوصية في العصور القادمة. في هذا النص، يخبر آدم شيث أن حواء هي التي علمت آدم "كلمة الغنوص للإله الأزلي". ثم يكشف كيف انقلب الخالق على آدم وحواء، وكيف كان حريصًا دائمًا على جعل البشر يخدمونه "في خوف وعبودية". ثم يتنبأ آدم بأن "شيث وذريته" سيستمرون في تجربة المعرفة، لكنهم سيتعرضون أيضًا لمزيد من الاضطهاد من قبل الخالق.

يسرد تنبؤ آدم الكارثتين الرئيسيتين اللتين تلي ذلك: الطوفان والدمار الناري لسدوم وعمورة. كلاهما لا يحدث بسبب خطيئة البشر، بل بسبب حسد وغضب الخالق-الديميورج، الذي لم يستطع تحمل اكتساب الناس للحكمة الغنوصية. وكما حدث في الطوفان، أرسل الإله الحق في كارثة عمورة عدداً من الكائنات الأبدية لإنقاذ الغنوصيين من النار عن طريق نقلهم فوق عالم الأركونات. تم ذكر شيث، الذي يعتبر أبا التقاليد الغنوصية، بشكل بارز في العديد من الكتب المقدسة الأخرى، بما في ذلك المسلات الثلاث لشيث وإنجيل المصريين.

تشير النصوص الغنوصية الموجودة بوضوح إلى أن الغنوصيين كانوا موجودين دائمًا في العالم، على الرغم من أنهم تعرضوا للاضطهاد باستمرار وكانوا في كثير من الأحيان معرضين لخطر الإبادة من قبل القوى المظلمة التي عارضوها منذ البداية. سيستمر الغنوصيون، الذين يشار إليهم باسم "العرق العظيم لشيث"، حتى عصر مستقبلي عندما يبدأ المستنير *(PhoSter)*، الذي يُعرف أحيانًا باسم يسوع، زمن المعرفة والتحرر. إن الصراع المستمر للنسل الروحي لشيث ليس مع هذه الكنيسة أو

محاكم التفتيش، بل مع نفس الخصوم الميتافيزيقيين الذين يقول عنهم كتاب "أقنوم الأركونات":

> قال لنا الرسول العظيم بخصوص قوى الظلام: "إن صراعنا ليس ضد لحم ودم، بل ضد قوى العالم وما يتعلق بروح الشر".

إن "الرسول العظيم" هو بالطبع القديس بولس، والاقتباس المختصر مأخوذ من رسالته إلى أهل أفسس (أفسس 6.12).

طبيعة التفسير الغنوصي

ما الذي دفع المفسرين الغنوصيين لسفر التكوين إلى إعلان مثل هذه النسخ غير العادية من قصة الخلق؟ هل كانوا يرغبون فقط في انتقاد إله إسرائيل بشدة، كما يريد آباء الكنيسة أن نعتقد؟ إن الأسباب المحتملة المتعددة ليست بالضرورة حصرية متبادلة، وفي بعض الحالات تكون متكاملة.

أولاً، نظر الغنوصيون، إلى جانب بعض المسيحيين الأوائل الآخرين، إلى إله العهد القديم على أنه مصدر إحراج. كان أعضاء الطبقات الفكرية العليا في العالم المسيحي المبكر يتمتعون بمستوى معين من الرقي الروحي. أولئك الذين يعرفون تعاليم أفلاطون وفيلو وأفْلُوطين ومعلمين مماثلين سيجدون صعوبة في فهم إله يعبر عن الانتقام والغضب والغيرة وكراهية الأجانب القبلية والتطلعات الديكتاتورية. ومدى توافق شخصية يسوع اللطيفة والنبيلة وتعاليمه مع فلسفة الغنوصية الراقية. ربما يكون الغنوصيون قد استخلصوا ببساطة النتائج المنطقية من هذا التناقض وحصروا إله العهد القديم في مرتبة صانع الكون، وهو كيان كوني أدنى.

ثانياً، كما ذكرنا سابقاً، كان الغنوصيون يميلون إلى تفسير النصوص القديمة بشكل رمزي. كان اللاهوتيون المعاصرون، مثل بول تيليش، سيشعرون بالراحة التامة مع الغنوصيين، الذين

غالباً ما اقتربوا من تفسيرهم لسفر التكوين. يقول تيليش إن قصة السقوط كانت رمزاً للوضع الوجودي للإنسان، وليست سرداً لحدث تاريخي. ويكتب أن السقوط يمثل "سقوطًا من حالة البراءة الحالمة"، وهو نوع من الصحوة من الإمكانية إلى الواقع - وهو تفسير لا يختلف كثيرًا عن التفسير الغنوصي الذي تناولناه سابقًا في هذا الفصل. وبالمثل، يؤيد تيليش مفهوماً يشبه إلى حد كبير الفكرة الغنوصية عن "إلهين" عندما يتحدث عن "الإله فوق الإله".

ثالثًا، ربما كانت التفسيرات الغنوصية لسفر التكوين مرتبطة بتجارب رؤيوية غنوصية. من خلال استكشافاتهم وتجاربهم للأسرار الإلهية، ربما يكون الغنوصيون قد توصلوا إلى فهم أن الإله المذكور في سفر التكوين لم يكن الإله الحقيقي والوحيد، على عكس ما يدعيه الكتاب المقدس، وأنه لا بد من وجود إله فوقه.

كان من الممكن أن يكون وجود إله متعالٍ، يشارك بشكل طفيف في خلق العالم وإدارته، أمراً معقولاً في نظر العديد من الناس الذين عاشوا في البيئة اليونانية المصرية الرومانية في القرون الأولى من العصر المسيحي. لقد فقد إله العهد القديم، الذي يتسم بشخصية شديدة وعيوب مؤلمة، مصداقيته حتى لدى العديد من اليهود، كما يثبت مثال الفيلسوف فيلو الإسكندري. هذا الرجل المتعلم، رغم كونه يهوديًا متدينًا، وظّف مواهبه في تبييض مفهوم إله إسرائيل من خلال إضفاء أفكار أفلاطونية عليه. وشملت هذه الأقانيم الإلهية (الجوانب المنبثقة من الإله) مثل اللوغوس وصوفيا، وكلاهما كان يحظى بتقدير كبير من قبل الغنوصيين. وباتخاذ موقف أكثر جذرية وصراحة، استنتج المفسرون الذين وردت كلماتهم في مخطوطات نجع حمادي أن الإله الذي يتصرف كما وصفه سفر التكوين وكتب أخرى من العهد القديم لا بد أن يكون مدعياً ومغتصباً، لا يستحق العبادة أو الطاعة.

فهم الغنوصيون قصة الخلق في سفر التكوين على أنها أسطورية، والأساطير بالضرورة تخضع للتفسير. كثيراً ما نظر الفلاسفة اليونانيون

إلى أساطيرهم على أنها رموز مجازية، بينما رآها عامة الناس كنوع من التاريخ شبه الحقيقي، وقام الميستاي (المتأهلون) في أسرار إليوسيس وغيرها من الأسرار بإحياء الأساطير من خلال تجارب رؤيوية. لا يوجد سبب للاعتقاد بأن الغنوصيين تعاملوا مع الأساطير بطريقة مختلفة جوهرياً عن هذه.

يميل علماء الكتاب المقدس الليبراليون المعاصرون إلى اعتبار القصص الكتابية قصصًا أسطورية اخترعها الناس في محاولة لتفسير العالم المحيط بهم وفوقهم. إذا كانت هذه النظرة دقيقة، فإن التناقضات في أسطورة الخلق في سفر التكوين ليست سوى انعكاسات للتناقضات الضمنية في الحياة بشكل عام. لكن الغنوصيين، إلى جانب العديد من الفلاسفة الصوفيين الآخرين في العالم القديم، نظروا إلى الواقع الأسطوري بشكل مختلف. كانوا أكثر اهتماماً بفهم وإدراك العالم الداخلي من اهتمامهم بشرح العالم المحيط بهم وفوقهم. كان العالم الداخلي يشير إلى العالم الخارجي، إلى التجاوز، الذي كان في غاية الأهمية. صُممت أساطير الغنوصيين لتحفيز تجارب تتجاوز فيها النفس الفردية قيود العالم. إن التجاوز، من وجهة نظرهم، يعني تجاوز حدود ليس فقط المادية ولكن أيضًا حدود العقل. لقد اكتشف علماء النفس المعاصرون في مجال النفس نظائر ما أطلق عليه الغنوصيون اسم الأركونات والديميورج. كما

ميز كارل يونغ بين الذات والأنا - وهما "إلهان" في النفس - كذلك تحدث الغنوصيون عن إلهين، أحدهما متعالٍ والآخر إله ثانوي أخرق. يبدو أن علم النفس العميق يلقي مزيداً من الضوء على الفهم الغنوصي لأسطورة الخلق اليهودية المسيحية أكثر مما تفعله الدراسات الكتابية الليبرالية. ومع ذلك، فمن المحتمل أن تكون هناك معانٍ في هذه الأساطير، أو المواضيع الأسطورية، تفلت من فهم كل من علماء النفس وعلماء الكتاب المقدس.

من السهل نسبياً اعتبار الغنوصيين منحرفين دينيين كافرين طالما لم يفكر المرء بعمق ومنطقية في طبيعة وتداعيات نصوص مثل سفر التكوين. كما أنه ليس من الصعب إقناع المرء بأن صفة الخالق

التي يمكن لومها والموصوفة في هذه الكتب المقدسة لا تتوافق بأي حال من الأحوال مع صفة أب يسوع. إن عقيدة الإلهين في الغنوصية تتحدث بوضوح أكبر إلى الحس الأخلاقي والمنطقي للعقل البشري مقارنة بالتوحيد اليهودي المسيحي السائد برغبته اليائسة في التستر على التناقضات الصارخة المشار إليها هنا.

وكما أن الطفل هو أب للرجل، فإن أساطير الخلق في مختلف الثقافات تترك بصمتها على تاريخ الشعوب والأمم. ويبدو أن الغنوصيين قد بذلوا محاولة شجاعة لتحرير الثقافة الغربية الشابة في عصرهم من ظل أسطورة الخلق اليهودية المسيحية. إذا بدت الأسطورة البديلة التي اقترحوها متطرفة بالنسبة لنا، فذلك فقط لأننا اعتدنا على نسخة سفر التكوين لعدة قرون. إن العديد من دلالات النسخة الغنوصية هي في الواقع مفيدة بشكل محتمل لثقافة القرن الحادي والعشرين. ربما حان الوقت لإعادة تقييم أسطورة الخلق الغربية، وإذا كان الأمر كذلك، فقد تكون الغنوصية بمثابة مساعدنا وحليفنا.

الفصل الرابع

صوفيا: النموذج الغنوصي للحكمة الأنثوية

لقد أصبحت ظاهرة المنفى مألوفة بشكل مأساوي في عصرنا التاريخي. خلال النصف الثاني من القرن العشرين، تم اقتياد ملايين وملايين من الناس أو إجبارهم على الفرار من أوطان أجدادهم لقضاء حياتهم في أماكن وبين أشخاص غرباء عن عرقهم وتقاليدهم وأرواحهم. عمليات الترحيل والتطهير العرقي ومخيمات اللاجئين وجيوب المنفيين الذين يحاولون بشدة الحفاظ على بقايا ثقافاتهم القديمة هي حقائق مألوفة ومتكررة الظهور في بداية القرن الحادي والعشرين. إن إرث المنفى ورعبه لا يزالان يرافقاننا إلى الأبد.

أدرك الغنوصيون أن حالة المنفى أكثر من مجرد حدث تاريخي. لقد رأوا أن لها بُعداً كونياً عميقاً، بل وحتى بُعداً يتجاوز الكون. كانوا يعتقدون أن الروح الإنسانية غريبة حرفياً في أرض غريبة. "أحياناً أشعر وكأنني طفل بلا أم"، هكذا يعبّر المغني الروحي الأمريكي عن أسفه. كان الغنوصيون سيوافقون على ذلك - وربما كانوا سيميلون إلى استبدال كلمة "أحيانًا" بكلمة "دائمًا".

في الرؤية الغنوصية، لا يُعد إدراك غربتنا في هذا العالم

مناسبة للحزن أو سببًا للفوضى النفسية، كما قد يكون رد الفعل في مجتمعنا العلماني اليوم. قال الغنوصيون إن الشعور بالوحدة في المنفى ليس عدواً. إن الاغتراب والوحدة هما صديقانا، لأنهما يشيران إلى حقيقة ضرورية تتطلب وعينا. معظم الناس يشبهون "الفلسطيني" الذي يتحدث عنه كيركجارد، والذي "يهدئ نفسه بالتفاهات"، لكن الغنوصي لا يستطيع اتباع مثل هذا المسار. قد يجد المنفي نفسه بالفعل في أرض مظلمة، لكن إدراكه للظلام نفسه يمكن أن يكشف أيضاً عن نور على طريق الحرية. وكذلك، فإن إدراكنا لغرابتنا واعترافنا بمكان منفانا على حقيقته هما أول الخطوات العظيمة على طريق العودة. نبدأ بالنهوض بمجرد أن ندرك أننا قد سقطنا.

صوفيا: أعظم المنفيين

إن مأزق المنفى والاغتراب لا يقتصر على البشرية، ولا ينشأ على المستوى البشري. قبل وقت طويل من وجود الرجال والنساء، وقبل وقت طويل من وجود الكون كما نعرفه، تم تصوير دراما عظيمة من المنفى والعودة في قصة الكائن الأنثوي الإلهي المسمى صوفيا. بعد أن أقامت في أعلى مراتب الكمال الأبدي *(بليروما)* في أحضان زوجها الأيوني، تغادر موطنها الأصلي وتنزل إلى عوالم الفوضى والاغتراب اليائس. من الكتب الغنوصية، نتعلم أن صوفيا هي أصغر الكائنات العظيمة التي تسكن الكمال. وعلى هذا النحو، فهي بعيدة كل البعد عن النور البدائي للأب، الذي هو المصدر المركزي والأساسي لكل شيء. رأت صوفيا نوراً في الأفق ظنت أنه قد يكون الأب، لكنه لم يكن سوى ذلك النور المنعكس في أعماق الهاوية. وهي تسعى إلى النور، تسافر أبعد فأبعد في الأعماق الخادعة، حتى يتم إيقافها في النهاية بواسطة قوة تُعرف باسم الحد *(حوروس-Horos)*.

عند هذه النقطة يحدث انقسام غريب في طبيعة صوفيا. يصبح

جوهرها الأعلى، جوهرها الأساسي، مستنيراً ويصعد بشكل صوفي إلى الكمال، بينما يبقى جوهرها الأدنى في حالة اغتراب. في جميع الأساطير الغنوصية تقريباً، توجد علاقة وثيقة بين طبيعة وحالة النفس البشرية من جهة، والنموذج الأصلي العابر للكون من جهة أخرى. وهكذا نفهم أن وعينا قد انبثق من وحدة بدائية واتجه نحو الاغتراب والفوضى. ومع ذلك، حتى في حالتنا المضطربة،



الشكل 2. أيقونة صوفيا المقدسة، حكمة الله. تظهر صوفيا كامرأة مجنحة متوجة، ترتدي رداءً أحمر ولها شعر أحمر. يحيط بها كل من مريم العذراء والقديس يوحنا المعمدان، اللذان يقفان على منصات أدنى من منصتها. تنبثق سبعة تيارات من القوة من عرشها، وفوقها المسيح وستة ملائكة. (روسية، القرن التاسع عشر؛ من مقتنيات المؤلف).

ما زلنا نشعر بوجود صلة، مهما كانت ضعيفة، مع ذات أعلى ومتعالية. وهكذا، مثل صوفيا، نحن منقسمون إلى قسمين: شخصيتنا البشرية تعيش في حالة من الارتباك والاغتراب، بينما يشارك جوهرنا الأبدي في الكمال والحكمة.

صوفيا السفلى، أشاموث (وهي الجناس التصحيفيّ لكلمة *Chobmah*، الاسم العبري للحكمة)، تكافح في حالتها المنعزلة. إنها تحزن وتغضب؛ إنها تتألم وتشتاق إلى حالتها الأصلية. في محنتها، تُظهر أو تنبعث منها قوى تتكثف في النهاية إلى اللبنات الأساسية للكون المادي - الذي كان يُتصور في العصور القديمة على أنه تراب وماء ونار وهواء. كما أنها تنتج شكلاً هجيناً من الوعي، وهو كائن وحشي برأس أسد يصبح الديميورج (المعروف أيضاً باسم يلداباوث و ساكلس و سمائل)، "صانع" العالم المخلوق. يشرع نسل صوفيا المشؤوم في تصميم مملكته الخاصة، والتي تتكون من سبع عوالم (بلان-إتس)، يرأسها سبعة حكام *(archontes)* للزمن، وهم حكام



شكل *3* أيقونة غنوصية معاصرة لصوفيا. الشخصية متوجة ومجنحة، وأمامها شجرة العالم مع ثعبان الحكمة، تحمل تفاحة. (لوحة زيتية للفنان جون إف. غولز؛ بإذن من الفنان.)

الأقدار وسجانو الأرواح. تبقى صوفيا في ذاتها الدنيا متمركزة في المجال الثامن، فوق المجال السابع.

كان الجانب الداخلي، أو كما يسميه البعض الجانب الأنطولوجي لهذه الأساطير، حاضرًا دائمًا في الفكر الغنوصي. يذكر الأب الكنسي هيبوليتوس في مناقشته لهذه الأسطورة أنه في النظام الغنوصي "تسمى صوفيا 'بنيوما' [الروح] والديميورج 'النفس'". تشير هذه التصريحات وما شابهها إلى أن هذه الأساطير قابلة للتطبيق على النفس البشرية. إن الطبيعة النفسية الدنيا، بوعيها الذاتي، هي بالتأكيد صانعة عقلية بامتياز، تفرض نظامها الخاص على الحياة والواقع. نحن ننظم كوننا الخاص (أو نخلق واقعنا الخاص، كما يقول البعض) وفي الوقت نفسه نفرض عيوبنا عليه. ينعكس هنا انقسام كيان صوفيا إلى ذوات دنيا وعليا: فالذات الدنيا للإنسان (الأنا النفسية) تظهر على أنها الديميورج، بينما تظهر الذات العليا أو الروحانية على أنها صوفيا.

كثيراً ما زعم منتقدو الغنوصيين أن نسل صوفيا الخالق شرير. لكن القراءة المتعمقة للنصوص الغنوصية تكشف أن السمة الرئيسية لهذا الكيان هي الجهل، وليس الشر. تقول **النصوص** مراراً وتكراراً إنه لا يعلم شيئاً فوق مستواه. وهكذا فهو يجهل حتى وجود والدته. لكن هذا يعتبر ميزة إلى حد ما، لأنه يسمح لصوفيا بإدخال تصميمها الخاص في عملية الإبداع، التي يعتقد أنه صنعها بنفسه. وهكذا يصبح العالم المخلوق مزيجًا من العمل المعيب للديميورج والحكمة والجمال السماوي لصوفيا. كتب إيرينيئوس، أحد آباء الكنيسة المحاربين للهرطقة، واصفاً وجهة النظر الغنوصية، أن الصانع كان يعتقد أنه يصنع هذه الأشياء بنفسه، غير مدرك أن [صوفيا] أشاموث كانت تعمل من خلاله. إضافة إلى الجهل، فإن الصانع مليء أيضاً بالغرور والجرأة. إنه يعتقد أنه وحيد، أو بكلماته الخاصة، أنه "هو الإله الوحيد، وأنه لا يوجد إله آخر فوقه". تعارضه صوفيا بغضب، قائلة إن هناك بالفعل قوى أخرى متفوقة عليه،

وأنه ليس سوى شخصية ثانوية ضمن مخطط أكبر. لكن الديميورج يحتفظ بهذه المعلومات لنفسه ويستمر في جعل المخلوقات التي يحكمها تعتقد أنه الإله الحقيقي والوحيد. ومرة أخرى، يظل التشبيه الأنطولوجي أو النفسي الداخلي صحيحًا: فالأنا، أو الذات الأدنى، تجهل عمومًا القوى الأعمق داخل اللاوعي الجمعي (على سبيل المثال نموذج يونغ)؛ وكلما ازداد اغتراب الأنا عن المصفوفة النموذجية التي نشأت منها، كلما زاد احتمال افتراضها أنها الوكالة الوحيدة المحددة لوجودها. وبالتالي فإن أنانية الأنا هي النتيجة الداخلية لغطرسة الصانع.

عودة المنفى

لم يمر سقوط صوفيا ونفيها مرور الكرام. إن سكان الكمال الإلهيين، وكذلك الكمال نفسه، يشعرون بالحزن الشديد بسبب نفيها. يتوجهون معاً إلى الله المطلق، فيمنحهم إذناً بفدائها. يتحد عدد من العوالم العليا للكمال، بما في ذلك الروح القدس والكريستوس ويسوع (المقدر له أن يصبح المظهر الخارجي للكريستوس)، في مهمة إنقاذ. كما أن قوى الكمال تجمع قوتها وتملأ المنقذين بنور لا يقهر وبصيرة نافذة.

يظهر المسيح لصوفيا على شكل هيئة ممتدة على صليب تاو الكوني. إن رؤية هذا الصليب وهو يتوهج ويشع عبر المناطق الأبدية تنعش صوفيا وتغرس فيها شوقاً هائلاً إلى وطنها السماوي وعريسها الإلهي. تتضافر العناصر الميتافيزيقية والنفسية بقوة في هذا الجزء من الأسطورة. إن اضطراب الكمال وعدم سعادة الكائنات الإلهية بسبب محنة صوفيا يكشفان عن الوعي الغنوصي بالسر - فالروح المنفية لا تتوق فقط إلى الكمال، بل تتوق الكائنات الإلهية أيضًا إلى عودة الروح.

لا تكتمل الجنة حتى يعود المنفي من البلد البعيد؛ وحتى ذلك الحين، لا يكتمل الكمال حقًا، والكمال ليس كاملًا حقًا.

لا شك أن من الأهمية النفسية أن أول استيقاظ لصوفيا من اللاوعي يحدث من خلال الرمز النموذجي للصليب. في عملية التفرّد، غالباً ما يتم إعداد النفس للتحرر الداخلي القادم من خلال تجارب الرموز المقدسة، وتصاميم الماندالا، وما شابه ذلك. لعلّ التقاء الخطوط الأفقية والرأسية للصليب يذكّر النفس/صوفيا بالاقتران الضروري بين الأضداد.

ببطء وبجهد، تصعد صوفيا نحو نور الكمال، عابرة المناطق الاثنتي عشرة التي تجاوزتها - بالمعنى الحرفي لـ "مرت من خلالها" - في طريقها إلى الفوضى. ولإلغاء هذه التجاوزات، تنطق باثنتي عشرة "توبة"، أو عبارات شعرية، تسمح لها بالصعود عبر البوابات الاثنتي عشرة، كما تسمى أحيانًا. تصرخ إلى القوى الاثنتي عشرة في طقوس ابتهالية مفصلة موجهة إلى الإله المطلق، الذي يُطلق عليه هنا دائمًا اسم النور. تتضح الصفات الشعرية والسحرية الصوفية لهذه الصيغ حتى في نماذج موجزة، مثل ما يلي:

> أنقذني يا نور من القوة ذات وجه الأسد ومن إشعاعات الكبرياء الإلهي؛ لأنك أنت يا نور الذي آمنت بنورك، وتوكلت على نورك منذ البداية. أنت
>
> الذي ستنقذني. والآن يا نور، لا تتركني في الفوضى.
>
> . لا تتخلى عني يا نور، فقد رغبوا في قوتي،
>
> قائلين لبعضهم البعض دفعة واحدة: "لقد تخلى النور عنها، فاستولوا عليها، ولنأخذ كل النور الذي فيها".
>
> فليُحوّل أولئك الذين يسعون إلى سلب سلطتي إلى الفوضى ويُخزوا، وليُحوّلوا سريعًا إلى الظلام، وليفرح كل من
>
> يسعى إلى النور ويبتهج! أنت إذن يا نور، أنت مخلصي. أسرع وأنقذني من هذه الفوضى.
>
> (بيستيس صوفيا، الفصل 32)

الفصل الرابع

في دوائر متصاعدة باستمرار، تقترب صوفيا من عالم النور، مسترشدة ومعونة بقوى ملائكية ورؤساء ملائكة، ومتعززة بالقوة التي غرسها فيها عريسها السماوي، يسوع. يحل الفرح الآن محل الألم العميق واليأس اللذين رافقا توبتها السابقة وهي تخاطب النور:

> لقد تم إنقاذي من الفوضى وتحريري من قيود الظلام؛ لقد أتيت إليك يا نور، لأنك أصبحت نورًا من كل جانب من جوانبي ... وقد أبطأت بنورك إشعاعات المتكبر الذي عارضني. لقد غطيتني الآن
>
> بنور نهرك وطهّرت فيّ كل الشرور... لقد تشجعت بنورك وأشرقت
>
> في قدرتك العظيمة، لأنك أنت الذي تنقذ دائماً!
>
> لقد أصبح النور مخلصًا لي، وحوّل ظلامي إلى نور: لقد مزّق الفوضى التي كانت تحيط بي، وأحاطني بالنور! كل القوى التي في داخلي، تسبح باسم
>
> سره المقدس الذي ملأك بنور نقي.
>
> (بيستيس صوفيا، الفصل 32)

حتى في هذه المرحلة، لم يتخل أعداء صوفيا عن مطاردتها. يستمرون في مهاجمتها وإزعاجها حتى عتبة أعلى موطن أيوني للنور. ثم تتلاشى القوى المظلمة فجأة، وتدخل مملكة النور الذي لا حدود لها. إذ تُشيد بمجد النور المُحرر، تنفجر مرة أخرى في ترنيمة مدح:

> يا نور، سأكشف لك كيف أنقذتني، وكيف تجلّت عجائبك في الجنس البشري!... لقد حطمت أبواب الظلام العالية مع مسامير الفوضى الجبارة ... وقد صعدت من خلال أبواب الفوضى! (بيستيس صوفيا، الفصل 33)

وهكذا تنتهي قصة صوفيا الوفية. من الكمال المجيد انحدرت إلى الاغتراب والفوضى، وأُصيبت بأهوال الغرور والجهل. بعد أن نادت مراراً وتكراراً بصوت

سحري إلى النور، مُنحت القوة والقداسة من عريسها يسوع، وبقيادة يده المقدسة، استأنفت مكانتها كحكمة في مملكة الأيونات العظيمة. تتمتع جميع الأساطير النموذجية بصفة خالدة تجعلها قابلة للتطبيق على اهتمامات أي مكان وزمان. قصة صوفيا، على وجه الخصوص، تثبت في أشكال مفهومة العناصر العالمية التي تربط بين التجارب النفسية والمتعالية. يمكن استخلاص رؤى حول تطور (تفرد) النفس الفردية، والقضايا الاجتماعية (بما في ذلك الارتقاء بالمرأة وتحريرها في المجتمع)، والأفكار اللاهوتية والميتافيزيقية من

الأسطورة الصوفيانية.

تتبع قصة صوفيا، مع تعديلات طفيفة، المراحل الأربع الكلاسيكية للدراما اليونانية القديمة، وهي: أغون أو "المنافسة"، باثوس أو "الهزيمة"، **ثرينوس** أو "الرثاء"، ثيوفانيا أو "الحل الإلهي المنجز" أو "الفداء". إن الوعي منخرط دائماً في صراع أبدي مع اللاوعي ويتعرض للهزيمة المتكررة على يد قواه. إن الوعي بهذه الهزائم أمر بالغ الأهمية؛ ومن هنا جاء التركيز على الرثاء، والذي يتجلى هنا في توبات صوفيا العديدة. وأخيراً، هناك سر الفداء المبهج، حيث يأتي الفادي الإلهي من خارج البيئة الوجودية. في المسرح اليوناني، كان هذا يُعرف باسم "ديوس إكس ماكينا" - حيث يتم إنزال ممثل يؤدي دور الإله إلى خشبة المسرح من الأعلى.

إن مأزق فقدان الكمال، الذي يرمز إليه رحيل صوفيا عن الكمال، هو المأزق الدائم لجميع الكائنات، وخاصة البشر. جميعنا في حاجة ماسة إلى استعادة كمالنا من خلال الاتحاد مع ذواتنا الداخلية، المجد الكامن، وإن كان خفياً، في داخلنا. مثل صوفيا، نتجول على وجه الأرض، وقد تدهور مجدنا وابتذل، بينما ينزل إلينا من خلال العوالم الأبدية "الآتي دائماً"، عريسنا الإلهي، لوغوس الله الأعلى. وهكذا فإنّ الثيوفانيا، أي الحل الإلهي للدراما العظيمة، موجودة دائماً هنا.

لم يقتصر الغنوصيون على رؤية صور لمبادئ علم النفس الداخلي، كما يفعل العديد من علماء النفس التحليلي المعاصرين. بالنسبة لهم، كانت الدراما الداخلية تعكس دائماً الدراما الكونية، بل والدراما العابرة للكون؛ فكما تتكشف القصة في الأعالي، فإنها تنعكس وتتكرر في النفس البشرية. لقد اعتبروا المسيح فينا وصوفيا فينا بمثابة أملنا التوأم في المجد، يسعى كل منهما إلى الآخر في الشوق المقدس والرغبة الإلهية. كان الزوج السماوي، الذي يحمل نفس هذه الأسماء، بمثابة النماذج العليا التي تتكرر أفعالها داخل نفوس وأرواح الرجال والنساء.

ثم تأتي صوفيا؟

على الرغم من أن شخصية صوفيا، وأسطورة سقوطها وفدائها، قد تم نشرها وتوسيعها شعرياً بلا شك من قبل الغنوصيين، إلا أنها لم تكن نتاج فكر القرن الثاني أو الثالث. يحتوي العهد القديم على العديد من الإشارات إلى حكمة الله باعتبارها تجسيدًا أنثويًا (انبثاقًا) لله، موجودة قبل خلق العالم وحاضرة بشكل غامض في التجارب الرؤيوية والحدسية للأنبياء والحكماء. الكلمة العبرية التي تعني "الحكمة" هي أشاموث *chobmah*، والتي تُرجمت إلى اليونانية خلال الفترة الهلنستية باسم صوفيا. تُسمى مجموعة كاملة من الأدب الكتابي "أدب الحكمة" وتشمل أعمالاً مثل الأمثال، وسفر الجامعة، وسفر يشوع بن سيراخ، وكتاب الحكمة، ونشيد الأناشيد. وقد أعلن المصلحون البروتستانت أن بعض هذه الكتب من الكتب المنحولة، لكنها كانت تحظى بتقدير كبير في العديد من الأوساط، الكاثوليكية والبروتستانتية على حد سواء. في العديد من كتب الحكمة في العهد القديم، تتحدث حكمة صوفيا إلى القارئ بصيغة المتكلم، كما في خطاب وحي. تظهر دائماً على هيئة أنثى، وتعلن بانتظام أنها شاركت مع الله في أعمال الخلق الكونية المبكرة. إليكم مثال من سفر الأمثال (8: 22-24، 27):

اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ.

مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ مُنْذُ الْبَدْءِ مُنْذُ أَوَائِلِ الأَرْضِ.

إِذْ لَمْ يَكُنْ غَمْرٌ أُبْدِئْتُ...

لَمَّا ثَبَّتَ السَّمَاوَاتِ كُنْتُ هُنَاكَ أَنَا. لَمَّا رَسَمَ دَائِرَةً عَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ.

كما أنها تقدم نفسها بعبارات سامية في سفر يشوع بن سيراخ (24.5، 7-10، 14):

إِنِّي خَرَجْتُ مِنْ فَمِ الْعَلِيِّ بِكْرًا قَبْلَ كُلِّ خَلِيقَةٍ. وَسَكَنْتُ فِي الأَعَالِي، وَجَعَلْتُ عَرْشِي فِي عَمُودِ الْغَمَامِ. أَنَا وَحْدِي جُلْتُ فِي دَائِرَةِ السَّمَاءِ، وَسَلَكْتُ فِي عُمْقِ الْغِمَارِ، وَمَشَيْتُ عَلَى أَمْوَاجِ الْبَحْرِ، وَدَاسَتْ قَدَمِي كُلَّ الأَرْضِ، وَعَلَى كُلِّ شَعْبٍ. قَبْلَ الدَّهْرِ مِنَ الأَوَّلِ حَازَنِي،

وَإِلَى الدَّهْرِ لاَ أَزُولُ.

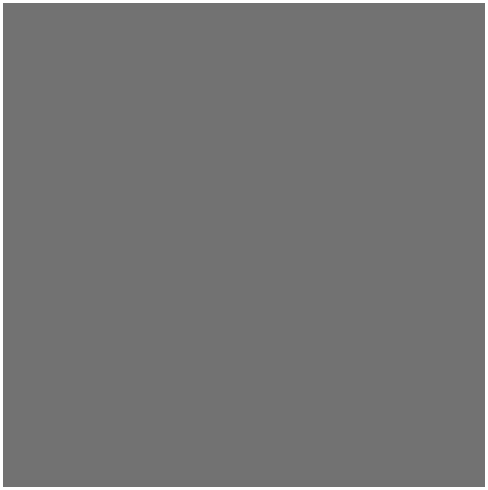
كان أعظم عالم لاهوت وفيلسوف يهودي قام بتطوير التعاليم الكتابية المتعلقة بصوفيا بلا شك هو فيلو الإسكندري، المعروف أحيانًا باسم فيلو اليهودي. قام هذا المفكر الديني البارز، الذي عاصر المسيحية المبكرة جداً (توفي حوالي عام 50 ميلادي)، بتطوير العديد من التعاليم المشابهة لتعاليم الغنوصيين. أدرك فيلو إمكانية وجود المعرفة الإلهية لدى البشرية، لكنه ذكر أيضاً أنه لتحفيز هذه المعرفة يجب أن تتلامس بعض تجليات الله مع البشر. أحد هؤلاء هو اللوغوس، وهو أول تجسيد لله، أو "ابنه"، والآخر هو صوفيا، حكمة الله، التي يسميها فيلو أم كل الخليقة. تستمد هذه السمة من سمات صوفيا فيلو من العبارة الواردة في سفر الأمثال التي تم اقتباسها للتو. لم يتم التشكيك في أرثوذكسية فيلو ضمن السياق اليهودي. وهكذا يبدو أن تعاليم مثل تعاليمه، وخاصة تلك المتعلقة بصوفيا، كانت رائجة في الأوساط اليهودية في عصره ولم تعتبر هرطقة.

ربما تم التعبير عن النسخة الغنوصية المحددة لأسطورة صوفيا

لأول مرة من قبل سمعان الساحر المثير للجدل والغامض، الذي عاش في العصر الرسولي وشرح عقيدة لها العديد من أوجه التشابه مع التطورات اللاحقة لأسطورة صوفيا. على الرغم من أنه لا يبدو أنه استخدم اسم صوفيا، فقد علّم سمعان عن انبثاق أنثوي إلهي نزل إلى العالم المادي واحتُجز هناك (للاطلاع على أسطورة سمعان البدائية عن صوفيا، انظر الفصل 8). تميل الدراسات المعاصرة إلى اعتبار صوفيا ذات أصل يهودي. على الرغم من التوحيد الأبوي الذي تتبناه اليهودية السائدة، فإن وجود شخصيات الآلهة يُشار إليه بشكل متكرر في التاريخ اليهودي (كما أظهر رافائيل باتاي في عمله الرائد، *الإلهة العبرية*). بعض هذه الآلهة الأنثوية كانت بلا شك آلهة الخصوبة الباطنية البابلية أو المشتقة منها والتي لم يكن لها قواسم مشتركة كثيرة مع صوفيا. ومع ذلك، ربما كان هناك أيضًا تقليد يتعلق بشخصية أكثر روحانية، وهي حكمة الله، التي تظهر في بعض الحالات كابنة الله وفي حالات أخرى كزوجته. في العصر الهلنستي، ربما يكون المناخ الديني بين اليهود قد خفّ حدته إلى درجة أن الأدب المتعلق بهذه الشخصية - وكذلك التصريحات الفلسفية عنها مثل تصريحات فيلو - يمكن أن تظهر علنًا. ثم تمكن المعلمون الغنوصيون من تطوير قصة سيدتنا الحكمة بشكل كامل.

ليس من المبالغة القول إن صوفيا حاضرة في جميع الأدبيات الغنوصية تقريباً. تحتوي غالبية مخطوطات نجع حمادي على إشارات إلى أسطورة صوفيا، بعضها صريح والبعض الآخر ضمني. من بين الكتب المقدسة التي كانت متاحة قبل اكتشاف مكتبة نجع حمادي، فإن أهمها بلا شك هو كتاب بيستيس صوفيا (صوفيا الأمينة)، الذي استندت إليه رواية سقوط صوفيا وفدائها الواردة سابقًا في هذا الفصل. من المحتمل جداً أن يكون جزء كبير من الكتاب قد كتبه المعلم الغنوصي العظيم فالنتينوس، في حين أن مقاطع إضافية ربما أضافها تلاميذه. إنها الرواية الأكثر اكتمالاً لقصة صوفيا، وتتفوق في التفاصيل والجمال الشعري على جميع الأعمال الأخرى التي تناولت هذا الموضوع.

يتألف كتاب "بيستيس صوفيا" من ثلاثة كتب تتضمن خطابات يسوع لتلاميذه، الذين كانوا حاضرين معه على جبل الزيتون خلال الفترة ما بين قيامته وصعوده. يتعلق أول اثنين بقصة صوفيا. يبدأ الكتاب الأول بوصف لتجربة يسوع المذهلة في التحول، والتي خلالها يصعد إلى الأيونات في وهج من النور. بعد عودته، يروي كيف وجد صوفيا في حالتها المزرية، ويخبرنا كيف استعد لمساعدتها. في الكتاب الثاني، يروي يسوع الانتكاسات والتعقيدات التي واجهتها صوفيا في صعودها نحو النور وعودتها إلى مكانتها في الأيون الثالث عشر. تُلقى الخطابات من قبل يسوع في إطار رسمي درامي على جبل الزيتون، وتتبع توبة صوفيا تلاوات من المزامير ومقاطع من أناشيد سليمان، وهي نص غنوصي آخر. هناك أسئلة ومناقشات بين التلاميذ، ومن بينهم تحتل مريم المجدلية مكانة بارزة.



الشكل. 4. جوهرة غنوصية، تعود إلى القرن الثالث الميلادي تقريباً، تصور إلهة متعددة الأذرع. يحمل هذا الشكل أدوات قوة متنوعة في كل يد، وهو محاط بالنجوم من جميع الجهات. هناك رأسان إضافيان ذوا دلالة فلكية محتملة. قد يمثل هذا الشكل صوفيا الغنوصية.

لا تتفق الإشارات الغنوصية العديدة إلى صوفيا في كل التفاصيل، على الرغم من أن الفكرة الرئيسية متطابقة في كل شيء. يُعزى سبب سقوط صوفيا أحيانًا إلى غرورها، وأحيانًا إلى رغبتها المحبة في الأب، وفي نصوص أخرى إلى رغبتها في الحمل بمفردها، دون وجود قرينها الذكر. وبالمثل، هناك اختلافات طفيفة في تفسير علاقة صوفيا بالديميورج. تقول بعض الروايات أن صوفيا أخرجت أولاً العناصر المادية التي يتكون منها الخلق المعيب، ثم أنجبت الديميورج كحاكم لهذا الكون المعيب؛ بينما يؤكد آخرون أن كل الخلق المعيب كان من عمل الديميورج. في كل هذه الروايات، تلعب شخصية صوفيا دورًا حاسمًا في مصير الكون والبشرية.

ماذا حلّ بصوفيا؟

بلغت تقاليد صوفيا ذروتها على يد الغنوصيين، وخاصة في مدرسة فالنتينوس. بعد قمع الغنوصية في القرنين الثالث والرابع، أخضعت الكنيسة الغربية شخصية صوفيا للإهمال المتعمد. لقد تم التعامل مع أدب الحكمة في العهد القديم كما لو كان يشير إلى صفة فكرية مجردة تسمى الحكمة، بدلاً من كونه يشير إلى كائن إلهي شخصي هو تجسيد للألوهية المطلقة. كما تم تجاهل حقيقة أن العديد من الكتب الأخرى في العهدين القديم والجديد تحتوي على إشارات إلى صوفيا، بالإضافة إلى أدب الحكمة. (وتشمل هذه الكتب سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر أيوب، وإنجيلي مرقس ويوحنا، والعديد من رسائل القديس بولس - وخاصة رسالتي كورنثوس الأولى وتسالونيكي الأولى - ورؤيا القديس يوحنا اللاهوتي.) في اليهودية الباطنية للكابالا، يجد المرء تقاربًا وثيقًا مع صوفيا في شخصية الشكينة الموقرة للغاية، وهي الحضور الروحي الأنثوي في سيفرة

ملكوت. وقد أشار علماء العصر الحديث مثل الراحل العظيم جيرشوم شوليم إلى الكاباليين على أنهم غنوصيون يهود، وبالتالي فليس من المستغرب أن تجد صوفيا الغنوصية موطناً لها في وسطهم.

لم تشهد المسيحية الكاثوليكية الرومانية سوى إحياء واحد لطائفة صوفيا. وقد حدث هذا في القرن الثاني عشر من خلال وساطة القديس برنارد من كليرفو، رئيس الدير السيسترسي والمتصوف الذي كتب رسالة طويلة صوفية وشعرية تستند إلى نشيد الأناشيد. وبما أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قد استوعبت ما تبقى من صوفيا في شخصية مريم العذراء، فقد واجه برنارد صعوبة في التمييز بين الشولمية الغامضة والعذراء. ومع ذلك، كان إخلاصه لرؤيته لشخصية صوفيا حقيقياً ومؤثراً.

كما ظهرت صوفيا في مجال الخيمياء. من أهم الوثائق المتعلقة بعلم الخيمياء صوفيا هي الرسالة الشهيرة أورورا كونسورجنس، والتي ينسبها العديد من العلماء إلى القديس توما الأكويني، وهو طبيب الكنيسة الشهير في العصور الوسطى وأبو اللاهوت الغربي. يصور هذا العمل المتميز عملية التحول الخيميائي كتحرر تدريجي لصوفيا من سجنها في المادة الفوضوية والمقيدة. بعد ذلك، لم يظهر شكل صوفيا مرة أخرى لشعوب الغرب إلا عندما بدأت نسائم عصر النهضة الروحية والفكرية الجديدة تهب على أوروبا، مما أدى في النهاية إلى الحماس الثوري للإصلاح البروتستانتي. كتب المتصوف الألماني جاكوب بوهمه، وهو شخصية ذات أهمية كبيرة في الفكر الديني الأوروبي بعد الإصلاح، بشكل ثاقب عن صوفيا (انظر الفصل 11).

استلهمت التقاليد الصوفية والباطنية البديلة للثقافة الغربية، إلى حد كبير، من جاكوب بوهمه ومفسريه، فحافظت على تبجيل صوفيا (غالباً تحت اسمها اللاتيني، سابينتيا) عبر القرون، وبالتالي جعلتها متاحة للأجيال القادمة. كان لدى علماء الكابالا (اليهود والمسيحيين على حد سواء)؛ وممارسي السحر العالي؛ وأعضاء الأخويات السرية، مثل

جماعة الصليب الوردي والماسونيين الباطنيين، في كثير من الأحيان تقارب مع صوفيا.

أحد الأماكن التي تواجدت فيها صوفيا منذ القرون المسيحية الأولى، وإن كان ذلك دون ضجة كبيرة، هو المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. لم يتخل اللاهوتيون الأرثوذكس قط عن التعليم القائل بوجود مظهر أنثوي لله في العالم الخارق للأرض، والذي يلهم الأشخاص المتدينين للحكمة. تم تسمية كاتدرائية آيا صوفيا في القسطنطينية، التي كانت ذات يوم أعظم كنيسة في العالم المسيحي، تكريماً لها، ولا تزال العديد من الكنائس اليونانية والأرثوذكسية الأخرى مكرسة لها حتى اليوم. لقد حظي علم الصوفية (اللاهوت المتعلق بصوفيا) بدفعة هائلة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى حد كبير من خلال عمل فلاديمير س. سولوفييف، وهو فيلسوف وشاعر روسي تأثر بشدة بالأفكار الغنوصية القديمة. ولد سولوفييف عام 1853 وتوفي قبيل الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية، وقد ترك بصمة دائمة على الروحانية الروسية. لقد انخرط علنًا في تعاليم الغنوصيين وكتب قصائد ومقالات ذات مواضيع غنوصية صريحة. مثل الغنوصيين الحقيقيين، لم يكن سولوفييف مجرد منظر: كان بصيرًا ونبيًا، ولم يكن الهدف الرئيسي من غنوصه سوى صوفيا. ثلاث مرات - في عام 1862، وفي عام 1875، وعند وفاته في عام 1900 - شهد لقاءات مع صوفيا. لقد كان من أعظم من أحيوا علم الفلسفة الأرثوذكسية الروسية، واستمر عمله على يد فلاسفة ولاهوتيين آخرين بعد وفاته.

ليس من المستغرب أن صعود الوعي النسوي في الجزء الأخير من القرن العشرين قد أبرز الشخصيات الإلهية الأنثوية، بما في ذلك صوفيا. لقد أصبحت واحدة من الأسماء التي تحب النسويات والمتعاطفات مع الحركة النسوية إدراجها في قائمة آلهتهن. للأسف، فإن العديد من هذه الجهود لا تستند إلى فهم عميق للنصوص الغنوصية، والتي تعتبر صوفيا كائناً روحياً بالكامل، لا علاقة لها إطلاقاً بإلهات الأرض والآلهة الأنثوية القمرية في الديانات الوثنية. قد يكون من الإنصاف

القول إن صوفيا في جميع مظاهرها (الغنوصية القديمة، والشولامية، والشكينة، والخيميائية، والبوهيمية، والأرثوذكسية الشرقية) لا تشترك إلا في القليل مع الصور الجنسية والسياسية لـ "الإلهة" كما تظهر في المصادر النسوية ومصادر العصر الجديد.

قد يمتد الاهتمام المتجدد الحالي بالأساطير والفولكلور والأيقونات، والتي غالباً ما تتضمن صوراً وأساطير بدائية وقديمة، لتشمل صوفيا. قد يخطئ الكتّاب الذين يميلون إلى دمج صور متباينة في إدراك صوفيا في شخصيات أسطورية مختلفة لمجرد كونها أنثى. لكن الجنس لم يكن أبداً سمة مهمة أو عميقة للشخصيات الأسطورية بشكل عام، ولا للشخصيات الغنوصية بشكل خاص. تكثر السمات الخنثوية، واللاجنسية، والمتغيرة جنسياً في عالم الكائنات الأسطورية الغنوصية المتغيرة الشكل. ليس كل ما يلمع ذهباً؛ وليس كل ما هو أسطوري وأنثوي هو صوفيا!

اليوم، كما في السابق، لا تزال صوفيا النموذج الأبرز لحالتنا الإنسانية المنفية والمغتربة. لقد اكتسب مصطلح "غريب" دلالة جديدة في الثقافة المعاصرة. لقد عرّفت الأساطير الزائفة لشاشة التلفزيون، والمستندة إلى الخيال العلمي، الكائن الغريب بالنسبة لنا على أنه زائر مهدد عادةً من نظام كوكبي بعيد. ومع ذلك، فإن صورة المنفي، أو الغريب، تجد صدى في عقول وقلوب الكثيرين. لا تقتصر ظاهرة المنفى على كونها ظاهرة بارزة في عالمنا فحسب، بل إن العديد ممن لم يغادروا قط جغرافية وطنهم يشعرون بأنهم غرباء ليس فقط في أرض غريبة، بل في عالم غريب.

بالنسبة لغير الغنوصيين، قد يبدو الاغتراب مرضاً؛ أما بالنسبة للغنوصيين، فإن الوعي بالاغتراب هو رصيد قيّم. كما سقطت صوفيا في فوضى مظلمة، كذلك سقط وعينا في غياهب الغموض والوحدة. وكما أنقذ الرسول الأعلى صوفيا في الوقت المناسب، كذلك سنُنقذ نحن أيضاً في الوقت المناسب ونعود إلى موطننا في أيونات الحقيقة والحب.

المسيح الغنوصي: منقذ أم محرر؟

في بداية القرن الحادي والعشرين، نصادف بسهولة عددًا محيرًا من التوصيفات لشخصية يسوع. في عالم الترفيه الشعبي، تضمن إرث الستينيات فيلم "يسوع المسيح سوبرستار"، حيث يظهر يسوع كناقد اجتماعي غريب الأطوار إلى حد ما. في المجال السياسي المحفوف بالمخاطر، نجد علماء اللاهوت التحريري، الذين يبذلون قصارى جهدهم لتصوير يسوع على أنه ثوري ماركسي بدائي، نوع من تشي جيفارا في القرن الأول. في عالم البحث العلمي الأكثر رصانة، نجد يسوع الممل نوعًا ما في ندوة يسوع وفي "وثيقة Q" المفترضة. إلى هؤلاء يمكننا أن نضيف يسوع المختل عقلياً ذو الطابع الذكوري الذي قدمه الباحث غريب الأطوار في مخطوطات البحر الميت جون أليغرو، أو يسوع الماكر الذي أشاد به زميل أليغرو هيو شونفيلد. يسوع الثوري، يسوع الحسي - الكثير من يسوع وقليل من الوضوح! في الربع الأخير من القرن العشرين تعرفنا عليهم جميعاً. جميع هذه الصور ليسوع، والعديد غيرها، تستند إلى العهد الجديد. لقد أشير أكثر من مرة إلى أنه بناءً على هذه الأدلة، يمكن تصوير الشخصية المركزية



الشكل *5*. الصلبان المجسمة للكاثار. يرمز الشكل البشري للصليب، بالإضافة إلى الصليب على شكل حرف T الذي تعلوه دائرة، إلى الإنسان السماوي، أو المسيح.



اسم يُدعى، ليس فقط في هذا الدهر [أيون] ولكن في الدهر الآتي" (أفسس 1.21). هذا البيان ذو طابع غنوصي لدرجة أن المرء قد يستنتج أن بولس وآخرين نظروا إلى يسوع من منظور غنوصي - باعتباره كائناً متفوقاً على السلطات وأقاربهم (الديميورج والأركونات) في هذا العالم السفلي.

لفترة طويلة، كانت

الأناجيل الأربعة هي المصادر الوحيدة لتعاليم يسوع. ومن بين هذه الكتب، كان إنجيل يوحنا دائماً هو المفضل لدى الغنوصيين

للمسيحية على أنها أي شيء يريده أي شخص تقريبًا. منذ إدخال النهج العقلاني للكتاب المقدس في شكل النقد الكتابي الأعلى والنهج المماثلة، استمر البحث عن "يسوع التاريخي"، ومع ذلك يبدو أن هذا البحث قد فشل بأكثر من طريقة.

لكن ربما تم إهمال أكثر شخصيات يسوع تأثيراً في المسيحية المبكرة: يسوع الغنوصي. بالنسبة للمسيحيين الأوائل، لم يكن يسوع شخصية تاريخية بقدر ما كان مصدر إلهام. شاهد، على سبيل المثال، وصف بولس الرسول ليسوع بأنه "فوق كل رئاسة وسلطان وقوة وسيادة، وفوق كل

والباطنيين الذين يتبنون الغنوصية على مر التاريخ. إلى جانب قصص المعجزات ورواية عن الآلام والموت والقيامة، يتضمن إنجيل يوحنا عددًا من الخطابات المنسوبة إلى يسوع والتي

تشترك في الكثير من القواسم المشتركة مع التعاليم الموجودة في الأدب الغنوصي بشكل واضح.

إن إنجيل يوحنا ليس الدليل الكنسي الوحيد على

الطابع الغنوصي لتعاليم يسوع. تم دمج جزء كبير على الأقل من أقوال يسوع في أناجيل متى ولوقا، وبعضها حتى في إنجيل مرقس. تحتوي العديد من الأقوال الواردة في الأناجيل القانونية على تعاليم تبدو منطقية للغاية عند تفسيرها في ضوء غنوصي. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك مثل القمح والزوان في إنجيل مرقس (13: 24-30): رجل يزرع بذر قمح جيد في حقله، لكنه يجد فيما بعد أن عدواً قد زرع أعشاباً ضارة بين القمح. عندما يسأل العمال عما إذا كان ينبغي عليهم اقتلاع الأعشاب الضارة، يخبرهم المزارع أن يتركوا كلاً من القمح والأعشاب الضارة تنمو حتى وقت الحصاد، وعندها يمكن فصلهما بسهولة أكبر. بحسب التعاليم الغنوصية، فإن العالم عبارة عن مزيج من بذور النور والظلام. على الرغم من أنه من المستحيل التمييز بينهما الآن، إلا أنهما سينفصلان بشكل طبيعي مع مرور الوقت، كما هو مقدر.

يسوع كمعلم غنوصي

هناك العديد من الأقوال المنسوبة إلى يسوع والتي لا توجد في الأناجيل القانونية ولكنها مدرجة في الكتب الغنوصية. يوجد أكبر عدد من هذه الكتب في إنجيل توما، وهو جزء من مجموعة نجع حمادي. يبدو أن الكتبة الغنوصيين كانوا مهتمين بشكل أساسي بتسجيل تعاليم يسوع التي تميزت بالسرية - أي التعاليم ذات الطابع الغنوصي البحت التي قدمها لتلاميذ مختارين بعد قيامته.

كيف نظر الغنوصيون إلى يسوع؟ لا شك أنهم كانوا يجلونه للغاية، وأنهم رأوا فيه تجلياً لأعلى مراتب الألوهية، وأنهم اعتبروه المحرر

الشكل *6*: شاهد قبر كاثاري، مصمم بشكل تقريبي على هيئة رأس وجذع رجل. كما يظهر عليه رمز الصليب المتساوي الأضلاع المحاط بدائرة، مما يدل على التوازن.

لأنه لم يكن ينتمي إلى طبقة الكهنة الوراثية. وهكذا، بمعنى ما، كان دور المعلم هو شخصيته الخارجية، بينما كان دور الكاهن الروحي أكثر خفاءً.

يمكن تصنيف غالبية أقوال يسوع الواردة في الإنجيل وفقًا لتوما تحت أربعة عناوين رئيسية: (1) أقوال تتعلق

والمنير الذي حطم سجن البشرية في اللاوعي المادي والعقلي. بحسب التقاليد الغنوصية، مارس يسوع خدمته بطريقتين رئيسيتين. يمكن تسمية أول هذه المهام بخدمة التعليم. أما الثاني فكان خدمة روحية مقدسة للأسرار التأسيسية والتحريرية (انظر الفصل 7). من المرجح أن عامة الناس في فلسطين كانوا يعتبرونه في المقام الأول حاخاماً أو معلماً دينياً غير ديني،

بالحالة البشرية؛ (2) أقوال تتعلق بالسلوك البشري؛

(3) أقوال تشير إلى دوره كمخلص أو محرر؛ و (4) أقوال تؤكد على أهمية معرفة الذات كشرط مسبق لمعرفة الإلهي. في كل هذه الأقوال، يلاحظ القارئ ما يمكن تسميته موقفاً وجودياً ذا طابع عملي كبير أظهره يسوع. يرفض مراراً وتكراراً الخوض في مناقشات نظرية تتعلق بعلاقة الروح والجسد، والوقت المحدد لظهوره مرة أخرى على الأرض، وضرورة اتباع الوصايا التي وضعها موسى، أو حتى الطبيعة الدقيقة

لدوره المسياني. بدلاً من ذلك، غالباً ما يذكّر مستمعيه بالضرر الناجم عن قلقهم، وتعلقهم الجامد، وارتباطهم بالأمور الدنيوية، فضلاً عن نقاط ضعفهم النفسية. في كثير من الحالات، يبدو أنه يقول: لا تدع الهواجس تثقل كاهلك بشأن رفاهيتك المادية أو حتى بشأن شخصيتك الأخلاقية. انطلق في رحلتك من القيود والتعلقات إلى الحياة الأفضل التي تنتظرك. لا يهم كثيراً ما إذا كنت مختوناً أم لا، أو ما هو النظام الغذائي الذي تتبعه. لا يهم كثيراً ما إذا كنت تعتقد أنني إيليا العائد أو فيلسوف أو مجرد ابن نجار. المهم هو ما إذا كنتم تبذلون جهوداً صادقة لمعرفة أنفسكم، وبالتالي تكونوا مستعدين للمعرفة التحررية. تتميز رسالته بشكل جيد بأقصر قول في هذا الإنجيل: "كونوا عابرين" (القول 42). (يوجد شرح مفصل لبعض الأقوال الواردة في إنجيل توما في كتاب هويلر، المغنى والإنجيل المفقود.)

كما أن أقوال يسوع الغنوصية تلقي الضوء على أسلوبه غير المألوف في التعليم. وعلى عكس معظم المعلمين، يبدو أنه ينقل أكثر من مجرد أفكار، ويفعل أكثر من مجرد الحث على اتباع الخطوط الأخلاقية والدينية التقليدية. إنه لا يوجه تعاليمه إلى العقول المفكرة وعواطف الناس بقدر ما يوجهها إلى معرفتهم الحدسية الناشئة. لا تهدف كلماته إلى التثقيف بقدر ما تهدف إلى تحفيز القدرات الإبداعية والتخيلية الكامنة. إن يسوع الذي يظهر في هذه الأقوال هو يسوع مختلف تماماً عن يسوع التقليدي الوديع واللطيف الذي يعاني من الأحزان. يستخدم هذا اليسوع الاستعارة والأسطورة، والأمثال الصوفية الغامضة، والأمثال الغنوصية الصريحة، لحث أتباعه على الوصول إلى حالات وعي غير عادية.

يُظهر عدد من الأقوال في إنجيل توما يسوع كمعلم عازم على تحفيز الغنوص في أتباعه. يوبخ التلاميذ لمحاولتهم تقييم دوره وشخصه بناءً على نبوءات سابقة:

فقال له تلاميذه: "تكلم أربعة وعشرون نبياً في إسرائيل، وكلهم تكلموا عنك". فقال لهم: "لقد صرفتم الحي الذي أمامكم، وتكلمتم عن الأموات". (القول 52)

يبدو أنه يقول: لا تقيّموني بناءً على الماضي؛ لا تربطوني بالنبوءات والكتب المقدسة والتوقعات. انظروا إليّ بمعرفتكم وستفهمون. وفي المصدر نفسه نجد:

انظروا إلى الحي ما دمتم أحياء، لئلا تموتوا وتسعوا لرؤيته فلا تستطيعوا رؤيته. (القول 59)

و:

قالوا له: "أخبرنا من أنت حتى نؤمن بك". قال: "إنكم تختبرون وجه السماء والأرض، أما الذي أمامكم فلم تعرفوه، ولا تعرفون كيف تختبرون هذه اللحظة." (القول 91)

تستند جميع هذه التصريحات إلى إدراك بديهي فوري لطبيعة وجودية وتتجاهل التفسيرات المفاهيمية والفكرية.

تكشف النصوص الغنوصية أن يسوع، على الأقل في بعض الحالات، قد حث بالفعل أتباعه على تجربة الغنوص. في قوله للآية الثالثة عشرة من إنجيل توما، يطلب يسوع من تلاميذه أن يخبروه بمن يشبه. يشبه بطرس معلمه بملاك بار، ويشبهه متى بفيلسوف حكيم. توما وحده يرفض إجراء أي مقارنة ويقول إن فمه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يعلن كيف هو سيده. ثم قال يسوع لتوما:

لم أعد سيدك [بعد الآن]، لأنك شربت، لقد سكرت من النبع المتدفق الذي قمت بقياسه.

ثم أخذ يسوع توما جانباً وهمس في أذنه بثلاث كلمات. بعد ذلك، يحاول الرسل الآخرون أن يتعلموا من توما ما هي الكلمات الثلاث. رفض توما إخبارهم، قائلاً:

إذا أخبرتكم بكلمة واحدة مما قاله لي، فستأخذون حجارة وترمونني بها، فتخرج نار من الحجارة وتحرقكم.

هناك نسخة أكثر دنيوية من هذه الحادثة، تحذف دور توما، في إنجيل متى (16 :13).

لقد أصبح توما "سكرانًا"، أي أنه اختبر حالة وعي غير عادية، وفي هذه الحالة عرف يسوع من خلال الغنوص. إن الكشف عن غنوصه لأولئك الذين لم يختبروا ذلك العمق كان خطأً فادحاً. إن المصير المحزن للعديد من الغنوصيين عبر التاريخ يشهد على الغضب الأعمى الذي قد يصبه الجاهل على العارف.

الكفارة أم التحرر؟

الاعتقاد المسيحي المعاصر السائد هو أن يسوع جاء ليكفر عن خطايا البشرية وبالتالي يجعل الخلاص ممكناً. إن مبرر هذا الاعتقاد هو باختصار: خلق الله عالماً صالحاً، ثم أصبح عالماً ساقطاً بسبب غضب الله عندما عصى البشر الأوائل الله. تم إدخال الموت والمعاناة إلى ما كان حتى ذلك الحين إبداعاً فردوسياً. بمرور الوقت، خفت حدة غضب الله وسعى إلى المصالحة مع البشرية مرة أخرى. كان عامل هذه المصالحة هو ابن الله الوحيد، يسوع المسيح، الذي أرسله أبوه إلى العالم ليتألم ويموت على الصليب من أجل خطايا البشرية، بما في ذلك الخطيئة الأصلية التي ارتكبها أسلاف الجنس البشري.

لقد أصبحت مسلمات "لاهوت الكفارة" موضع تساؤل

نتيجة للاكتشافات العلمية التي حدثت في القرنين الماضيين. إذا كان الموت قد دخل إلى العالم بسبب الخطيئة البشرية، فكيف يمكن أن تهلك العديد من أشكال الحياة قبل ظهور الحياة البشرية على الأرض بزمن طويل؟ كانت الحياة تفترس الحياة قبل وقت طويل من انضمام الرجال والنساء إلى المعركة. ربما لم يكن الخلق الأصلي حميداً ومثالياً كما كنا نظن. ربما كان العالم دائماً ما يمكن تسميته بشكل مناسب بمطعم مفترس عملاق، ولم يصبح البشر جزءاً من السلسلة الغذائية إلا في فترة متأخرة نسبياً.

رفض أتباع المسيح الغنوصيون، في وقت مبكر من تاريخ الإيمان المسيحي، التوافق مع لاهوت الكفارة. حتى بدون أدلة من علم الأحياء وعلم الحفريات، لم يقبلوا فكرة أن عالماً جيداً قد أفسده البشر الأشرار، ثم كان لا بد من مصالحته مع إله غاضب من خلال عذاب وموت يسوع. هل هذا يعني أن الغنوصيين لم يعتبروا يسوع فاديًا لهم؟ بل على العكس تماماً. كما رأينا سابقاً، شعر الغنوصيون بأنهم غرباء على هذه الأرض، بل وفي هذا الكون. أحد معلميهم، مرقيون، يطلق على هذا العالم اسم *haec cellula creatoris*، أي "زنزانة السجن هذه التي صنعها الخالق". يحذر كتاب "كنزا" الغنوصي المندائي البشر قائلاً: "أنت لم تكن من هنا، وأصلك لم يكن من هذا العالم". لم يأتِ الفادي لتهدئة غضب أبيه بالموت في عار، بل ليأخذ الأسرى أسرى (كما عبرت عنه عبارة غنوصية) ويحرر الغرباء البائسين من زنزانة السجن التي وجدوا أنفسهم فيها.

غالباً ما يستنتج الأشخاص الذين لديهم معرفة سطحية فقط بالغنوصية أن الخلاص أو التحرر بالنسبة للغنوصي هو تجربة مباشرة لا تتطلب وجود مخلص. لا شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك. يقول الغنوصيون إن الروح الإنسانية جاءت إلى هذا العالم من خارجه، وبالتالي فإن الحافز للتحرر يجب أن يأتي أيضاً من الخارج. صحيح أن الإمكانات الروحية المحررة تكمن في أعماق (أو ربما الأفضل، في قمم) النفس البشرية نفسها، لكن تحقيق هذه الإمكانات يتطلب تدخلاً قوياً. يتم تقديم هذه المساعدة

من قبل كائنات تسميها بعض مدارس الغنوصية رسل النور - شخصيات خلاصية ومسيانية مرسلة من أعلى مراتب الألوهية. وقد ذكر النبي الغنوصي العظيم ماني الفارسي هذا الأمر بوضوح (كما نقل عنه البيروني):

> لطالما جاءت الحكمة والأعمال الصالحة إلى البشرية من وقت لآخر عن طريق رسل الله. وهكذا في عصرٍ ما، تم جلبهم بواسطة الرسول المسمى بوذا إلى الهند، وفي عصرٍ آخر بواسطة زرادشت إلى إيران، وفي عصرٍ آخر بواسطة يسوع إلى الغرب. وعليه نزل هذا الوحي، هذه النبوءة في هذا العصر الأخير من خلالي أنا ماني، رسول إله الحق في بابل. (البيروني، الآثار الباقية)

دون ذكر اسم الرسول، فإن كنزا يروي القصة بشكل جيد:

> باسم الآتي، وباسم الآتي، وباسم المولود. باسم الغريب العظيم الذي شق طريقه عبر العوالم، والذي جاء وشق السماء وكشف عن نفسه. (الفصل 35)

في الغنوصية المسيحية، هذا الغريب العظيم هو يسوع. في العديد من نصوص التقاليد الغنوصية يُطلق عليه اسم اللوغوس؛ وفي نصوص أخرى، يُطلق عليه اسم سوتير: (المعالج، المخلص)؛ وفي العديد من النصوص، يُطلق عليه اسم كريستوس (الممسوح). إن العلاقة الدقيقة بين هذه الأسماء ليست واضحة دائماً. هناك دلائل تشير إلى أن الغنوصيين كانوا يعتقدون أن المسيح الروحي نزل في شخص يسوع وقت معموديته في نهر الأردن على يد يوحنا. ومع ذلك، كان يُنظر إلى يسوع أيضًا على أنه كائن مقدس وفوقي منذ ولادته.

باختصار، فإن الخلاص بالنسبة للغنوصي لا يعني المصالحة مع إله غاضب عن طريق موت ابنه، بل يعني التحرر من الذهول الناجم عن الوجود الأرضي واليقظة عن طريق المعرفة الباطنية. لا يعتقد الغنوصيون أن أي نوع من الخطيئة، بما في ذلك خطيئة آدم وحواء، قوي بما يكفي للتسبب في انحطاط العالم الظاهر بأكمله. العالم مليء بالعيوب لأن هذه هي

طبيعته، لكن يمكن للبشر أن يتحرروا من الحبس في هذا العالم المعيب ومن اللاوعي الذي يصاحب هذا الحبس. جاء يسوع رسولاً ومحرراً، وأولئك الذين يأخذون رسالته على محمل الجد ويشاركون في أسراره، مثل التلميذ توما، ينجون بالغنوص.

القيامة أم الصحوة؟

من أخطر الاتهامات التي وجهها الأرثوذكس ضد الغنوصيين هي رفضهم لقيامة يسوع. في الواقع، لا يوجد دليل على أن الغنوصيين أنكروا القيامة. لكنهم قالوا إن القيامة، مثل معظم الأحداث المذكورة في العهد الجديد، لا ينبغي أخذها حرفياً. ربما حدث نوع من إعادة إحياء جسد يسوع في صباح عيد الفصح. في الواقع، في معظم النصوص الغنوصية، يُشار إلى يسوع بعد القيامة باسم "الحي"، وهو ما يعادل الكلمة اللاتينية *redivivus*، "الذي عاد إلى الحياة"، لكن هذا لا يعني أن يسوع عاد إلى الحياة في جسد مادي مثلنا. في الواقع، كان هناك شك فيما إذا كان قد شغل جسد مادي مثلنا. الأجسام المادية لا تمشي على الماء، ولا تخترق الجدران، ولا تشع كالشمس. قال الغنوصيون إن الطبيعة الدقيقة لجسد يسوع سر، وشعروا أن هذا ينطبق على كل من الجسد الذي كان يشغله قبل القيامة والجسد الذي ظهر فيه بعد ذلك.

في الواقع، فإن الأناجيل القانونية غير متأكدة من الطبيعة الدقيقة لـ "جسد القيامة" الذي كان يشغله يسوع. بالتأكيد تشير بعض روايات الأناجيل إلى أنها كانت صلبة ومكونة من لحم؛ ومع ذلك، فإن روايات أخرى تترك مجالاً للشك. إن قصة الطريق إلى عمواس، التي وردت في كل من إنجيل لوقا وإنجيل مرقس، تذكر أن يسوع ظهر "بصورة أخرى" (مرقس 1 :12؛ لوقا 24 :13-32)، وأنه بعد أن بارك الخبز على المائدة اختفى ببساطة في الهواء. في إنجيل

يوحنا (20: 11-17)، تصادف مريم المجدلية، التي كانت بالتأكيد على دراية جيدة بمظهر سيدها، بالقرب من القبر وتظنه البستاني. بعد أن تعرفت عليه، طلب منها ألا تلمسه. يمكن بالتأكيد تفسير هذا الأمر، وهو الأمر الشهير *"noli me tangere"* (لا تلمسني)، والذي أدى إلى ظهور الكثير من الفن المقدس، على أنه يشير إلى أن جسده كان غير مادي. تقول إيلين باجلز في كتابها (6) الأناجيل الغنوصية: "لذلك إذا أصرت بعض قصص العهد الجديد على نظرة حرفية للقيامة، فإن قصصًا أخرى تسمح بتفسيرات مختلفة".

أيّهما كان أكثر أهمية في يسوع، جسده المادي أم روحه؟ حتى أكثر الناس تمسكاً بالتقاليد قد يجيبون بأنها كانت روحه. لذلك، من المفهوم تماماً أن الغنوصيين أكدوا على الطبيعة الروحية ليسوع وقيامته. واتفق الرأيان على أن يسوع، قبل القيامة وبعدها، بدا وكأنه يسكن جسداً من لحم ودم. شعر العديد من الغنوصيين أن هذا الجسد نفسه قد يكون مظهراً *(doketos)*، وبالتالي اتُهموا بأنهم دوسيتيون، أي أولئك الذين يعتقدون أن جسد يسوع كان وهمياً تماماً. (ومع ذلك، فإن مفهوم "جسد المظهر" معروف جيدًا في أماكن أخرى - في تقاليد الهند، على سبيل المثال.)

الأهم بالنسبة للغنوصيين من جوهر جسد يسوع هو التعليم الغنوصي القائل بأن للقيامة معنى روحي شخصي عميق لكل من يطمح إلى الغنوص. ألسنا جميعاً، بمعنى ما، أمواتاً ومدفونين في ظلام مادي، ملفوفين في كفن اللاوعي؟ ألا يحجب رؤيتنا حجر من الغموض والضبابية؟ أليس أملنا الأعز ومصيرنا المجيد أن نرى ذلك الحجر يُدحرج وأن تستيقظ طبيعتنا الروحية من سباتها الأبدي؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نفعل كما فعل المسيح ونقوم إلى حياة روحية جديدة؟ يقول الأرثوذكس: هذا صحيح، لكن هذا لن يحدث إلا بعد موتنا، عندما يقوم لحم أجسادنا المتحلل منذ زمن طويل والذي اختفى منذ زمن طويل مرة أخرى يوم القيامة. وهنا ينفصل الغنوصي بشكل قاطع

عن الأرثوذكسي. من المرجح أن يقتبس الغنوصي من إنجيل فيليب: "قام المسيح أولاً ثم مات" - وقد يضيف أنه إذا كنا نرغب في الانخراط في تقليد المسيح، فهذا ما يجب علينا فعله أيضًا. فكما جاء في الإنجيل نفسه في موضع آخر:

إذا لم يختبر الإنسان القيامة أولاً وهو حي، فلن ينال شيئاً عند موته. (القول 21)

اعتبر الغنوصيون مصطلح القيامة رمزاً لكلمة الغنوص، أو الصحوة الروحية الحقيقية. عندما نستيقظ على وعي من نحن، ومن أين أتينا، وإلى أين نحن ذاهبون، نكون قد وصلنا إلى معرفة الأشياء الحقيقية. في التقاليد الغنوصية، تعتبر قيامة المسيح هي الحافز السري الذي يسهل قيامتنا أو صحوتنا. إذا لم يحدث هذا الصحو، فإن حياة المسيح وموته وقيامته وصعوده ستكون عبثاً. كما كتب أنجيلوس سيليسيوس، المتصوف المسيحي الذي عاش في القرن السابع عشر، والذي كان ذا ميول غنوصية إلى حد كبير:

مع أن المسيح قد ولد ألف مرة في بيت لحم، وليس فيك، فإن نفسك كلها يائسة.

إن الصليب في الجلجثة قائم عبثاً، ما لم يُنصب فيك مرة أخرى.

(الرحالة الملائكي)

غالباً ما يُفهم مصطلح *"imitatio Christi"* (تقليد المسيح) على أنه تعريف المرء لمصائبه ومعاناته بتلك التي حدثت في آلام المسيح وصلبه. لكن هذا التقليد يجب أن يشمل أيضاً القيامة. الموقف الغنوصي واضح تمامًا: في لحظة الغنوص الكاملة، يتم إطلاق الشرارة الإلهية الكامنة بشكل فعال، وينهض المرء من القبر المزدوج للجسد والعقل، متحدًا مع الروح الخالدة. يزول النسيان؛ وتعود ذكرى حقائق الروح.

المسيح المحرر الخالد

أحد الاعتراضات الرئيسية للمسلمين على النظرة المسيحية ليسوع هو أنه يُدعى ابن الله. في نظر المسلمين، من غير اللائق القول بأن الله قد يكون له ولد، لأن التكاثر هو نشاط جسدي وبالتالي فهو أدنى من كرامة الألوهية. بينما تشير النصوص الغنوصية بحرية إلى الآب والابن والروح القدس، إلا أنها لا تساوي بين يسوع والشخص الثاني من الثالوث بأي شكل صريح. لم تكن مسألة البنوة مهمة بالنسبة لهم. ومثل المسلمين، ربما كانوا قد تجنبوا ذلك أيضاً. كان يسوع الممسوح (كريستوس)، بالنسبة لهم، كائناً غامضاً أبدياً، وقوة روحية عظيمة نزلت في صورة رسول إلى البشرية. يقدم كتاب "المندائيين كنزا" (389 وما بعدها) الكشف الذاتي لمثل هذا الكائن، على الرغم من عدم ذكر اسمه:

من مكان النور خرجت، منكِ يا مسكنًا مشرقًا.

أشعر بالقلوب،

لأقيس وأختبر كل العقول، لأرى في قلب من أسكن، وفي عقل من أستريح.

من يفكر بي، أفكر به؛ من ينادي باسمي، أنادي باسمه.

من يصلي دعائي من الأسفل، أدعو له من مكان النور.

جئت فوجدت القلوب الصادقة والمؤمنة. حتى عندما لم أكن أسكن بينهم،

كان اسمي على ألسنتهم.

أخذتهم ووجهتهم إلى عالم النور.

يقدم لنا أب الكنيسة هيبوليتوس بيانًا عن المخلص الغنوصي كما حفظته مدرسة غنوصية تسمى بيراتاي: "أنا صوت الصحوة في أيون الليل الأبدي". في مزمور "النفس" في ترنيمة النَحَشية، نجد المسيح السماوي الروحي

يتوسل إلى الآب أن يرسله لإتمام مهمته الخلاصية:

> أرسلني يا أبي من أجل الإنسانية! سأنزل حاملاً الأختام، وسأسلك طريقي عبر كل الأيونات، وسأكشف كل الأسرار، وسأظهر أشكال الكائنات الإلهية، وسأنقل أسرار الطريق المقدس، المعروف باسم الغنوص.

يشهد يسوع على مكانته العالية والغامضة في عدد من أقوال إنجيل توما. على سبيل المثال لا الحصر:

> ألقيتُ النار على العالم، وأنا أحرسه حتى يشتعل العالم. (القول 10)
>
> سأعطيكم ما لم تره عين، وما لم تسمعه أذن، وما لم تلمسه يد، وما لم يخطر على بال بشر. (القول 17)
>
> من يشرب من فمي يصبح مثلي وأنا أصبح مثله، وتنكشف له الأمور الخفية. (القول 108)
>
> من كان قريباً مني كان قريباً من النار، ومن كان بعيداً عني كان بعيداً عن الملكوت. (القول 82)
>
> أنا النور الذي يعلوهم جميعاً، أنا الكل، الكل انبثق مني، والكل وصل إليّ. شقّ الخشب، فأنا هناك؛ ارفع الحجر وستجدني هناك. (القول 77)

إن يسوع المسيح الغنوصي هو في الحقيقة أكثر بكثير من مجرد ابن النجار من الناصرة. وبطرق معينة، هو أيضاً أكثر من مجرد ابن الله المحدد والموصوف بدقة من قبل اللاهوتيين. إذا بدا يسوع الغنوصي متناقضاً وغامضاً للبعض، فذلك لأن التصور الغنوصي ليسوع ينشأ من تجربة الغنوص. رأى الغنوصيون يسوع بعيون رؤيوية. بالنسبة لهم، كان كائناً متعالياً، ساكناً لبعد أو عالم آخر وجد نفسه مؤقتاً على الأرض. لكي يعرف المرء يسوع، كان عليه أن يتلقى الغنوص.

عندها ستُكشف كلماته وأفعاله وكيانه بالكامل، وسيتم فهمها بشكل كامل. اليوم، وبعد ألفي عام كاملة من التاريخ المسيحي، لا يزال اللغز المسياني العظيم ينادينا ويطلب منا أن نفهمه بعقل وإدراك الغنوص. أما عن أولئك الذين ينظرون إليه بعيون عادية، فلا يزال يقول:

> أبدو لهم كغريب لأنني من عرق آخر. (أغاني سليمان 41)

أما بالنسبة للغنوصي، فسيظل إلى الأبد الغريب المضيء الذي يذكرنا بأننا أيضاً من عالم آخر يمكنه مساعدتنا على العودة إليه.

سر الإثم: النظرة الغنوصية للشر

❖

فيالعاشر من يونيو عام 1991، ظهرت قصة غلاف في مجلة تايم حول موضوع الشر. لم يدافع المؤلف، لانس مورو، عن أطروحة معينة ولم يتوصل إلى أي استنتاجات. لكن ما فعله كان،

بمعنى ما، أكثر أهمية. بدأ بذكر ثلاث قضايا:

- الله قدير على كل شيء.
- الله خير مطلق.

• تحدث أشياء فظيعة.

قال مورو، مستشهداً بعدة مصادر، إنه يمكن للمرء أن يتفق مع أي اثنين من هذه المقترحات، ولكن ليس مع الثلاثة جميعها. يمكنك أن تعلن أن هناك إلهاً قادراً على كل شيء يسمح بحدوث أشياء فظيعة، لكن هذا الإله لا يمكن أن يكون خيراً مطلقاً. من ناحية أخرى، قد يكون هناك إله خير مطلق يسمح بحدوث أشياء فظيعة لأنه لا يملك القدرة على إيقافها؛ وبالتالي فهو ليس كلي القدرة.

كان من الممكن بسهولة أن يقدم هذا التحليل أحد الغنوصيين في القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى من العصر المسيحي، أو حتى أحد الغنوصيين المعاصرين، مثل كاتب هذه السطور. ليس الأمر أن الغنوصيين كانوا الوحيدين الذين أدركوا هذا المأزق التوحيدي الفريد. أقر القديس توما الأكويني، وهو أحد أبرز علماء اللاهوت الكاثوليكي في العصور الوسطى، في كتابه "الخلاصة اللاهوتية" بأن وجود الشر هو أفضل حجة ضد وجود الله. إذا تم قبول مفهوم الإله الواحد، فلن يكون للشر تفسير معقول. وعلى العكس من ذلك، إذا كان الشر موجوداً، فإن الإله التوحيدي الذي تقدمه التقاليد الدينية السائدة في الغرب لا يمكن أن يكون موجوداً.

من أين يأتي الشر؟

لقد فسرت التقاليد الدينية عبر التاريخ وجود الشر بعدة طرق. الأول أحادي المذهب؛ والثاني ثنائي المذهب بشكل جذري؛ والثالث يربط الشر بالجهل؛ بينما الرابع ينسب الشر إلى الخطيئة الأصلية. في العصور البدائية، سمحت الطبيعة غير المتمايزة للوعي البشري للناس بالقول إن الخير والشر كلاهما يأتي من الإلهي. وهكذا لم يكن من الصعب على الشامان القدماء أن يقولوا إن الخير والشر يصيبان البشر من قبل الروح العظيمة. في السياق الأكثر تعقيدًا للتقاليد السومرية البابلية، كان يُعتقد أن الآلهة كانت تسلي نفسها بخلق أشياء مروعة: كائنات غريبة، وشياطين شريرة، وظروف مروعة للحياة البشرية.

باستخدام منطق نفسي تاريخي - كما هو الحال في أماكن أخرى في هذا التحليل - يمكن للمرء أن يقول إنه قبل أن يطور البشر وعيًا متمايزًا (أو الأنا الواعية)، كانوا يتصورون الله أو الآلهة بسهولة على أنهم مثلهم، بحيث كان توافق الخير والشر جزءًا من طبيعتهم، وكذلك طبيعة الآلهة. وقد ورثت التقاليد الروحية الأكثر تقدماً بعضاً من هذا الموقف التوحيدي؛ وهكذا

يقول اللاهوت اليهودي الصوفي إن الله يشارك في كل من الميول الخيرة والشريرة *(يتزيريم)*.

مع تطور الوعي، يبدأ العقل في التمييز بين الجوانب النافعة والضارة للوجود. يصبح التوتر الناتج عن محاولة التمسك بمفهوم الله الذي يوحد الخير والشر لا يطاق، بحيث يجب على العقل أن يفصل بينهما. وهكذا تنشأ فكرة الثنائية الراديكالية، والتي يُعد الزرادشتية أبرز مثال عليها. هنا، الإله الحق والخير، أهورا مازدا (يسمى أحيانًا أورمازد)، له خصم إلهي يُعرف باسم أنغرا ماينيو (أهريمان). يخوض الاثنان صراعاً كونياً أبدياً من أجل السيادة. على الرغم من أن أهورا مازدا هو الأعلى وانتصاره النهائي مضمون، إلا أنه طالما استمر الخلق، سيستمر أنغرا ماينيو في قتاله وجلب المعاناة إلى العالم.

يمكن العثور على نظرة متطورة ولكنها غير شخصية للشر وأصوله في الديانات العظيمة التي نشأت في الهند. تعتبر هذه التقاليد الشر جزءًا من حالة الوجود غير المستنيرة، وترى أن سبب الشر هو الجهل *(أفيديا)*. من خلال بلوغ الوعي المستنير وبالتالي الارتقاء فوق كل الثنائيات، يتحرر المرء من الكارما ومن جميع الظروف التي يلعب فيها الشر دورًا. إن ما إذا كان التحرر يؤدي حتماً إلى توقف الوجود المتجسد ليس واضحاً دائماً، ولكن الحياة كما عرفها المرء تتوقف بوضوح، ومعها يتوقف الشر أيضاً.

أما الفئة الرابعة فتضم التوحيد الكلاسيكي كما هو موجود في اليهودية والمسيحية السائدتين. بينما تنسب تقاليد الفئات الثلاث الأخرى وجود الشر إلى الله، أو إلى إله مضاد خبيث، أو إلى الجهل البشري، فإن الفكر اليهودي المسيحي ينسب أصل الشر إلى الخطيئة البشرية. كما رأينا في الفصل الثالث، فإن أسطورة الخلق في التقاليد اليهودية المسيحية السائدة، بقصتها عن جنة عدن والأحداث الغريبة التي يقال إنها وقعت هناك، تشكل الأساس لهذا الرأي. أي أن التجاوزات التي ارتكبها أول زوجين من البشر أدت إلى "سقوط" الخلق، مما أدى إلى الحالة الراهنة للعالم.

حتى في عصر علماني مثل عصرنا، لا يزال الظل القوي لمثل هذه المعتقدات يلقي بظلاله على عقولنا. يتساءل المرء كيف كان التاريخ سيختلف لو لم يكن ذنب السقوط حاضراً ليثقل كاهل أرواح الرجال والنساء في الثقافة اليهودية المسيحية!

الرؤية الغنوصية

يتفق الغنوصيون، القدماء والمعاصرون، مع البوذيين على أن المعاناة هي المظهر الوجودي للشر في العالم. على الرغم من أن معاناة البشر، بتركيبهم الفسيولوجي والنفسي المعقد، ذات طبيعة راقية بشكل فريد، فإن جميع المخلوقات الأخرى تعاني أيضاً من الخوف والألم والبؤس. كما يشير القديس بولس، فإن كل الخليقة تئن وتتألم (رومية 8.22). كما هو مذكور في الفصل الثاني، يرى الغنوصيون أن هذه الحالة غير الكاملة للعالم ليست نتيجة للخطيئة الأصلية، بل لعيب أصلي. وبعبارة أكثر تجريدًا، فإن الشر جزء لا يتجزأ من نسيج العالم الذي نعيش فيه. إذا كان هناك خالق لهذا الواقع، فمن المؤكد أن هذا الخالق مسؤول عن الشر الموجود فيه. أما بالنسبة للمؤمنين بالأديان التوحيدية، فإن الموقف الغنوصي يبدو كفراً، وحتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم غير مؤمنين غالباً ما ينظرون إليه باستياء.

يمكن فهم الموقف الغنوصي على أفضل وجه في ضوء جذوره التاريخية. وفقًا لمعظم الباحثين المعاصرين، وكما ذكرنا سابقًا، نشأت الغنوصية في المصفوفة الدينية اليهودية (ربما في مظاهرها غير التقليدية) ثم تحالفت مع البدعة اليهودية التي أصبحت المسيحية. كما ورد في الفصل الثاني، واجه الغنوصيون صورة إله موحد في العهد القديم - وتعديلات على تلك الصورة في العهد الجديد - والذي كان في كثير من الأحيان متقلب المزاج، وغاضباً، ومنتقماً، وظالماً. كان من السهل استنتاج أن هذا الإله الذي يبدو أنه معيب قد خلق عالماً

على صورته المعيبة. طرح الغنوصيون السؤال العظيم: هل هذا الخالق المعيب هو حقًا الإله المطلق والحقيقي والخير، أم أنه إله أدنى إما جاهل بقوة تتجاوزه أو مدرك لسلطة إلهية أعلى منه ولكنه يقرر اغتصاب مكانة الإله الأعلى؟ أجاب الغنوصيون بأن هذا الخالق ليس الإله الحقيقي المطلق، بل هو بالأحرى ديميورجوس، إله ثانوي. إن الديميورج هو منشأ الشر والنقص في العالم.

وهكذا يتضح أن التجديف الظاهر المتمثل في نسبة شر العالم إلى الخالق ينشأ من مواجهة الغنوصيين مع إله موحد. الهرمسية، وهي حركة مشابهة للغنوصية، متجذرة في الوثنية. بسبب هذه الأصول، لم يرث الهرمسيون شخصية إله العهد القديم المتناقضة ولم يضطروا إلى الإجابة أمامها، لذلك تمكنوا من تبني موقف أقل قسوة. لم يركز مفهومهم للشر على علاقة الشر بالديميورج. اليوم، يميل الكثير من الناس إلى تفضيل الهرمسية على الغنوصية لهذا السبب بالذات.

لقد حاول الكثيرون تجنب الاعتراف بالعيوب الموجودة في هذا الخلق، وبالتالي العيوب الموجودة في خالقه، لكن لم تقنع أي من حججهم الغنوصيين. ركز الإغريق القدماء، وخاصة الأفلاطونيين الجدد، على انسجام الكون، حتى يتمكنوا من خلال تبجيل عظمته من نسيان مصائبهم الخاصة، فضلاً عن تحديات وأحزان الحياة العادية. قالوا: انظروا إلى هذا العالم الجميل؛ انظروا إلى النظام الرائع الذي يعمل به ويحافظ على استمراريته. كيف يمكن للمرء أن يصف شيئاً جميلاً ومتناغماً كهذا بأنه شيء شرير؟ لطالما أجاب الغنوصيون بأن عيوب الوجود ووحدته واغترابه لا يمكن إنكارها، لذا فإن الكون متناغم ومنظم جزئياً فقط.

بالنسبة لأولئك المتأثرين بالروحانية الشرقية، الذين يجادلون بأن قانون الكارما ـ حيث تؤدي أفعال المرء السيئة إلى سوء الحظ في وقت لاحق من حياته أو حتى في حياة أخرى ـ يفسر عدم كمال العالم الظاهر،

قد يرد الغنوصي بأن الكارما في أحسن الأحوال لا يمكنها إلا أن تفسر كيف تعمل سلسلة المعاناة وعدم الكمال. لا يخبرنا ذلك لماذا ينبغي أن يوجد مثل هذا النظام المحزن في المقام الأول.

الثنائية المقيدة

كما ذكرنا سابقاً، فإن إحدى طرق تفسير وجود الشر هي الثنائية الراديكالية، والتي تعتبر الديانة الزرادشتية مثالاً عليها. أما الموقف الغنوصي، على النقيض من ذلك، فيمكن تسميته بالثنائية المقيدة. لا يفترض هذا الموقف وجود حرب بين إله خير وإله شرير، كما تفعل الثنائية الراديكالية. وبعبارة أخرى، فإن الخير والشر مختلطان في العالم الظاهر؛ فالعالم ليس شراً محضاً، ولكنه ليس خيراً محضاً أيضاً. لا ينبغي أن يحجب الشر الموجود في العالم عنا وجود الخير؛ ولا ينبغي أن يحجب الخير عنا حقيقة الشر.

كان الغنوصيون أنفسهم يفضلون الأساطير كوسيلة للتعبير عن رؤى عميقة. هناك أساطير تتحدث عن امتزاج الخير والشر في الخلق، وهي أساطير تسبق ظهور الغنوصيين. إحدى هذه الحكايات هي الأسطورة اليونانية عن ديونيسوس. عندما مزق الجبابرة هذا الإله إرباً، جاء زيوس لنجدته وضرب مهاجميه بصاعقة. تحولت جثث كل من الجبابرة وديونيسوس إلى رماد واختلطت. من هذا الرماد انبثقت جميع أنواع المخلوقات، بما في ذلك البشر، حيث امتزجت الطبيعة الإلهية لديونيسوس بالطبيعة الشريرة للجبابرة. وهكذا فإن النور والظلام في حالة حرب مع بعضهما البعض داخل الطبيعة البشرية وفي العالم الطبيعي.

كان لدى الغنوصيين أسطورتهم الخاصة حول أصول الخير والشر. يبدأ الأمر بفيض لا حدود له من النعيم - البليروما - وهو يتجاوز كل الوجود الظاهر. البليروما هي مسكن وجوهر الإله المطلق الحقيقي *(alethes theos)*. قبل الزمن وقبل الذاكرة، امتد هذا الكمال الذي لا يوصف إلى

المناطق الدنيا من الوجود. وفي سياق هذا الانبثاق، تجلى في عدد من الآلهة الوسيطة، **الديميورجوي**، الذين كانوا أشبه بالملائكة العظماء، الموهوبين بمواهب هائلة في الإبداع والتنظيم. إلا أن بعض هذه الكائنات انفصلت عن مصدرها السماوي، فاكتسبت ميولاً شريرة. لقد خلقوا عالماً مادياً قبل خلق البشر بزمن طويل، وخلقوه على صورة طبيعتهم غير الكاملة.

وهكذا فإن الإرادة التي خلقت العالم قد تلوثت بالإرادة الذاتية والغطرسة والتعطش للسلطة؛ ومن خلال الأعمال التي قامت بها هذه الكائنات المنعزلة، تمكن الشر من اختراق الخليقة. ومنذ ذلك الحين، وكما قال المعلم الغنوصي باسيليدس، "يلتصق الشر بالوجود المخلوق كما يلتصق الصدأ بالحديد". وكجزء من عملية الخلق، يعكس البشر أيضاً الطبيعة المعيبة للخالقين. إن جسم الإنسان عرضة للمرض والموت وغير ذلك من الشرور؛ حتى السايكي (النفس) ليست خالية من النقص. الروح *(pneuma)* وحدها، المخبأة في أعماق الجوهر البشري، تبقى بمنأى عن الشر وتتجه نحو الإله الحق.

الاستنتاجات المعاصرة

تحدث أشياء فظيعة، كما ذكرت مقالة مجلة تايم، وكما يظهر تاريخ القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. العالم مليء بالشر والرعب، والمعاناة أمر عالمي. يقوم بعض الأفراد، وغالباً ما يكونون في مناصب قوية، بتعذيب وقتل الآخرين بشكل يومي. قد يقول المؤمنون بإله التوحيد اليهودي المسيحي ومؤيدو نظرية الكارما أن هذا لا يهم كثيراً، لأنه في التحليل النهائي حتى الشر يؤدي إلى الخير. يبدو أنهم يقولون إن الشر ليس شراً حقيقياً على الإطلاق، بل هو خير متنكر في زي بغيض. هذا النوع من الجدال المقلوب رأساً على عقب هو بمثابة إهانة لجميع أولئك الذين واجهوا الشر وجهاً لوجه - الناجين

من المحرقة أو معسكرات العمل القسري أو حقول القتل. بالنسبة لهم، الشر شر، وكل التفسيرات الأخرى ليست سوى مراوغة.

علاوة على ذلك، تحدث العديد من الأشياء الرهيبة التي لا يتسبب بها البشر، مثل الزلازل والحرائق والفيضانات والأوبئة. في حين أن انحرافات الحالة البشرية مسؤولة عن بعض المعاناة في هذا العالم، إلا أن الكثير منها ليس خطأنا. لكننا في كثير من الأحيان نعتقد ذلك. ومع ذلك، سواء كان ذلك بسبب أسطورة آدم وحواء أو بسبب الدعاية التي تجعل البشر يبدون وكأنهم المدمرون الوحيدون للبيئة، فإن تنمية الشعور بالذنب ليس علاجاً للشر. بل على العكس، فإن الشعور بالذنب يولد المزيد من الحزن على المدى الطويل. دعونا نتوقف عن جلد الذات هذا ونحاول التخفيف من الشرور التي لدينا بعض السيطرة عليها، متذكرين أنه من المستحيل علينا القضاء على المصائب تمامًا.

بما أن البشر مصنوعون من نفس مادة الخلق، فمن المستحيل طرد الشر من أنفسنا تمامًا كما هو الحال في التخلص منه في العالم من حولنا. لو كان بإمكان الخطط والتقنيات البشرية القضاء على الشر من الطبيعة البشرية، لكنا نجحنا في ذلك منذ زمن بعيد. إن أسطورة الشر، أو "سر الإثم"، التي قدمها الغنوصيون، تجيب على بعض الأسئلة بينما تثير أسئلة أخرى. يهيمن على المجتمع المعاصر بشكل متزايد تحيز علماني معين له جذور في فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر، بينما يستمد جذعه من الماركسية، وتتكون فروعه إلى حد كبير من النزعة الاستهلاكية والمتعة - عبادة المال والصحة والشباب. يستند هذا التحيز إلى افتراض - أحيانًا ضمني، وأحيانًا صريح - مفاده أن العالم المادي الملموس فقط هو الموجود وأن ما وراء الطبيعة ليس سوى استعارة تدور حول العالم المادي. لا عجب إذن في إثارة اعتراضات قوية ضد

وجهة النظر الغنوصية.

إن الغنوصية لا تؤيد بأي حال من الأحوال سعي عصرنا نحو الخلاص العلماني، واستبدال نظريات الآليات الاجتماعية بالمعرفة التحررية. في الرؤية الغنوصية، لا المجتمع البشري ولا العالم الطبيعي

خلاصي، لأن حقيقة كليهما مشتقة وليست أصلية. وقد عبّر نيكولاي بيرديايف، وهو فيلسوف حديث ذو ميول غنوصية عديدة، عن هذا الأمر بشكل مقنع: "إن العالم الطبيعي والمجتمع والدولة والأمة وبقية الأشياء جزئية، وادعاؤها بالكمال هو كذبة استعبادية، نابعة من عبادة الأصنام لدى البشر".

إن قصر النظر الحديث وما بعد الحداثي، الذي يختزل الإنسان إلى حيوان ذكي للغاية ولكنه منحرف، ويؤله الهندسة الاجتماعية والبيئية على حد سواء، يتعارض مع وجهة النظر الغنوصية. عندما يسود قصر النظر هذا، تصبح الحياة أفقية. كل ما يهم موجود هنا والآن - وهو مادي أيضاً. عندما يكون الشر الوحيد هو استنزاف طبقة الأوزون والاكتظاظ السكاني على الأرض، فإن الاعتبارات الغنوصية للشر والتحرر من الشر تصبح مجرد سراب متلألئ. بغض النظر عن رأي المرء في الأسطورة الغنوصية عن الشر، فإن أسسها خارقة للطبيعة وروحية، وليست طبيعية أو اجتماعية أو اقتصادية. إن أصل الشر، على حد تعبير القديس بولس، هو "الشر الروحي في الأماكن العالية"؛ لذلك فإن الوسائل المادية لن تجدي نفعاً ضده. هذا لا يعني بالطبع أنه لا ينبغي مكافحة الظروف المادية السيئة بأي وسيلة متاحة، بما في ذلك الوسائل المادية. لكن الاعتقاد بأن أي وسيلة مادية ستقضي تماماً على كل الشرور والمعاناة هو ضرب من الحماقة.

لطالما كان الغنوصيون مقتنعين بأن البشر هم في الواقع أرواح تسكن مؤقتًا جسدًا ماديًا في هذا العالم المادي. بفضل الروح الكامنة ***(pneuma)*** المغلفة بعمق داخل ذواتنا الجسدية والنفسية، فإننا قادرون على الاستجابة للحب الإلهي القادم إلينا من وراء النظام المعيب الذي نجد أنفسنا فيه. إن هذا الحب هو الذي يمنحنا فرصة الغنوص المتعالي. في بيئتنا المعاصرة، نستخدم كلمة *"متعالٍ"* في كثير من الأحيان، لكننا نفشل في إدراك أنها تعني تجاوز العالم الطبيعي، بل وتجاوز الكون نفسه. إن التجاوز هو ما يُفترض بنا أن نفعله. عندما نتجاوز العالم، نتجاوز الشر. وحتى ذلك الحين، فإن

أفضل ما يمكننا فعله هو ممارسة قدراتنا على التمييز لفصل الخير عن الشر، والنور عن الظلام. وبهذه الطريقة نعمل على تحقيق خلاصنا المبدئي في هذا العالم ونصبح مستعدين لخلاصنا النهائي من خلال الغنوص.

يتفق الغنوصيون المعاصرون في معظمهم مع الأفكار الأساسية لنظرائهم القدماء. هل يؤمن الغنوصيون المعاصرون بالديميورج؟ هل يعتقدون أن الشر قد زرعه الديميورج في العالم؟ هل يعتبرون هذه الأفكار حقائق ميتافيزيقية أم مجرد أساطير تلمح إلى حقائق أكثر دقة وغموضاً؟ ليس من المستغرب أن بعض الغنوصيين يؤمنون بهذه الأشياء حرفياً، بينما يؤمن بها آخرون رمزياً؛ ولا يزال البعض الآخر يحمل مزيجاً من كلا الرأيين. المهم ليس الشكل الدقيق لهذه التعاليم، بل جوهرها. وهذا واضح بما فيه الكفاية. تتحدث التعاليم الغنوصية عن حقيقة وقوة الشر وحضوره الأساسي في جميع أنحاء الوجود الظاهر. ويعلنون أنه على الرغم من أننا قد لا نكون قادرين على تخليص العالم أو أنفسنا من الشر، إلا أننا قد نرتقي فوقه، بل وسنفعل ذلك بالفعل، من خلال الغنوص. وعندما يتم هذا الإنقاذ، لن نخشى بعد الآن شيطان الظهيرة أو الرعب الذي يسير في الليل.

الفصل السابع

تحرير الأسرار: الأسرار المقدسة التأهيلية الغنوصية

عند التعامل مع الجانب الطقسي لأي تقليد روحي، يجب علينا أولاً وقبل كل شيء أن ننفصل عن بعض المفاهيم العقلانية التي هيمنت على العالم الفكري في القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والتي لا تزال تحظى ببعض المؤيدين حتى اليوم. تقول النظرية المفضلة لدى المدارس العقلانية في مقارنة الأديان إن الأشكال العليا للتقاليد الدينية نشأت في الفلسفة والأخلاق ثم انحدرت لاحقاً إلى أنظمة العبادة، وانحدرت في النهاية إلى الطقوس والسحر. يرتكز هذا المفهوم على فكرة أن الفلسفة والأخلاق هما نتاجان أكثر تقدماً ونبلاً للروح الإنسانية من الطقوس، لأن الأولى تنبع من العقل، بينما الأخيرة غير عقلانية بطبيعتها.

وقد تسبب هذا الموقف في الكثير من سوء الفهم حول الغنوصية. لعدة قرون، كان يُعتقد أن الغنوصية هي في الأساس نتاج للتأمل الفلسفي مع علاقة ضئيلة أو معدومة بالدين الأصيل أو بالمهام العملية للحياة. تم تصوير الغنوصيين على أنهم فلاسفة تأمليون وحالمون ميتافيزيقيون

الفصـل
السـادس

استحضروا أنظمة كونية وثيوغونية رائعة، ونددوا بشرور العالم المخلوق، بينما أعلنوا أن مهمة الروح البشرية هي العودة إلى أرض خارج هذا العالم. لحسن الحظ، تغير مسار الرأي الأكاديمي الآن، وأصبح فهم طبيعة الآراء الغنوصية أفضل، وذلك بفضل جهود جيل أكثر إنصافاً من العلماء والكتاب. يتجلى هذا الموقف الجديد تجاه الغنوصية بشكل جيد في البيان التالي الذي أدلى به الباحث الأوروبي البارز جيل كويسبيل، أحد المترجمين الرئيسيين لنصوص نجع حمادي الشهيرة:

> في كتابي "الغنوص كدين عالمي" (1951)، اقترحت أن الغنوصية عبرت عن تجربة دينية محددة، والتي غالباً ما تحولت إلى أسطورة. يبدو واضحاً أن بعض الأنظمة الغنوصية الرئيسية
>
> على الأقل استُلهمت من مشاعر قوية وتجارب شخصية. والآن بات من المقبول عموماً أن الغنوصية لم تكن فلسفة، أو حتى بدعة مسيحية، بل كانت ديناً له وجهات نظره الخاصة حول الله والعالم والإنسان. ("الغنوصية"، في كافنديش، الإنسان، الأسطورة، والسحر 1115)

ويمكننا أن نضيف أن الغنوصية دين مليء

بالطقوس التي تحرر النفس.

التمائم والطقوس المقدسة

من الغريب حقاً أن بعض الحقائق المتعلقة بالغنوصية لم تظهر حتى الآن، لأنه في وقت مبكر جداً من تاريخ دراسة الغنوصية كان هناك الكثير من الأدلة على أن الغنوصيين فعلوا أكثر من مجرد التكهن والتفلسف. تم اكتشاف كتب غنوصية قديمة الأصل، ولا تزال تُكتشف، وهي ليست ذات طبيعة فلسفية ولكنها تحتوي على صلوات وأدعية طويلة موجهة إلى قوى متعالية مختلفة. توجد في العديد من النصوص

الغنوصية كلمات غامضة ذات قوة، تتكون من سلاسل طويلة من حروف العلة، ويبدو أنها مصممة للترتيل. علاوة على ذلك، تحتوي العديد من النصوص الغنوصية على سجلات مطولة للطقوس التي قام بها يسوع، بينما تشير نصوص أخرى إلى أنظمة طقوسية متطورة داخل المجتمعات الغنوصية في القرون الأولى من العصر المسيحي. كما تم اكتشاف العديد من الأحجار الكريمة التمائمية الغنوصية، وكلها تحتوي على صور نموذجية: الثعابين والأسود والرموز الفلكية والكائنات الأسطورية الهجينة - مثل أبراكسيس (أو أبراساكس) الشهير، الذي له رأس ديك وجسم رجل وأرجل مصممة على شكل ثعابين. من المرجح أن هذه الثروة من الأدب الرمزي والطقوسي قد اعتبرها العقل العقلاني غير مفهومة بل وحتى مستهجنة، ولذلك فقد سُمح لها إلى حد كبير بالبقاء دون مساس في المتاحف والمحفوظات دون أي جهد لترجمتها ونشرها. أدت الاتهامات الجاهلة بـ "مجرد سحر" و"خرافات لا معنى لها" إلى دفن العديد من الآثار القيّمة لهذا التقليد العظيم في طي النسيان التام.

لقد أدى إحياء الاهتمام بالأساطير والطقوس في أواخر القرن العشرين إلى خلق جو أكثر ملاءمة للدراسات الغنوصية من أي جو كان سائداً في السابق. اليوم بدأنا نفهم أن الفلسفة ليست سوى حكاية تُروى، بينما الأسطورة والطقوس هما واقع يُعاش ويُمارس. تشرح الفلسفة ظواهر الحياة للعقل العقلاني، لكن الأسطورة والطقوس تمثلان عودة ظهور الواقع البدائي الذي خلق الظواهر التي ترغب الفلسفة في شرحها. وهكذا، بينما تحاول الفلسفة الإجابة على السؤال "لماذا؟" تُجيب الأساطير والطقوس على السؤال "من أين؟" يعلمنا علم النفس العميق أن تخصصات مثل الفلسفة والأخلاق لا يمكنها في أحسن الأحوال إلا أن تخاطب الجزء الواعي من النفس البشرية، لكن الأساطير والطقوس توفر رابطًا مباشرًا وإبداعيًا باللاوعي، حيث تربط عالم الأنا الواعية بالقوى العميقة للمنطقة الواقعة وراء حجاب الوعي.

لا شك أن الغنوصيين استخدموا الطقوس على نطاق واسع. على الرغم من أن النقاد المعادين غالباً ما عاتبوا الغنوصيين على

انطوائهم، إلا أننا ندرك الآن أن الغنوصيين كانوا على دراية تامة بالعلاقة التبادلية الوثيقة بين الداخل والخارج، بين التحول الداخلي والفعل الطقسي الخارجي. في الرؤية الغنوصية، جاء يسوع، الشخصية الهرطيقة العظيمة للغنوص المسيحي، ليجعل "الداخلي كالخارجي، والخارجي كالداخلي، والأعلى كالأسفل، بحيث يصبحون جميعًا واحدًا" (إنجيل توما، القول 22).

لقد قدمت مخطوطات نجع حمادي أدلة وفيرة على وجود نظام غنوصي للأسرار المقدسة يشبه إلى حد كبير نظام الكنيسة الكاثوليكية اللاحقة. في إنجيل فيليب، وهو عمل يظهر تأثيرات فالنتينية قوية، توجد آثار لاهوت سرّي غنوصي، إلى جانب قائمة بخمسة أسرار مقدسة، يقال إن يسوع هو من أسسها. وهكذا نقرأ في القول 67 من هذا الإنجيل:

لم تأتِ الحقيقة إلى العالم عارية، بل أتت في أشكال وصور. لن يستقبلها [العالم] بأي طريقة أخرى.

وتتبع ذلك تصريحات أخرى تربط عقيدة الصور بالأسرار المقدسة. يُعلن الإنجيل أن الأسرار الإلهية الحقيقية للعوالم المتعالية لا يمكنها أن تؤثر على أي شيء في العالم السفلي بدون الوساطة التي تتمثل في صورها، والتي يتم تصويرها في الأسرار المادية؛ أي أنها تجلي "صورة من خلال الصورة". (هذا يعني، من منظور علم النفس العميق، أن القوى المتعالية أو النفسية، المعروفة لدى يونغ باسم النماذج الأصلية، لا يمكن أن تتجلى في النفس الفردية إلا كصور نموذجية، وأن هذه الصور النموذجية يمكن استحضارها وجعلها فعالة من خلال طقوس مصممة بشكل صحيح مرتبطة بصفات الصورة النموذجية.) إلا أن مؤلف إنجيل فيليب الغنوصي يدرك أن هذا الاتصال بالنموذج الأصلي لا يتحقق من خلال السر وحده، بل يجب أن يحدث تحول داخلي شخصي إلى جانب الشكل الخارجي؛ وإلا فإن هذا الشكل يصبح فارغاً:

غرفة العروس والصورة من خلال الصورة، من المناسب أن يدخلوا إلى الحقيقة، وهي الخلاص النهائي. إنه مناسب لأولئك الذين لا يتلقون اسم الآب والابن والروح القدس فحسب، بل حصلوا عليها لأنفسهم. إذا لم يحصل أحد عليها لنفسه، فسيُنزع الاسم منه أيضاً. (القول 67)

الأسرار المقدسة وأثرها

إن الهدف من سر الغنوصية ليس مجرد تقديس مؤقت، كما هو الحال في المذهب الكاثوليكي الروماني للنعمة السرية، بل هو تحول كامل، وتغيير إلى جوهر الألوهية. إنّ الغنوصي الكامل ليس تابعاً للمسيح، بل هو إنسان مؤلَّه؛ إنه مسيح آخر:

لكن المرء يتلقاها في مسحة ملء قوة الصليب، والتي يسميها الرسل "اليمين" و"اليسار". لأن هذا لم يعد مسيحياً بل مسيحاً. (إنجيل فيليب، القول 67)

كما هو الحال في التقاليد الكاثوليكية، كذلك في الغنوصية يُقال إن الأسرار المقدسة قد أسسها يسوع:

لقد فعل الرب كل شيء في سرّ، معمودية ومسحة وقربان وفداء وغرفة عروس. (إنجيل فيليب، القول 68)

يشير الرقم 68 إلى خمسة أسرار مقدسة، أو أسرار غامضة. لكن الباحث الألماني شينكه، في إعادة صياغة الآية 60 من نفس الإنجيل، قد تأكد من أن إنجيل فيليب يتحدث أيضًا عن سبعة أسرار مقدسة، مما أدى إلى إقامة توازي دقيق مع المسيحية الكاثوليكية الأرثوذكسية. علاوة على ذلك، فإن أوجه التشابه بين الطقوس الغنوصية ونظيرتها الكاثوليكية لا تقتصر بأي حال من الأحوال على عدد الأسرار المقدسة. كما يشير إنجيل فيليب إلى تفاصيل

مشتركة أخرى - على سبيل المثال، الطابع الذي لا يمحى، أي التأثير الذي لا يمحى لبعض الأسرار المقدسة على النفس، فيما يتعلق بماء المعمودية:

> الله هو الصباغ. كما أن الأصباغ الجيدة، التي تسمى أصباغاً أصلية، تموت مع الأشياء التي تُصبغ بها، كذلك تموت مع الأشياء التي صبغها الله. وبما أن أصباغه خالدة، فإنها خالدة من خلال ألوانه. لكن الله يغمس ما يغمس في الماء. (القول 43)

وغني عن القول أن هناك أيضاً اختلافات بين الأسرار الكاثوليكية الحالية ونظائرها الغنوصية. إلا أن السياق الأوسع وروح الغنوصية يدفعان المرء إلى الاعتقاد بأن هذه الاختلافات كانت في درجة الإدراك الداخلي أكثر من كونها في الشكل الخارجي. بالنسبة للغنوصي، وخاصة الغنوصي الفالنتيني، كانت السمة المميزة للغنوص هي القدرة على تجربة الأسرار المقدسة بطبيعة المرء الروحية، بينما لا يستطيع المسيحي غير الغنوصي القيام بذلك إلا بطبيعته النفسية (المتعلقة بالنفس). على الرغم من أن الأسرار المقدسة للجماعات الغنوصية الأخرى ربما اختلفت بشكل جذري عن الأسرار الكاثوليكية، فإن المصادر الغنوصية الفالنتينية المتاحة لنا الآن تشير إلى أن الغنوصيين والكاثوليك استخدموا في كثير من الأحيان نفس الأسرار المقدسة، مع تجربتها **بطرق مختلفة**. إن المتعاطفين مع الغنوصية الذين لم يستطيعوا تصور أصل غنوصي للأسرار المقدسة بسبب تحيزاتهم ضد الأشكال الكاثوليكية، وأولئك المرتبطين بالتقاليد الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية الشرقية الذين يؤكدون أن الغنوصيين كانوا زنادقة متطرفين، يشعرون بالحيرة بنفس القدر إزاء هذه الأدلة المستقاة من أحدث اكتشافات الوثائق الغنوصية.

ما يُصوَّر للكاثوليكي التقليدي على أنه تدفق معجزي للنعمة الخارقة للطبيعة في الحياة الدنيوية، يبدو للغنوصي على أنه لغز نفسي داخلي متجذر في "pneuma"، أي "شرارة الألوهية الكامنة داخل اللاوعي الفردي". بينما يتم إنقاذ الكاثوليكي، يتم تنصيب الغنوصي، لكن الآلية السرية

متطابقة، أو شبه متطابقة، في كلا التقاليد. وهكذا نجد في إنجيل فيليب طقوسًا مبكرة تسمى المعمودية؛ وطقوسًا لاحقة تسمى المسحة المقدسة؛ وطقس تحول بالخبز والخمر يسمى الإفخارستيا؛ ثم طقس الفداء، ربما يرتبط بالتطهير النهائي والغفران من الخطايا الأرضية؛ وتتويجًا لسلسلة الأسرار المقدسة بأكملها، طقس السر الأسمى لغرفة العروس.

غرفة العروس: سر الأسرار

من بين جميع الأسرار الغنوصية، فإن سر غرفة العروس هو الأكثر غموضاً والأقل شهرة. لقد سعى المفسرون المعاصرون إلى اختزالها إلى شكل من أشكال الزواج، وهو أمر ليس مستبعداً فحسب، بل سخيف بشكل واضح. هذا الطقس، الذي أطلق عليه أسماء مختلفة، مثل سر الاقتران، والاتحاد البليروميكي، والأكثر شيوعاً غرفة العروس، يمكن فهمه مرة أخرى على المستوى النفسي الداخلي بدلاً من المستوى اللاهوتي. يُضفي هذا النمط من التفسير معنى على المقطع التالي في إنجيل فيليب، والذي يعرض أسطورة النشأة من حيث المؤسسة المتعالية لغرفة العروس:

> إذا سمحتم لي أن أفصح عن سرّ، فإن أبا الكل اتحد مع عذراء نزلت، وأشرقت له نار في ذلك اليوم. ثم كشف عن غرفة العروس الكبرى. ولهذا السبب خرج جسده الذي وُجد في ذلك اليوم من حجرة العروس، على غرار الذي وُجد من العريس والعروس. وهكذا أسس يسوع كل شيء فيه من خلال هؤلاء. ومن المناسب لكل واحد من التلاميذ أن يدخل في راحته. (القول 82)

لتقديم تفسير من وجهة نظر علم النفس العميق: يسوع، نموذج الأنا الفردية، النموذج الأصلي للكمال، كشف في وجوده عن اتحاد الاثنين في واحد. باعتباره

نموذجاً أصلياً ونموذجاً أولياً، فهو يجسد النموذج المثالي للخنثى الذي تم فيه تحقيق اتحاد الاقترانات. يجب على أتباعه أن يحذوا حذوه وأن يصبحوا كاملين أيضاً من خلال استيعاب صورتهم الجنسية المعاكسة. يجب على الرجال أن يتحدوا مع ذواتهم الأنثوية، وإلى أن يفعلوا ذلك، لا يمكنهم تجربة الصورة الجنسية المعاكسة إلا بشكل غير مباشر في امرأة؛ يجب على النساء أن يتزوجن من "عرسانهن السماويين"، نقيضهن الداخلي الذكوري، بطريقة مماثلة. وهكذا، فإن سر غرفة العروس هو في الواقع طقوس تأهيل تدل على التفرّد؛ الرمز العظيم لاستعادة البليروما، أو الكمال؛ *hieros gamos*، أو "الزواج المقدس"، للأضداد في الداخل؛ وبالتالي الوصول إلى الغنوص الحقيقي والنهائي. إن الرمزية النموذجية للمخلص باعتباره العريس؛ وصوفيا، النفس التائهة، باعتبارها العروس؛ وحالة الكمال، البليروما، باعتبارها غرفة الزفاف، في نظائرها الشخصية هي عملية التفرّد.

تدعم العديد من الأقوال في إنجيل فيليب الفهم النفسي لسرّ غرفة العروس. يقدم لنا مؤلف هذا الإنجيل سلسلة طويلة من الإشارات الصوفية والأسطورية إلى غرفة العروس، وكلها تشير إلى أن نتيجة الانفصال البدائي للأضداد (كما هو موضح في استخراج ضلع آدم في سفر التكوين) كانت بداية الموت، وأن الخلود يمكن تحقيقه من خلال لم شمل يمكن تشبيهه بإعادة امتصاص آدم لحواء. يتذكر المرء بقوة رمزية الخيمياء القديمة، في كل من أشكالها الغربية والصينية، حيث ينتج عن اتحاد الأضداد، في حالة واحدة، إكسير الحياة وحجر الفلاسفة، وفي الحالة الأخرى، الجنين الإلهي للخلود. فيما يتعلق بالأسرار الغنوصية، وكذلك أشكال أخرى من التعليم والممارسة الغنوصية، فإن علم النفس العميق، وخاصة كما علمه كارل يونغ، يقدم بلا شك نقطة دخول مفيدة بشكل فريد إلى السر الغنوصي. من المؤكد أن يونغ نفسه يبدو أنه كان لديه شعور حقيقي بالتجاوزية، كما يتضح من العديد من رؤاه. فعلى

سبيل المثال، ميز بين الصور النمطية في النفس والأنماط الأصلية بحد ذاتها، والتي تتجاوز النفس. لكن النموذج النفسي له حدوده الخاصة. أحد هذه المفاهيم هو أن نطاق النموذج يقتصر على النفس البشرية، وبالتالي فهو لا يتناول طبقات الواقع التي تقع وراء النفس.

لكن سيكون من الخطأ الفادح افتراض أن تجربة الغنوص والممارسات والتعاليم المختلفة المتعلقة بها ليست سوى علم نفس، لأنها أكثر من ذلك بكثير. لا يمكن للتفسير النفسي للأمور الغنوصية أن يأخذ المرء إلى أبعد من ذلك - وهو ما قد لا يكون كافياً.

يقول جي. فيلورامو في كتابه "تاريخ الغنوصية" بدقة: "الذات الغنوصية، والأنا الوجودية، والحقيقة التي تجعل المرء إلهيًا ... لا يجب تفسيرها ... من حيث إغراءات الذاتية السائدة حاليًا". لا يتم اكتشاف الذات الوجودية للغنوصي من خلال أعمال بسيطة من التأمل الداخلي، أو انطواء الوعي. يختتم فيلورامو (40) حديثه قائلًا:

> إن الطبيعة الذاتية لا تنتقص من الادعاء الميتافيزيقي بالموضوعية المطلقة، والذي يميل الغنوصي إلى نسبه إلى تجربته الأساسية. إن لحظات النشوة الرؤيوية التي تحدث فيها هي دائماً لقاءات مع واقع "آخر غيري"، مع "أنا" التجريبية، مع "أنا" العابرة. ويترتب على ذلك أن هذه الحقيقة الإلهية لا يمكن معرفتها من خلال القدرات العقلية العادية.

الأسرار المقدسة والنشوات

إن الطقوس السرية الموصوفة أو المشار إليها في إنجيل فيليب لا تمثل سوى أحدث حلقة في سلسلة طويلة من الأدلة التي تثبت الطابع الطقسي للغنوصية القديمة. تُعد مخطوطة بروس، التي حصل عليها جيمس بروس عام 1769 في طيبة، واحدة من أقدم الاكتشافات للنصوص الغنوصية الأساسية. في الرسالة الأكثر أهمية في هذه المخطوطة، وهي كتب جو، أو معرفة الإله غير

المرئي،

يوصف يسوع بأنه يمنح تلاميذه ثلاث معموديات (الماء والنار والهواء، أو الروح القدس)، وبعد ذلك يأتي سر إزالة شر حكام العالم السفلي، والذي يتبعه بدوره سر المسحة الروحية. بعد أداء هذه الأسرار المقدسة، يأتي صعود النفوس عبر أربعة وعشرين انبثاقًا من الله غير المرئي وعبر أيونات العالم المتعالي إلى الله العظيم غير المرئي نفسه. تم تقديم الأسماء والأرقام والرموز المصورة، بالإضافة إلى كلمات المرور والصيغ الخاصة بمختلف المجالات الأيونية وحراسها، والعديد منها على شكل تصميمات متقنة تشبه الماندالا. ومرة أخرى، تم ذكر خمسة أسرار مقدسة بشكل صريح، ويجب أن يصاحبها عملية تحول معقدة خطوة بخطوة.

تحتوي مخطوطة أسكيو، التي تُعرف غالبًا باسم بيستيس صوفيا نسبة إلى نصها الشهير، على قدر كبير من المواد الطقسية، بما في ذلك رسالة (كتابة فردية، يتم تجميع العديد منها في مخطوطة واحدة) تتناول حصريًا السحر والأسرار المقدسة، والتي أهملها العلماء. على سبيل المثال لا الحصر، فإن قصة عودة صوفيا، مع العديد من "التوبة" الموجهة إلى قوى حماية الأيونات، تشير بالتأكيد إلى دراما طقسية يمكن تمثيلها بسهولة في إطار طقسي. قد يكون صعود صوفيا المذكور هنا بمثابة طقس ديني بحد ذاته.

في مكتبة نجع حمادي، ذلك الكنز الحقيقي للنصوص الغنوصية، توجد ستة أطروحات رئيسية وعدة أطروحات ثانوية تحتوي في المقام الأول على مواد طقسية واحتفالية. ومن بين هذه الكتب، يتميز كتاب "الثامن يكشف التاسع" بأنه فريد من نوعه. على الرغم من أن المؤهل هنا هو كاهن هرمسي يُدعى باسم "الأب"، وأن المصطلحات المسيحية غائبة، إلا أن جوهر الرسالة يشبه إلى حد كبير الخطابات التأهيلية الأخرى التي تستخدم أسطورة يسوع. من الواضح تماماً أن النص يعكس حالات نفسية عميقة من النشوة، وبالتالي فهو سجل للتحول الروحي الفردي. المقطع التالي يتحدث

به المؤهل بعد أن يختبر تغيراً في الوعي ناتجاً عن دعاء سحري طويل ذي جمال شعري عظيم:

> كيف لي أن أصف الكل؟ أرى نوس آخر [العقل الروحي]، الذي يحرك النفس [النفس الدنيا]. أرى من يكلمني من خلال نوم مقدس. أنت تمنحني القوة. أرى نفسي. أنا مستعد للحوار! انتابني شعور بالارتجاف: لقد وجدت أصل القوة التي تفوق كل القوى والتي ليس لها أصل: أرى نبعًا يتدفق بالحياة! قلت يا بني، إني أنا النوس. لقد رأيت ما لا يستطيع الكلام أن يكشفه، فالثامن بأكمله يا بني، مع النفوس التي فيه والملائكة يغنون في صمت. لكنني، أنا النوس، أفهم.

يمكن العثور على الفكرة الرئيسية للنشوة المتعالية الواضحة في هذا المقطع في العديد من الأعمال الغنوصية الأخرى. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك "ترنيمة يسوع" الشهيرة، والتي تشكل جزءًا من أعمال يوحنا. كما

لاحظ جي. آر. إس. ميد، فإن النص ليس سردًا لكلمات يسوع ورسله وهم يرقصون حول سيدهم عشية اعتقاله ومحاكمته بقدر ما هو طقس، وربما خطاب تأهيل، يتم تنفيذه ربما مثل القربان المقدس، "في ذكرى له". وبالتالي فإن تجربة النشوة الموصوفة في سياق الرقص النشواني ليست مجرد سرد لحدث وقع مرة واحدة منذ زمن بعيد، بل هي شيء يمكن تكراره من قبل شخص طموح يسعى إلى أن يصبح غنوصياً. ماذا يعني كل هذا للباحث المعاصر عن الغنوص؟ إن سجلات الأسرار والطقوس في الوثائق الغنوصية القديمة توجه انتباهنا إلى ما وراء العقل الإدراكي، الذي يهتم بالعقيدة والفلسفة والصياغات النظرية للحقيقة، إلى واقع نفسي له صلة بالرمز والأسطورة والطقوس. لقد تعامل الغنوصيون، الذين يمثلون أول جهد داخل التقاليد المسيحية نحو التحول بدلاً من الإيمان والوصايا، مع هذا الواقع النفسي باستخدام جوازات السفر والشفرات المناسبة لطبيعته. تشير الأدلة إلى أن الكنيسة الظاهرية جمعت مجموعتها من الأسرار المقدسة من علماء النفس الصوفيين هؤلاء

وخبراء النشوة، على الرغم من أن هذا الدين ظل غير معترف به لما يقرب من ألفي عام. وهكذا، بينما نبحث في أعمال اللاهوتيين عبثاً في سعينا وراء الغنوص، قد نكتشف الكثير منها في الأسرار المسيحية التقليدية، التي تعبر، بشكل غير عقلاني وغير زمني ومن خلال وسائل نفسية مناسبة، عن نظام ذي صلة أبدية من التأكيدات المتماسكة حول الحقيقة المطلقة للأشياء.

كما أن الجمال يكمن في عين الناظر، كذلك تكمن الباطنية الحقيقية في فهم العارف. تُدرس تقنيات النشوة بفائدة ضئيلة؛ ولا تكشف عن قوتها التحويلية الحقيقية إلا ممارستها. كما هو الحال في "ترنيمة يسوع"، دُعي التلاميذ الغنوصيون للانضمام إلى الرقصة الدائرية الصوفية حول معلمهم، فإن الغنوصي الطموح اليوم مدعو إلى الممارسة الطقسية بدلاً من التنظير. لأن حقيقة وأهمية كلمات يسوع لا تزال حاضرة بيننا، ولن تتلاشى أبداً:

> الآن أجب عن رقصي! انظر إلى نفسك فيّ أنا المتكلم؛ وانظر إلى ما أفعله،
>
> واصمت عن أسراري. افهم، من خلال الرقص، ما أفعله...

من لا يرقص، لا يعلم ما سيحدث!

(ترنيمة يسوع)

الفصل الثامن

من السامرة إلى الإسكندرية:
بعض المعلمين الغنوصيين الأوائل

لو سأل أحدهم المعلمين الغنوصيين الأوائل عن أصول فلسفتهم، لكان من المرجح جداً أن يجيبوا بأنها أُعيد الكشف عنها بواسطة رسل إلهيين جاؤوا من الأيونات العليا ليجلبوا الحقيقة المحررة للبشرية. ومن بين الكاشفين ومن كانوا أدوات لهؤلاء الكاشفين، كانوا سيذكرون آدم، وشيث، ونوريا، وأخنوخ، ويسوع. على الرغم من أن هذه الروايات الأسطورية عن بدايات الغنوصية لا تصمد أمام تدقيق المؤرخين، إلا أن هذا لا يعني أنها لا تحتوي على نوع معين من الحقيقة. ففي كل عصر وفي كل ثقافة، كان هناك رجال ونساء أدركوا أنه بما أن مشاكل العالم لا يمكن حلها بشروطهم الخاصة، فإن المطلوب هو الحكمة من خارج العالم. ثم شرع هؤلاء الأشخاص في تنمية حالات وعي غير عادية وراقية لرفع مستوى إدراكهم إلى عوالم تتجاوز هذا العالم حيث يمكن العثور على مثل هذه الحكمة. وبهذا المعنى، فإن الرواية الأسطورية التي تعلن أن الغنوصية جاءت من خارج هذا العالم صحيحة. من الناحية التاريخية والجغرافية، تطورت الغنوصية

في نفس الوقت وفي نفس الأماكن التي تطورت فيها المسيحية المبكرة، والتي كانت ولا تزال متشابكة معها - فلسطين وسوريا والسامرة والأناضول، وفي وقت لاحق، مصر البطلمية. منذ فك رموز مخطوطات البحر الميت، أصبح من الواضح أن بعض عناصر التقاليد الغنوصية على الأقل تعود إلى الإسينيين. لقد تم التخلي إلى حد كبير عن نظرية بعض العلماء الذين نسبوا أصول الغنوصية إلى التأثيرات الإيرانية أو حتى الهندية. يُفترض الآن أن أراضي الروحانية في الشرق الأوسط - بما فيها من رؤى نهاية العالم وكشوفاتها، وحماستها المسيانية، ومجتمعاتها الصوفية والزاهدة - هي مهد الغنوصية.

سمعان الساحر، الغنوصي الطائر

إن أقدم نبي غنوصي معروف في التاريخ هو سمعان الساحر، أو باستخدام اسمه اللاتيني، سيمون ماجوس. ولد سمعان في جيتا، السامرة - وهو ظرف يجعله نوعًا من المهرطق بالولادة، لأن السامريين كانوا معروفين منذ فترة طويلة بأنهم أتباع شكل غير أرثوذكسي من اليهودية، والذي رفض الهيكل في أورشليم ومارس العبادة على جبل مقدس في السامرة. من المرجح جداً أن يكون سمعان تلميذاً ليوحنا المعمدان، الذي يبدو أنه ترأس مدرسة للأنبياء، وكان من بين "خريجيها" يسوع، وآخر هو سمعان نفسه. وربما كان هناك شخصية ثالثة من هذا القبيل، وهو دوسيثيوس أو دوستاي، الذي لا يُعرف عنه إلا القليل جدًا باستثناء أنه كان من أصل عربي.

المصادر المتاحة التي تخبرنا عن حياة وتعاليم سمعان قليلة. أقدم هذه الإشارات هي ذكر موجز وعدائي في سفر أعمال الرسل (أعمال 8: 9-12). في هذا المقطع، يُعجب سمعان، الذي اعتنق المسيحية وتعمد على يد الرسول فيليب، بالمعجزات التي أجراها الرسل ويقدم عرضًا لشراء هذه القوى الخارقة للطبيعة منهم. (مصطلح **"السموني"**،

الذي يشير إلى بيع المناصب الكنسية، يأتي من هذه القصة.) ويذكر الأب الكنسي يوستينوس أن سمعان كان له أتباع كثر في السامرة، حيث كان يعتبر كائناً إلهياً.

يقدم إيرينيئوس، الذي كان دائماً معارضاً لكل ما هو غنوصي، تقريراً مطولاً عن سمعان وهو تقرير مفيد إلى حد ما (ضد الهرطقات 1.23. 1-5)، ومن الواضح أن سمعان كان يطرح تعليماً غنوصياً مميزاً مع العديد من سمات الأنظمة الكونية الغنوصية اللاحقة والأكثر تفصيلاً. لقد علّم سمعان بوجود إله أسمى، موجود مسبقاً، ينبعث منه أول فكرة، وهي إينويا، ذات الطابع الأنثوي. إن إينويا مُقدَّر لها أن تصبح أم الجميع، وهي التي تخلق الملائكة ورؤساء الملائكة وفقًا لخطة الإله الأسمى. هي الشريكة البدائية لله الآب، ولكن من خلال دورها كخالقة تصبح أيضًا anima mundi نفس العالم. لكن بعض الملائكة ورؤساء الملائكة الذين خلقتهم انقلبوا عليها، وسجنوها، وأخضعوها للإهانات. بدافع الحسد والجهل، يرفضون الاعتراف بأمهم، وهم أيضاً غير مدركين لوجود إله أعلى منهم. بعد أن وقعت إينويا أسيرة للقوى التي ولّدتها بنفسها، أصبحت أخيراً محصورة في جسد بشري، وهو سجنها الأخير. في رحلة من جسد إلى آخر في سلسلة مؤلمة من التناسخات، تتجسد في صورة هيلين الطروادية، المرأة النموذجية في التراث اليوناني الروماني وسبب أعظم حرب في جميع الأساطير القديمة. وأخيراً، يرسل الإله الأعلى جانباً من ذاته إلى التجسد لإنقاذها.

من السهل التعرف في هذه القصة على بدايات أسطورة صوفيا. على الرغم من عدم ذكر أي ديميورج بعينه، إلا أن الملائكة الشريرة تشبه بوضوح الديميورج وأركوناته. يبدو أن سمعان قد أدرج يسوع في علم الخلاص الخاص به، لأن أتباع سمعان كانوا يعتقدون أن الله الموجود مسبقًا أرسل ابنه أولاً إلى الأرض في صورة يسوع؛ وفي وقت لاحق ظهر في جانب آخر في السامرة باسم سمعان، بينما نزل كروح القدس

في العديد من الأمم الأخرى. وبالتالي فإن مفهوم الثالوث حاضر بوضوح في هذه الأسطورة الغنوصية المبكرة.

قام آباء الكنيسة، كعادتهم، بإدخال لمسة مثيرة **للشهوة** في رواياتهم عن سمعان. ويقولون إن سمعان اكتشف عاهرة تدعى هيلين أصبحت رفيقته، وأنه أعلن أنها تجسيد لهيلين طروادة، بينما رفع نفسه إلى مرتبة مظهر من مظاهر القوة العظمى، الإله الموجود قبل الوجود. بما أن حوادث "تجسيد" الأساطير الروحية في حياة الأشخاص ذوي النبوة ليست غريبة، فقد يكون هناك بذرة من الحقيقة هنا، حتى لو تم سردها بصوت منتقدي سمعان. على أي حال، أصبح سمعان وهيلين الأسطورية نموذجًا للزوجين الغنوصيين المثاليين، وإنقاذه لهيلين هو أصل أسطورة فاوست، كما أعاد سردها مارلو وغوته (*Faustus*، بمعنى "المحظوظ"، أحد ألقاب سمعان التكريمية).

يُظهر هيكل ما يسمى بالأسطورة السمعانية عناصر لا لبس فيها من الأسطورة الأحادية الغنوصية: انقسام وحدة ذكورية أنثوية موجودة مسبقًا؛ وانحدار واغتراب المبدأ الأنثوي، الذي يتمثل دوره في خلق خالقي العالم المادي؛ وسقوط الأنوثة في **حالة** من السجن والانحطاط؛ ومجيء محرر أو مخلص إما أن يكون هو الإله الموجود مسبقًا نفسه أو يمثل جانبًا متجسدًا منه. إن قصة سمعان وهيلين تثير مشاعر قوية في النفس لأنها تبدو وكأنها ترمز إلى قصة النفس التي سقطت في اللاوعي والجهل. يتحد جمال الأنوثة الأبدية والقوة السحرية لنظيرها الذكر ومحررها لتقديم أسطورة كان من المقدر لها أن تلهم الشعراء والمسرحيين لأجيال قادمة.

كتب سمعان الساحر عدداً من الرسائل التي حظيت بتقدير كبير من قبل أتباعه ولكنها ضاعت منا. اثنان من هذه الكتب هما "أرباع العالم الأربعة" و"مواعظ المُردد"، حيث يُكشف فيهما إله العهد القديم على أنه مُدّعٍ وأن أفعى

الفردوس شخصية خيرة. ويبدو أن سمعان قد تبنى أيضاً شكلاً من أشكال فلسفة "فلاسفة النار" في اليونان، ولا سيما فلسفة هِرَقْليطُس، حيث قدم عنصر النار باعتباره التجسيد العالمي للروح الإلهية.

إحدى أكثر السمات إثارة للاهتمام في شخصية سمعان - وهي قدرته على الطيران - تظهر في الأساطير المتعلقة به في مصادر مثل أعمال بطرس المنحولة ورسالة كليمنتية مزيفة. في بعض القصص، التي تقلل من شأن هذه القوة، يستخدم سمعان الطيران فقط لنقل نفسه من مكان إلى آخر (مثل الانتقال من فلسطين إلى روما). وفي حالات أخرى، تتخذ رحلات سمعان طابعاً أكثر غموضاً. أحد هذه الأمثلة موجود في مقطع غامض اقتبسته العالمة الباطنية العظيمة والمتعاطفة مع الغنوصية، هـ. ب. بلافاتسكي:

> وضع سمعان وجهه على الأرض وهمس في أذن الأرض: "يا أمنا الأرض، أرجوكِ أعطيني بعضاً من أنفاسكِ، وسأعطيكِ أنفاسي؛ دعيني أنطلق يا أمي، حتى أحمل كلماتكِ إلى النجوم، وسأعود إليكِ بأمانة بعد حين". والأرض، التي عززت مكانتها، دون أن يضرها شيء، أرسلت عبقريتها لتنفخ من أنفاسها على سمعان، بينما كان هو ينفخ عليها، وفرحت النجوم بزيارة العظيم. [كشف النقاب عن إيزيس، 1: 23)

إن قوة الطيران كقدرة سحرية روحية ليست مجهولة بالتأكيد. تصف المصادر الهندية القديمة ثمانية قوى خارقة للطبيعة، أو ما يُعرف باسم "سيدهي"، والتي يمكن اكتسابها من خلال اليوغا. أما السادس من هذه فهو "الطيران في السماء"، والذي يشير على ما يبدو إلى طيران النفس. في أساطير السحر في القرن التاسع عشر، لعب مفهوم الجسد النجمي كوسيلة للوعي، القادر على "السفر" بمعزل عن الجسد، دورًا كبيرًا. مجازياً، يمثل الطيران حرية النفس و الروح من القيود الجسدية. في الرؤية الغنوصية، فإن حرية الارتقاء إلى النجوم وما وراءها هي نتيجة لحالة وعي غير عادية ناتجة عن الغنوص. وبالتالي فإن لقب سمعان بـ "الغنوصي الطائر" يشهد على دوره كممثل مبكر للغنوصية.

لوسيوس شارينوس، المؤرخ الغنوصي

يُعدّ لوسيوس شارينوس شخصية غامضة وجميلة بين المعلمين الغنوصيين الأوائل، وقد أعلنت التقاليد أنه كان تلميذاً شخصياً للقديس يوحنا، الإنجيلي والتلميذ الحبيب. كما يعتبر مؤلفًا، أو بالأحرى مؤرخًا، للأعمال الرسولية الخمسة ـ أعمال بطرس، وأعمال أندراوس، وأعمال فيليب، وأعمال يوحنا، وأعمال توما، والتي حظيت بشعبية واسعة في العالم المسيحي لعدة قرون. كانت هناك العديد من النصوص المقدسة المتداولة في العصور المسيحية المبكرة والتي كانت تسمى أعمال الرسل. كان هذا النوع الأدبي أشبه برواية تاريخية مقدسة تروي مغامرات تلاميذ يسوع الأوائل، والتي غالباً ما تكون مزينة بشكل كبير. أما أعمال الرسل الخمسة المنسوبة إلى لوسيوس شارينوس، فقد كانت غنوصية على وجه التحديد، ومصممة لنشر المعلومات المتعلقة بالطابع الغنوصي ليسوع وتعاليم الرسل.

من المحتمل جداً أن تكون جميع هذه النصوص الخمسة ذات محتوى غنوصي للغاية في الأصل، ولكن تم تغييرها لاحقاً لتعكس الموقف الأرثوذكسي. ومن بينها، تعتبر أعمال يوحنا وأعمال توما الأكثر أهمية، وهي أيضاً التي تمكنت من الاحتفاظ بعدد كبير من فصول المحتوى الغنوصي. بعد انتشارها الواسع في البداية بين المسيحيين من جميع التوجهات، ظلت هذه الأعمال جزءًا من القانون الكتابي للعديد من الجماعات الغنوصية، ولا سيما الديانة المانوية العظيمة، وعلى الأرجح أيضًا كنائس الكاثار في العصور الوسطى. تتضمن المقاطع الجميلة من سفر أعمال يوحنا رؤية يوحنا لصلب يسوع (التي أطلق عليها أحد مترجميها، جي. آر. إس. ميد، عنوان "صلب شبحي") و"ترنيمة يسوع" الشهيرة، التي تروي رقصة يسوع مع رسله عشية الصلب. يحتوي كتاب أعمال توما على "ترنيمة اللؤلؤة" الجميلة للغاية (والتي تسمى أحيانًا أيضًا "ترنيمة رداء المجد")، والتي تنسب إلى الرسول توما.

يبدو أن لوسيوس شارينوس كان شابًا في أوائل العشرينات

من عمره عندما جلس عند قدمي القديس يوحنا المسن، الذي نقل إليه العديد من رؤاه العظيمة وتجاربه الغنوصية، إلى جانب تفاصيل أقل شهرة عن حياة الرسل الآخرين. كتب لوسيوس أعمال الرسل الخمسة على الأرجح حوالي عام 130 ميلادي، بعد عدة عقود من وفاة القديس يوحنا. لا نعرف الكثير عن حياة لوسيوس، لكن مكانته مضمونة بين المعلمين الأوائل للغنوصية.

ميناندر وساتورنينوس ومنعموس

ربما يكون المعلم الغنوصي ميناندر، وهو أيضاً من مواليد السامرة، قد تلقى التأهيل على يد سمعان. يبدو أنه عاش في العصر الرسولي، وبالتالي كان معاصراً لسمعان والرسل. كان مركز نشاطه مدينة أنطاكية القديمة، حيث أسس القديس بطرس الرسول المجتمع المسيحي. ويبدو أن تعاليمه كانت غنوصية حقيقية، لأنه هو أيضاً علّم الفرق بين الإله الأعلى والإله الأدنى الذي خلق العالم المادي.

ومثل سمعان، كان ميناندر يتمتع بسمعة الساحر، ومن ذلك يمكننا أن نفهم أنه، على عكس الأرثوذكس، لم يدعو إلى الخلاص بالإيمان بل بالغنوص. علاوة على ذلك، كان من المفترض أن يتم استقبال الغنوص كنتيجة لممارسات محددة. لقد علّم ميناندر معرفة قوى الطبيعة وطرق تطهيرها واستخدامها من قبل الإرادة الإنسانية الروحية. يشير عالم الهرطقات جاستن إلى أن ميناندر جمع أتباعًا كثرًا عاشوا بعده واستمروا في الازدهار في آسيا الصغرى.

ويذكر جاستن أيضًا أن ميناندر كان لديه تلميذ مشهور يدعى ساتورنينوس (أو ساتورنيلوس) عاش في وقت ما قرب نهاية القرن الأول. يخبرنا إيرينيئوس أن ساتورنينوس قام أيضاً بتعليم الأب المجهول الموجود مسبقاً، وأنه بشر بالتسلسلات الهرمية الوسيطة العظيمة، بما في ذلك الحكام السبعة للأفلاك والآلهة الصغرى

التي خلقت العالم المادي، والذي يشمل الجانب المادي للبشرية. بحسب ساتورنينوس، فإن القوى المظلمة والإبداعية قد دمجت شرارات النور الإلهي، ومن بينها أرواح البشر. المخلص، الذي يأتي في صورة رجل، يهزم قوى الظلام ويحرر شرارات النور من سجنها.

نجد في تعاليم ساتورنينوس أيضاً قصة غنوصية مبكرة عن خلق البشر تشبه بعض الروايات الأكثر تعقيداً في مختلف النصوص الغنوصية اللاحقة. يرى الخالقون الديميورجيون شكلاً لامعاً في السماء ويحاولون نسخه قائلين: "دعونا نصنع الإنسان على هذه الصورة والشبه". لكن جهودهم لم تكن كافية، فمع أن خلقهم يشبه إلى حد ما الشكل السماوي، إلا أنه بلا قوة ولا يستطيع أن ينهض من الأرض. ثم ترسل القوة العليا شرارة حياتها الخاصة لتمنح الروح للكائن المخلوق. (في روايات لاحقة، يتم هذا الإضفاء للروح بواسطة صوفيا الإلهية.)

عاش منعموس، الذي ذكره علماء الهرطقة هيبوليتوس وثيودوريت، في الجزء الأخير من القرن الثاني. يبدو أن تعاليمه قد تضمنت عناصر ربما أطلق عليها لاحقاً اسم الثيوصوفية، لأنها تناولت دور الأرقام والأشكال الهندسية في علم الكونيات وعلم نشأة الكونيات الغنوصي. لقد علّم أن الإنسان السماوي *(أنثروبوس)* وابن الإنسان السماوي كانا نموذجين أصليين للإنسانية الكاملة، لأن البشر قد خُلقوا على صورتهما، ولكن بطريقة خاطئة.

إن التركيز الغنوصي المتكرر على الجانب النفسي الداخلي واضح في تعليمات منعموس حول كيفية البحث عن الله، والتي كتبها في رسالة إلى صديق:

> كفّ عن البحث عن الله في المخلوقات، مثل الكون وما شابهه؛ ابحث عنه في داخلك، وتعرّف على من هو، الذي يشمل كل شيء في داخله دائمًا، قائلاً: "إلهي، عقلي، منطقي، روحي، جسدي". وتعلم من أين يأتي الحزن والفرح، والحب والكراهية، والسهر رغماً عن الإرادة، والنوم رغماً عن الإرادة،

والوقوع في الحب رغماً عن الإرادة. وإذا دققت النظر في هذا الأمر، ستجده في نفسك، واحدًا وكثيرًا، كالذرة؛ وهكذا ستجد من خلال نفسك مخرجًا من نفسك. (ترجمة بلوم، بشائر الألفية 240)

إن النهاية المتناقضة إلى حد ما لهذا المقطع تحمل المفتاح:

يتجاوز المرء نفسه من خلال الغنوص، التي يجده المرء داخل نفسه.

كاربوقراطيس وألكسندرا المثيرتان للجدل

معظم الحركات، سواء كانت سياسية أو دينية أو فنية، مصممة على ترك بصمتها بطريقة أو بأخرى على هذا العالم. ترك الفراعنة مسلات عظيمة نُقشت عليها أسماؤهم وأعمالهم، ونُقشت أسماء أباطرة روما وباباواتها على كل نصب تذكاري، كبيرها وصغيرها. حتى المسيحية الأرثوذكسية لم تتوقف قط عن تصور "سماء جديدة وأرض جديدة". لكن الغنوصيين كانوا أكثر اهتماماً بالخروج من مجرى التاريخ الرهيب من اهتمامهم بترك سجل تاريخي لأنفسهم. إن أولئك الذين يصرون على التغلب على العالم ليسوا هم أهل التاريخ؛ فمن المرجح أن يكون تاريخهم نوعاً من التاريخ الخفي أو التاريخ المضاد، يحتوي على بعض الآثار الخافتة لوجودهم الهش والمتردد. يكتب جاك لاكارير أنه يمكن للمرء أن يلاحق الغنوصيين، لكن لا يمكنه أن يمسك بهم. وينطبق هذا بشكل خاص على الظروف المادية لحياتهم الأرضية، وبالتالي على سلوكياتهم وأخلاقهم.

كانت فلسطين والسامرة وسوريا وأنطاكية من أوائل معاقل الغنوصيين، ولكن في مصر ازدهرت الغنوصية إلى أقصى حد. لم تكن مصر الغنوصية هي مصر الفراعنة القدماء - ذات الأهرامات الكئيبة والآلهة المهيبة ذات رؤوس الحيوانات. بل كانت هذه مصر حيث اتحدت روح اليونان وروما مع روح أرض النيل؛ وكان نسل هذا الزواج

هو مصر الهلنستية، ولا سيما الإسكندرية، مدينة الإسكندر. في هذه المدينة، الأكثر تنوعًا وإثارة في ذلك الوقت، أو ربما في أي وقت مضى - والتي لا تختلف كثيرًا عن المدن الكبرى في ثقافتنا الدنيوية والعلمانية - لم يكن هناك سوى القليل ممن اهتموا بالمحرمات التي فرضها إله الصحراء التوحيدي لدى الساميين على الجنس والنظام الغذائي والسلوكيات الأخرى. من المرجح جداً أن الغنوصيين في الإسكندرية كانوا يشاركون ميول عصرهم ومكانهم. (بل ربما رحبوا أكثر بهذه الروح المتساهلة والعالمية، لأنهم كانوا يكرهون إله العبرانيين وشرائعه).

تُعد هذه المعلومات حول الإسكندرية في القرون الأولى بعد المسيح خلفية مفيدة لفهم المعلمين الغنوصيين المؤثرين والمتطورين والمثيرين للجدل، كاربوقراطيس وزوجته ألكسندرا. ولد هربوقراطيس في اليونان، في جزيرة كيفالونيا، وانتقل إلى الإسكندرية في وقت مبكر من حياته. يُعتقد أنه في تعاليمه



الشكل7: جوهرة غنوصية، تعود إلى القرن الثالث الميلادي تقريبًا، تُصوّر هربوقراطيس، إلهًا مصريًا يرمز إلى السرية. يجلس هربوقراطيس على عرش من زهرة اللوتس ويشير إلى شفتيه، دلالةً على الصمت. يرمز قرده المرافق إلى الطبيعة الغريزية. وتحيط بالشخصيتين "كلمات بربرية"، يُقصد بها الصلوات.

اتبع تعاليم أفلاطون بشكل أكثر دقة من غيره من المعلمين الغنوصيين البارزين في تلك الفترة. ترأس هو وزوجته الجميلة حلقة غنوصية وجمعا عدداً كبيراً من التلاميذ. كتب العديد من علماء الهرطقة عنهم بعبارات نقدية. المصدر الرئيسي هو إيرينيئوس، الذي استقى منه ترتليان وهيبوليتوس وإبيفانيوس معلوماتهم - أو معلوماتهم الخاطئة.

كان كاربوقراطيس وألكسندرا مسيحيين أفلاطونيين ذوي نزعة غنوصية. لقد علّموا هم أيضاً أن العالم قد بُني بواسطة وكالات إبداعية أدنى. كان يسوع واحداً من البشر القلائل الذين تذكروا بوضوح أصولهم مع الإله الذي لا يوصف، عندما كان يدور سابقاً حول الشمس الإلهية. إن قدرة يسوع على الذاكرة البعيدة مكنته من تلقي قوى ونعم عظيمة من الألوهية التي لا توصف، حتى يتمكن من الصعود من عوالم الحكام، مروراً بكل واحد منهم، والعودة في النهاية إلى الأب الأعلى. أخذ هربوقراطيس وأتباعه كلمات يسوع بعين الاعتبار، وهي أن البشر الآخرين سيفعلون أشياء أعظم مما فعله. أي أن جميع النفوس التي تحرر نفسها من قيود الآلهة الدنيا ستكون قادرة على الارتقاء إلى أعلى على غرار يسوع وتحقيق نفس النوع من الغنوص المحرر الذي حققه.

يبدو أن التناسخ كان سمة مهمة في تعاليم مدرسة هربوقراطيس. (يرى البعض أن التناسخ مضمن في تعاليم جميع المدارس الغنوصية؛ إلا أنه صريح في تعاليم كاربوقراطيس.) عندما نستخرج التعليق اللاذع الذي أرفقه إيرينيئوس بهذا التعليم، نحصل على صورة مثيرة للاهتمام للمفهوم الغنوصي للتناسخ. تولد الروح على الأرض مراراً وتكراراً لأنها لم تتحرر بعد من قيود القوى الخارقة للطبيعة التي تبني العالم. لكي يكتسب الإنسان الاستقلال عن هذه القوى، يجب أن يمر بكل أنواع النشاط والظروف. وهكذا، من خلال التعرف على كل ما يقدمه الوجود الأرضي، يصبح الوعي غير مفتون بجاذبية هذا العالم السفلي. باستخدام الصور البوذية، فإن "عطش" تجسد النفس

يتلاشى تدريجياً. هذا هو الشرط المسبق الضروري للتحرير.

يشير إيرينيئوس إلى أنه، وفقًا لأتباع هربوقراطيس، يمكن للغنوصي أن ينهي هذه العملية في حياة واحدة، مما يجعل التناسخات اللاحقة غير ضرورية. ربما كان إيرينيئوس يستقي معلوماته من مخطوطة لمدرسة هربوقراطيس، وبالتالي تمكن من اقتباس القول المأثور "اتفق مع خصمك بسرعة"، إلى جانب التعليق "لئلا يلقي الخصم النفس في السجن مرة أخرى". يتوافق هذا التفسير مع العديد من **المقاطع** في كتاب بيستيس صوفيا التي يبدو أنها تدعو إلى استراتيجية مماثلة لإنهاء التناسخ. إلا أن تفسير إيرينيئوس لهذا التعليم لا يقل عن كونه سخيفاً؛ فهو يقول إنه بما أن التحرر يتطلب المرور بجميع أنواع التجارب، فقد كان على أتباع هربوقراطيس ارتكاب كل عمل شنيع ومروع ممكن من أجل التحرر من هذه الأعمال وبالتالي من العالم!

وعلّق جي. آر. إس. ميد، المترجم العظيم للنصوص الغنوصية والهرمسية، على هذه الفكرة قائلاً:

> لكن إيرينيئوس يضيف بعد ذلك مباشرة أنه لا يعتقد أن الكاربوقراطيين يفعلون مثل هذه الأشياء بالفعل، على الرغم من أنه مضطر إلى استنتاج مثل هذه النتيجة المنطقية من كتبهم. ومع ذلك، من الواضح أن النتيجة السخيفة بأكملها تعود بالكامل إلى غباء أسقف ليون، الذي بدأ بمقدمات خاطئة تمامًا بسبب عدم قدرته على فهم أبسط الحقائق المتعلقة بعقيدة التناسخ، على الرغم من أن الأمر كان واضحًا وضوح الشمس بالنسبة للمبتدئين في الغنوصية. [شظايا من إيمان منسي 297]

يقال إن مدرسة كاربوقراطيس كانت تفضل النساء في المناصب القيادية. بالإضافة إلى ألكسندرا، نعرف عن مارسيلينا التي أصبحت ممثلة المدرسة في روما حوالي عام 150 ميلادي. استخدمت المدرسة الصور والتماثيل في احتفالاتها، وبطريقة مسكونية فريدة من نوعها، من أجل الكاربوقراطيين

تضمنت الرموز تمثيلات لفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو. كما ورد أن هذه المدرسة كانت تمتلك ما قد يكون بالفعل الصورة الحقيقية الوحيدة ليسوع. يروي كليمنت الإسكندري أن أتباع هربوقراطيس كانوا يحملون تمثال كوري (العذراء، وهو اسم لبرسيفوني) في موكب من سرداب تحت الأرض إلى قاعة عبادتهم في ليلة عيد الغطاس. (إذا صح ذلك، فهذا يشير إلى إدراك أوجه التشابه النموذجية بين بيرسيفوني ويسوع على نحو متطور للغاية.) كان يونغ يُعجب بالكاربوقراطيين لما اعتبره بصيرة نفسية لديهم؛ إذ ورد أن كاربوقراطيس عدّل الوصية الكتابية بعدم الاقتراب من مذبح الرب إذا كان لدى المرء شيء ضد أخيه لتصبح "لا تقترب من المذبح إذا كان لديك شيء ضد نفسك". وبحسب بعض التقارير - التي تعتبر غير موثوقة للغاية من قبل الباحثين - كان لدى هربوقراطيس وألكسندرا ابن يدعى إبيفانيس، والذي توفي في سن مبكرة وكان يعتبر كائناً إلهياً.

كيف ينبغي لنا أن ننظر إلى اتهامات الانحلال الأخلاقي الموجهة ضد هربوقراطيس وأتباعه من قبل منتقديهم الأرثوذكس؟ أولاً وقبل كل شيء، لطالما كانت اتهامات الخطيئة الجنسية، ولا تزال، وسيلة مفضلة لتشويه سمعة الخصوم السياسيين أو الدينيين أو غيرهم. ثانياً، ليس هناك سبب للاعتقاد بأن مدرسة الغنوصيين بقيادة اليونانيين والتي كانت تعمل في مصر كانت مرتبطة بشكل خاص بالشريعة الموسوية فيما يتعلق بالجنس. من المرجح جداً أن الغنوصيين الإسكندريين كانوا أشخاصاً متحضرين ومتحررين ذوي توجه فكري وفني، عاشوا حياتهم وفقاً للمعايير المتساهلة لثقافتهم. قارن بحقيقة أن المعارضين الوثنيين للمسيحية روجوا لقصص مرعبة عن "طقوس المسيحيين البغيضة"، والتي تضمنت، وفقًا لهذه المصادر، قتل الأطفال الرضع وأكل الأطفال في الطقوس، بالإضافة إلى عبادة رجل برأس حمار. هل تختلف هذه الاتهامات عن تلك التي وجهها إيرينيئوس ورفاقه ضد الغنوصيين الكاربوقراطيين، متهمين إياهم بممارسة الجنس

الجماعي، بالإضافة إلى التعاويذ السحرية، وجرعات الحب، وولائم الحب *(أغابي)*، واستحضار أرواح الموتى، وتفسير الأحلام بمساعدة الأرواح، وأنواع أخرى من السحر؟

إذا كانت الممارسات السحرية المختلفة تشكل بالفعل جزءًا من مناهج هربوقراطيس وألكسندرا، فإنها لم تكن أكثر من مجرد ملحقات لعقائدهم. عندما يتحرر الغنوصي المتطور روحياً (المتطور روحياً بالكامل) من قيود الأرواح الأدنى، تصبح هذه الكيانات خاضعة للغنوصي. تعتمد كل أنواع السحر على قدرة الوعي المستنير على اختراق حواجز العوالم السفلى والسيطرة على حراس بوابات الكون. لكن أعظم سحر لدى الغنوصيين كان دائماً التحرر من الانحصار في مناطق المادة والعقل.

برديسان من الرها: **رجل الدولة الغنوصي**

وينتمي إلى فترة لاحقة نوعاً ما برديسان، أو برديسانس، وهو نبيل سوري وفيلسوف ومستشار للملوك. ولد في مدينة الرها الملكية في 11 يوليو 155 ميلادي، وتوفي هناك عام 233، وقد عاش حياة طويلة مليئة بالشرف. كان من المقربين لسلالة أبجر في الرها، وقد صادق ولي عهدها في وقت مبكر من حياته. عندما اعتلى الأمير العرش، وقف برديسان إلى جانبه كمستشار له. ومثل ماني بعد جيل، قام بارديسان بتحويل ملكه، ومعه جزء كبير من المملكة، إلى دينه، الذي كان شكلاً غنوصياً من المسيحية. من المرجح أن تكون الرها أول دولة مسيحية، والدولة الغنوصية الوحيدة، في التاريخ. بعد بضعة عقود، جرد الإمبراطور الروماني كاراكلا ملك أبجر من عرشه. دافع بارديسان ببلاغة عن الدين المسيحي أمام السلطات الرومانية، حتى أن إبيفانيوس المعادي اضطر إلى الإشارة إليه بأنه "شبه معترف".

كان بارديسان رجلاً ذا ثقافة وعلم عظيمين. سافر إلى

أرمينيا، حيث ساهم في الأدب المسيحي المحلي. كان على دراية أيضاً بدين الهند، وقد كتب كتاباً عنه، اقتبس منه الفيلسوف الأفلاطوني المحدث فَرفوريوس لاحقاً. حصل برديسان على سمعة عالية مستحقة ككاتب في المعرفة المسيحية؛ وبصفته أستاذاً في الأسلوب والبلاغة اليونانية، فقد كتب العديد من الكتب باللغة اليونانية، وكذلك باللغة السريانية، وكلها بأسلوب شعري وملهم. توجد قائمة ببعض كتبه على الأقل، وتشمل عناوين مثل النور والظلام، و**الطبيعة** الروحية للحقيقة، والمستقر وغير المستقر، وموضوع القدر. لسوء الحظ، لم يتبق من هذه الأعمال سوى أجزاء متفرقة. في القرن التاسع عشر ظهرت رسالة كاملة بعنوان كتاب قوانين البلدان، وهو ملخص لتعاليم برديسان. يُعرف بارديسان أيضًا بأنه مبتكر النوع المسيحي من الترانيم، أي الشعر الديني الذي يتم تلحينه وغنائه أثناء الصلوات الكنسية. قام بتأليف مجموعة من 150 ترنيمة كُتبت على غرار المزامير التوراتية. وكان ابنه، الذي يحمل اسم هارمونيوس، هو المحرر والملحن المشارك له. بعد مئة وعشرين عامًا، قام المسيحي الأرثوذكسي إفرايم من الرها بسرقة الكثير من ترانيم برديسان، وفي الوقت نفسه كان يدينه باعتباره هرطقيًا.

يبدو أن تعاليم برديسان لم تكن تعتبر هرطقة بشكل خاص خلال حياته. من المفيد أن نتذكر أن معايير الأرثوذكسية لم تكن موجودة تقريبًا خلال المئتي عام الأولى أو أكثر من التاريخ المسيحي. كانت الكنيسة المسيحية عبارة عن مجموعة فضفاضة من المجتمعات التي تمتلك تنوعًا واسعًا في المعتقدات والممارسات، ولم يكن بينها قواسم مشتركة أكثر من احترام يسوع ورسالته. لولا تحول مسار السياسة الكنسية إلى توحيد صارم، لكان من الممكن أن يدخل برديسان التاريخ كقديس، أو على الأقل كقائد ومعلم مسيحي موهوب ومتفانٍ للغاية.

يُظهر ملخص تعاليم بارديسان في كتاب قوانين البلاد سمات مميزة للغنوصية الكلاسيكية. يتكون الإنسان من جسد ونفس وروح. الجسد نتاج

للعالم المادي. تتلون النفس بالصفات النفسية التي تفرضها عليها أفلاك الكواكب، والتي من خلالها تنزل إلى التجسد. لذا فإن علم التنجيم مهم في فهم مصير الإنسان على الأرض. الروح هي العنصر الإلهي الذي يربط الإنسان بالله. بما أن الكون يتميز بتعارض المادة والروح، فكذلك على المستوى البشري يوجد صراع بين القدر والجوهر الإنساني.

كان بارديسان معارضاً للتعليم المسيحي المتعلق بقيامة الجسد. من وجهة نظره، يعود الجسم المادي إلى المادة. أما النفس، من ناحية أخرى، فلها نوع من الخلود المشروط، لأنه بعد أن تتخلص من تراكماتها النفسية، التي جمعتها من الحياة الأرضية ومن الكواكب، فإنها تتحد مع الروح وتدخل غرفة النور الزوجية. قبل زمن يسوع المسيح، كان عودة النفس إلى الله أمراً مستحيلاً. لكن المسيح، من خلال تعاليمه وأسراره، أزال العوائق التي كانت ملتصقة بالنفوس منذ تجسد آدم، والآن أصبح التحرر من العبودية الأرضية أمراً ممكناً.

يُعتبر بارديسان من نواحٍ عديدة شخصية محورية لما أصبح يُعرف فيما بعد بمدرسة القديس توما المسيحية. وتقول التقاليد إن القديس توما الرسول كان أول من جلب المسيحية إلى سوريا، ويعتبر مؤسسًا وشفيعًا للكنيسة السريانية الأرثوذكسية في كل من الشرق الأوسط والهند. كان برديسان أيضاً أول زعيم علني للمسيحية في سوريا، بل إنه ساهم في تأسيس المسيحية كدين رسمي للدولة هناك. وهكذا تبقى مدرسة القديس توما المسيحية مرتبطة ببارديسان، على الرغم من أن هذه الصلة غير معترف بها إلى حد كبير في الأوساط الكنسية. إن إنجيل توما من مجموعة نجع حمادي هو بلا شك ذو أصل مسيحي سوري وغنوصي. وينطبق الشيء نفسه على الكتب الأخرى التي تشير إلى توما، مثل كتاب توما المناضل، وعلى وجه الخصوص أعمال توما المنسوبة إلى لوسيوس شارينوس.

يعتقد بعض العلماء أن أجزاء من أعمال توما ربما تكون قد كُتبت بواسطة بارديسان. ومن بين هذه الأعمال أغنية "ترنيمة اللؤلؤة" الشهيرة. تظهر التعاليم الرئيسية الثلاثة لبرديسان، والتي يشير إليها أفريم الأرثوذكسي على أنها هرطقة، في "ترنيمة اللؤلؤة". جزء آخر من أعمال الرسل يظهر تقاربًا كبيرًا مع فكر برديسان هو القصيدة الجميلة المسماة "ترنيمة الزفاف" (التي ترجمها ميد باسم "أغنية زفاف الحكمة")، والتي تشير بوضوح إلى الزفاف السماوي في حجرة النور العروسية، والتي كتب عنها برديسان.

يبقى السؤال مطروحاً: هل قام بارديسان أو تلاميذه بإقحام هذه القطع الشعرية وغيرها في أعمال توما، أم أن بارديسان تلقى العديد من تعاليمه الغنوصية من مدرسة توما؟ وبالنظر إلى صورة توما باعتباره الرسول الغنوصي بامتياز والتي تظهر من مجموعة نجع حمادي، فإن الاحتمال الأخير يبدو أكثر ترجيحاً.

الفصل التاسع

أصحاب الرؤى والأنبياء: كبار أساتذة الغنوص

كان عالم الاجتماع ماكس فيبر هو من روّج للكلمتين الشائعتين الآن: الكاريزما والقوة الكاريزمية. كان يشير إلى الأشخاص المتميزين في مختلف المجالات، وخاصة المجال الديني، الذين يبدو أنهم يمتلكون قوة تجذب الآخرين وتقنعهم وتنير عقولهم. ومن الأمثلة البارزة في التاريخ الديني الأمريكي النبي المورموني جوزيف سميث، الذي كتب عنه هارولد بلوم أنه لم يكن يرى رؤى فحسب (وهو أمر شائع إلى حد ما)، بل كان لديه أيضًا القدرة على جعل الآخرين يرون رؤاه. وبناءً على هذه التعريفات، كان أعظم معلمي وقادة الغنوصية بلا شك قادة يتمتعون بالكاريزما. تتنوع الرؤى، وكذلك التصورات والأقوال النبوية. معظم الناس في أي عصر يسعون وراء مثل هذه التجارب يفعلون ذلك لأسباب شخصية، وهكذا كان الحال أيضاً في زمن الغنوصيين. إن الكثير من السحر اليوناني المصري موجه نحو غايات دنيوية - فوائد مادية، مثل شفاء الجسد، واكتساب الثروة، والتأثير على الطقس؛ وفوائد عاطفية أو نفسية، مثل اكتساب السلطة على الآخرين لأغراض مختلفة. (يكفي أن

ينظر المرء إلى السياقات العديدة

التي يُسعى فيها إلى "التمكين" في عصرنا الحالي ليقتنع بأن الأهداف الشعبية اليوم هي من نفس النوع.) أما في السياق الغنوصي، فإن التجربة الرؤيوية تتحول إلى تجربة داخلية في المقام الأول للتسامي التحويلي. كان القديس بولس الرسول شخصية مفضلة لدى معظم الغنوصيين لأنهم اعتبروا تجربته على طريق دمشق بمثابة رؤية تحويلية من هذا النوع، ونقطة تحول حاسمة في حياة الفرد. لقد سار العديد من أعظم أساتذة الغنوصية على خطى بولس في هذا الصدد، لأن تجاربهم الروحية الرؤيوية لم تكن معجزات بل كانت خلاصية في نيتها.

فالنتينوس، عالم غنوصي لجميع الفصول

في الواقع، كان القديس بولس هو المصدر المعترف به للإلهام لأعظم معلمي الغنوصية، فالنتينوس، الذي يقال إنه كان تلميذاً لثيوداس (أو ثيوداس)، وهو صديق وتلميذ لبولس. ليس سراً أن هناك العديد من العناصر الغنوصية المميزة في كتابات بولس. يتحدث عن "أسرار خفية" و"حكمة سرية" لا يمكن إخبارها إلا لأولئك الذين ينتمون إلى النخبة. لكن ما جذب الغنوصيين أكثر من غيره، بمن فيهم فالنتينوس، هو أن بولس أصبح رسولاً نتيجة لمعرفته الخاصة وليس من خلال ارتباطه بيسوع. يروي بولس قصة اختطافه إلى السماء الثالثة، قائلاً: "أفي الجسد أم خارجه لا أعلم"، وتعلم هناك "أشياء لا يمكن وصفها، أشياء لا يجوز للإنسان أن ينطق بها" (2 كورنثوس). 12.2-4) أهله تمامًا ليكون الرسول الغنوصي بامتياز. وهكذا كان مصدراً ممتازاً لتعاليم فالنتينوس وتسلسله الرسولي. فيما يتعلق باهتمامه الدائم بالشؤون الغنوصية، فإن الباحث الهولندي جيل كويسبيل، وهو خبير غنوصي بارز وزميل لـ

كي. غي. يونغ يروي قصة رائعة. خلال السنوات المظلمة للحرب العالمية الثانية، عندما بدت الحياة والعالم يفتقران إلى الأمل والفرح، لجأ كويسبيل

إلى دراسة فالنتينوس. كان للإلهام والراحة والإيمان الذي استمده من كتابات فالنتينوس دور فعال في تحويله إلى باحث متفانٍ ومتعاطف تمامًا مع الغنوصية. من المرجح جداً أن تجربة كويسبيل ليست فريدة من نوعها، وفي الواقع يجد الكثير من الناس في العالم المعاصر رسالة هذا المعلم الغنوصي الأعظم ذات صلة ومفيدة للغاية.

وصف جي. آر. إس. ميد فالنتينوس بأنه "المجهول العظيم" في الغنوصية، وبالفعل لا توجد معلومات كثيرة تتعلق بحياته وشخصيته. ولد في أفريقيا، على الأرجح داخل أراضي مدينة قرطاج القديمة، حوالي أو قبل عام 100 ميلادي. تلقى تعليمه في الإسكندرية، وفي سنوات شبابه نقل إقامته إلى روما، حيث حقق مكانة بارزة في المجتمع المسيحي بين عامي 135 و 160. يذكر ترتليان أن فالنتينوس كان مرشحًا لمنصب أسقف روما وخسر الانتخابات بفارق ضئيل إلى حد ما. يزعم ترتليان، الذي انضم بنفسه إلى بدعة المونتانية، أن فالنتينوس ارتد عن الدين حوالي عام 175. ومع ذلك، هناك أدلة على أنه لم يُدان بشكل عام باعتباره هرطقيًا في حياته، وأنه ظل عضوًا محترمًا في المجتمع المسيحي حتى وفاته. من شبه المؤكد أنه كان كاهناً في الكنيسة الرئيسية، وربما كان أسقفاً أيضاً. وذكر ترتليان أيضًا أن فالنتينوس كان على معرفة شخصية بأوريجانوس، ويمكن للمرء أن يتكهن ببعض المبررات بأن تأثير فالنتينوس على هذا الأب الكنسي الأرثوذكسي كان كبيرًا.

وقد لخص ميد بدقة الطابع العام لمساهمة فالنتينوس:

> إن الغنوص الذي بين يديه يحاول... أن يحتضن كل شيء، حتى أكثر الصيغ العقائدية لتقاليد المعلم. أدرك فالنتينوس أن الحركة الشعبية العظيمة وما يكتنفها من غموض جزء لا يتجزأ من التدفق الهائل؛ وقد عمل جاهداً على نسج كل شيء معاً، الخارجي والداخلي، في قطعة واحدة، وكرس حياته لهذه المهمة، ولا شك أنه لم يدرك إلا عند وفاته أنه كان

يحاول المستحيل في ذلك العصر. لا أحد سوى قلة قليلة يستطيع أن يقدر مثال الرجل، ناهيك عن فهمه.
[شظايا من إيمان منسي 2]

ربما كان فالنتينوس، الغنوصي الذي كاد أن يصبح بابا، هو الرجل الوحيد الذي كان بإمكانه تحقيق اعتراف إيجابي بالنهج الغنوصي لرسالة المسيح. لو تم انتخابه بابا، لكانت رؤيته التأويلية، إلى جانب إحساسه الرائع بالأسطورة، قد عززت ازدهارًا عامًا للغنوص داخل نسيج كنيسة روما نفسها، مما يؤدي إلى نموذج مرجعي للمسيحية الغنوصية كان من الصعب التخلص منه لقرون، إن أمكن ذلك على الإطلاق. إن حقيقة أن الظروف والمد المتزايد للفكر الأرثوذكسي الزائف الرجعي تسببا في فشل جهوده يجب أن تعتبر من بين أعظم مآسي تاريخ المسيحية. ومع ذلك، فقد نجت العديد من السمات الأساسية لمساهمته الفريدة، وتم استخراج المزيد منها مؤخراً من رمال صحراء مصر. سيتم تناول أهم هذه النقاط في الجزء المتبقي من هذا القسم.

علم النفس الكوني والمعادلة الروحية

إن نظرية الكونيات التي غالباً ما يتم مناقشتها عند فالنتينوس يمكن فهمها على أفضل وجه على أنها تستند إلى إدراك وجودي واحد: هناك خطأ ما، في مكان ما، بطريقة ما، فقد نسيج الوجود على المستوى الوجودي للأداء البشري سلامته. نحن نعيش في نظام يفتقر إلى النزاهة الأساسية وبالتالي فهو معيب. يُقر المسيحيون الأرثوذكس وكذلك اليهود بصحة هذا الأمر، لكنهم يفسرون "الخطأ" في الوجود البشري على أنه آثار الخطيئة البشرية - الأصلية أو غيرها. وعلى النقيض من ذلك، ومثل جميع الغنوصيين الآخرين، يدرك فالنتينوس أن الخلق كان يفتقر إلى النزاهة منذ البداية، وبالتالي لا يحتاج البشر إلى الشعور بالذنب الجماعي لما يسمى "السقوط".

تتضمن تنويعات فالنتينوس الخاصة على الموضوع الغنوصي

الأهمية الرمزية التي يوليها لصوفيا، وهي الانبثاق الأنثوي من البليروما. على الرغم من أن شخصية الأنوثة الإلهية كانت حاضرة بلا شك في الغنوصية منذ نشأتها، كما يتضح من تعاليم أقدم غنوصي معروف، سمعان الساحر، فإن أسطورة صوفيا على وجه الخصوص، بكل تفاصيلها الغنية وتفاصيلها الدرامية، هي إلى حد كبير من عمل فالنتينوس.

إن الفرضية الأولى لما أسماه بعض العلماء "المعادلة الروحية" لفالنتينوس هي أن نظام العالم ونظام الإنسان كلاهما معيب. يعيش البشر في عالم عبثي لا يمكن أن يكون ذا معنى إلا من خلال الغنوص. بل إن العديد من الآلهة هي كيانات وهمية جعلها العقل البشري حقيقية لأغراضه المحدودة. في إنجيل فيليب، وهو أحد نصوص مدرسة فالنتينوس، نجد العبارة الحديثة جداً (أو ما بعد الحداثية) التالية:

> خلق الله الإنسان، وخلق الإنسان الله. وهكذا هو الحال في العالم. يصنع الرجال الآلهة ويعبدون مخلوقاتهم. سيكون من المناسب أن تعبد هذه الآلهة البشر. (القول 85)

إن فكرة أن العقل البشري يعيش في عالم من الوهم صنعه بنفسه إلى حد كبير، والذي لا يمكن إنقاذه منه إلا من خلال التنوير بنوع من الغنوص، تجد نظائر قوية في الديانتين العظيمتين في الشرق، الهندوسية والبوذية. تقول الأوبانيشادات أن العالم هو مايا الله، أو "وهم"، الذي يخدع به نفسه. من المؤكد أن هذا كان من الممكن أن يكون قد كتبه فالنتينوس أو أي غنوصي آخر. بحسب تعاليم بوذا، يتكون عالم الواقع الظاهري من الجهل وعدم الثبات وانعدام الذات الحقيقية.

بعد قبول فرضية النظام المعيب، يحتاج العقل إلى إدراك الجزء الثاني المكمل لـ "معادلة" فالنتينوس. إيرينيئوس، في كتابه ضد الهرطقات، يقتصر على فالنتينوس فيما يتعلق بهذه النقطة:

> إن الفداء الكامل هو إدراك العظمة التي لا توصف: لأنه بما أن العيب قد نشأ من الجهل ... فإن النظام بأكمله الناشئ عن الجهل يذوب في الغنوص. لذلك فإن الغنوص هو فداء الإنسان الباطني؛ وهو ليس فداء الجسد، لأن الجسد قابل للفساد؛ وليست نفسية، لأن النفس نفسها هي نتاج النقص وهي مسكن للروح: لذلك يجب أن يكون الفداء نفسه روحانيًا [روحيًا]. من خلال الغنوص، إذن، يتم فداء الإنسان الباطني الروحي: لذلك يكفينا معرفة الوجود الكوني: وهذا هو الفداء الحقيقي. (1.21.4)

وبالتالي، يتم تصحيح الجهل الذي يخلق النظام الزائف من خلال الغنوص الروحي. لا حاجة على الإطلاق للشعور بالذنب، أو للتوبة من الخطيئة المزعومة؛ كما لا حاجة للإيمان الأعمى بالخلاص بالنيابة عن طريق موت يسوع. لسنا بحاجة إلى الخلاص؛ بل نحن بحاجة إلى التحول من خلال الغنوص. يمكن تحويل حالة الوجود البشري الخاطئة والخبيثة إلى صورة مجيدة لكمال الوجود. وبالتالي فإن المعرفة الروحية بالذات هي المكافئ العكسي لجهل الأنا الغير مفتدى. إن الهياكل الأسطورية المتقنة لعلم الكون والفداء التي ورثناها عن فالنتينوس ليست سوى التعبيرات الشعرية والكتابية لهذا الاقتراح العظيم، والذي له صلة بالحالة الوجودية للنفس البشرية في جميع العصور وفي جميع الثقافات.

المخلص الغنوصي: صانع الكمال

لا يعني ما سبق أن فالنتينوس أنكر أو حتى قلل من أهمية يسوع في تعاليمه. إن الإخلاص والتبجيل الكبيرين اللذين أظهرهما فالنتينوس ليسوع يتجليان بجمال شعري سامٍ في إنجيل الحقيقة، الذي ألفه فالنتينوس نفسه في شكله الأصلي. بحسب فالنتينوس، فإن يسوع هو المخلص بالفعل، ولكن بمعنى الكلمة اليونانية الأصلية، سوتير: *soter*، والتي استخدمها المسيحيون الأرثوذكس والغنوصيون على حد سواء. كلمة "سوتر" تعني "المعالج" أو "واهب الصحة". ومن هذا اشتُقّت كلمة "سوتيريا"، والتي

تُترجم اليوم إلى "الخلاص"، ولكنها كانت تعني في الأصل "الصحة، والتحرر من النقص، والتحول إلى الكمال، والحفاظ على كمال المرء". ما هو إذن دور "السوتر"، صانع الكمال الروحي، إذا لم يكن بحاجة إلى إنقاذ البشرية من الخطيئة الأصلية أو الشخصية؟

ينطلق فالنتينوس من فرضية مفادها أن العالم والبشرية كلاهما مريضان. إن مرض كليهما له أصل مشترك: الجهل. أي أننا نتجاهل القيم الحقيقية للحياة ونستبدلها بقيم غير حقيقية. نعتقد أننا نحتاج إلى أشياء مادية (مثل المال، ورموز السلطة والمكانة، والملذات الجسدية) لكي نكون سعداء أو مكتملين. وبالمثل، نقع في حب أفكار ومفاهيم عقولنا المجردة. (إن جمودنا دائماً ما يكون ناتجاً عن التمسك المفرط بالمفاهيم والمبادئ المجردة.) أطلق الغنوصيون على مرض المادية اسم "الهايليتية" (عبادة المادة)، بينما عُرف مرض الفكر المجرد والوعظ الأخلاقي باسم "النفسية" (عبادة العقل والنفس العاطفية). إن الدور الحقيقي لميسري الكمال في هذا العالم، والذين يحتل يسوع بينهم مكانة الشرف، هو طرد هذه الأمراض من خلال جلب معرفة الروح للنفس والعقل. وهكذا يتم استبدال التعلق المرضي بالأشياء المادية والعقلية بالحرية الروحية؛ وتتلاشى القيم غير الأصيلة لصالح القيم الأصيلة المرتبطة بالروح. قال فالنتينوس: "هذا هو عمل يسوع في الشفاء".

فالنتينوس، والسر المقدس، والرؤية الروحية

إن الأساليب التي دعا إليها فالنتينوس لتسهيل الغنوص الروحي الحقيقي لا يقتصر على المذاهب الفلسفية والأساطير الشعرية. كان نظام الفالنتينية في المقام الأول نظامًا للأسرار المقدسة. كما ورد في الفصل السابع، يسرد إنجيل فيليب خمسة من الأسرار المقدسة التاريخية السبعة (أو بالأحرى أشكالها الغنوصية الأصلية) - المعمودية، والمسحة المقدسة، والقربان المقدس، والفداء، وغرفة العروس - ويذكر

اثنان متبقيان أيضاً. تتحدث المعرفة الفالنتينية عن سرين عظيمين وغامضين يُطلق عليهما الفداء (أبوليتروسيس) وغرفة العروس. على الرغم من أن العديد من الصيغ الخاصة بهذه الأمور قد فُقدت، إلا أنه لا يزال من الممكن اكتشاف معانيها الأساسية من خلال الاطلاع على الروايات التي قدمها آباء الكنيسة والمراجع الواردة في الكتب الغنوصية.

الصيغة التالية ترافق فداء "الفالنتينية":

> أنا ثابت، أنا مفدى، وأنا أفدي نفسي من هذا الأيون ومن كل ما يأتي منه، باسم إياو، الذي فدى نفسه للفداء في المسيح الحي. (إيرينيئوس، ضد الهرطقات 1.21.5)

وكما يقال أن بوذا رفض عروض مارا المخادع قبل تنويره تحت شجرة البوذي، كذلك يقطع الغنوصي كل صلة باللاوعي والإكراه، ويعيش ويموت ككائن سيادي من النور والقوة. هناك كل الدلائل على أن سرّي غرفة العروس والفداء المزدوجين قد أحدثا تحولات هائلة بالإضافة إلى التنوير للمتلقين. وقد استمرت هذه الطقوس بشكل معدل بين أتباع النبي ماني وبين الكاثاريين في لانغيدوك. كان لدى الأخير سر عظيم يشبه طقوس أبوليتروسيس، ويسمى العزاء، والذي لم يمنح متلقيه فقط سكينة كبيرة تجاه الحياة، بل شجاعة لا مثيل لها تقريبًا لمواجهة الموت (تمت مناقشته بشكل أكبر في الفصل 10).

وتخبرنا شهادة آباء الكنيسة أيضًا أن أتباع

فالنتينوس كانوا عادةً ما يكتفون بأن يكونوا أعضاء في المجتمعات المسيحية القائمة وأن يشاركوا في الأسرار المقدسة هناك. الشيء الوحيد الذي احتفظوا به هو تفسيرهم لمعنى الأسرار المقدسة. كان اعتقادهم أن الغنوصي الذي كان روحانيًا، أي الذي كان على اتصال بالحقائق الروحية العليا، يمكنه أن يفهم الأسرار المقدسة بروحه. وقد استنكر آباء

الكنيسة المعادون هذا النهج، واعتبروه هرطقة! يوضح ما سبق بإيجاز مدى ثراء تراث الفالنتينية من الحكمة. إن النزاهة الفلسفية، والبصيرة النفسية، والارتقاء الشعري والفني والجمال، ممزوجة بالتفاني الديني الحقيقي والعاطفة، تميز مساهمة فالنتينوس وترفعها فوق معظم **الأنظمة** والمدارس الغنوصية وشبه الغنوصية. لو جمع المرء بين أعلى وأفضل منتجات الوجودية، لكان بإمكانه فقط الاقتراب من الرسالة السامية لهذا التقني العظيم للتحول البشري الذي ينادينا من خلال ما يقرب من ألفي عام. فالنتينوس موجود بالفعل. لقد كان ولا يزال مصدر إلهام وتوجيه للأشخاص في كل عصر ومناخ،

ورسول خالد لأسرار النفس.

يروي هيبوليتوس الرومي، في كتابه "مراجعة جميع الهرطقات" (6.42.2)، إحدى التجارب الرؤيوية الرئيسية التي كشف عنها فالنتينوس:

يقول فالنتينوس إنه رأى طفلاً حديث الولادة، وسأله ليعرف من هو. فأجابه الطفل قائلاً إنه اللوغوس. ثم يضيف إلى هذه الحكاية المتغطرسة، قاصداً أن يستمد منها محاولته لتشكيل طائفة.

وهكذا ربما كان فالنتينوس أول قديس يقابل "الطفل يسوع" في رؤيا ويجعل الطفل الرائي يعرّف نفسه بأكثر ألقابه جلالاً. كما يمكننا أن نستنتج من تعليق ناقده الكنسي الساخر، كان لهذه التجربة تأثير كبير على فالنتينوس، لأنها ألهمته لتأسيس مدرسته الخاصة في التدريس. وكما هو الحال مع غالبية المعلمين الغنوصيين، قام فالنتينوس بما قام به وعلم ما علمه على أساس متعالٍ من غنوصه الخاصة.

وأخيراً، نقتبس جزءاً من إحدى عظات فالنتينوس:

منذ البداية كنتم خالدين وأبناء الحياة - حياة مثل التي يتمتع بها الأيونات: ومع ذلك تريدون أن يتقاسم الموت فيما بينكم، لتنفقوه وتبذروه، حتى يموت الموت فيكم وعلى

أيديكم؛ لأنكم بما أنكم تفينون العالم ولا تفني أنفسكم، فأنتم سادة كل الخلق والفناء. (ميد، شظايا من إيمان منسي 303)

باسيليدس، العارف بالأسرار الخفية

عندما كتب يونغ أطروحته الجميلة ″الخطب السبع للموتى″، قام، مثل الغنوصي الحقيقي، بنسب تأليفها شعرياً إلى "باسيليدس الإسكندري". هذا التكريم لأحد أعظم معلمي الغنوصية سيعود بالفائدة على يونغ إلى الأبد.

لا شك أن يونغ قد وجد في باسيليدس عرافا ورحالاً

مشابه له في أيونات الأسرار للواقع البديل. أقر جميع الغنوصيين بوجود حقيقة مطلقة وغير شخصية هي أصل كل شيء. لقد تم إلقاء نظرة خاطفة على هذا الفضاء اللامحدود وغير القابل للتحديد والمتعالي من قبل المتصوفين ذوي الإنجازات العظيمة، ولكن يبدو أن قلة منهم كانوا على دراية به مثل باسيليدس. يقتبس هيبوليتوس في كتابه ″الفلاسفة″ وصف باسيليدس لهذه الحقيقة المطلقة، التي يصفها بأنها العدم:

> كان هناك حين لم يكن هناك شيء؛ بل حتى العدم لم يكن شيئًا من الأشياء الموجودة... لم يكن هناك شيء، لا مادة، ولا جوهر، ولا بساطة، ولا استحالة التركيب، ولا عدم التصور، ولا عدم الإدراك، ولا إنسان، ولا ملاك، ولا إله؛ باختصار، لا شيء على الإطلاق مما وجد له الإنسان اسماً. الإله
>
> الذي يتجاوز الوجود، دون تفكير أو شعور أو تحديد أو اختيار أو إجبار أو رغبة، أراد خلق الكونية. (ميد، شظايا من الإيمان المنسي 256)

من بين المعلمين الباطنيين الأكثر حداثة، نجد أن هـ. ب. بلافاتسكي في "مقاطع دزيان" (التي استند إليها عملها ″العقيدة السرية″) تعكس تصورًا مشابهًا. بما أن مسيرة باسيليدس التعليمية سبقت مسيرة فالنتينوس بقليل، فمن المحتمل أن يكون الأخير على اتصال بباسيليدس ومدرسته. بعض علماء الفلك عندما

يتحدثون عن

الحالة الأصلية للكون من حيث نظرية الانفجار العظيم يقتربون من وصف رؤية باسيليدس.

المعلم صاحب الرؤية المسؤول عن هذه النظرة إلى الكمال المطلق قام بالتدريس في الإسكندرية على الأرجح حوالي 117-130 م. وادعى أنه ينحدر في كل من التأهيل والإلهام من غلاوكياس، وهو تلميذ مباشر للقديس بطرس الرسول، وأيضًا من متياس، التلميذ الذي أصبح واحدًا من الاثني عشر بعد انشقاق وموت يهوذا الإسخريوطي. قال باسيليدس إن هؤلاء الرجال الرسوليين قد منحوه "معرفة بالأمور الخارقة للطبيعة"، والتي أصبحت أساس غنوصه الخاص. كان باسيليدس كاتباً غزير الإنتاج، ويُقال إنه كتب أربعة وعشرين كتاباً من التعليقات على تعاليم الإنجيل في العهد الجديد. ويُقال أيضاً إنه كتب إنجيلاً بنفسه، استناداً إلى الرسائل التي نُقلت إليه من الرسل. وقد لخص هيبوليتوس وكليمنت الإسكندري وإيرينيئوس تعاليمه واقتبسوا منها، كما اقتبس إيرينيئوس بعض الكتابات المجزأة لأغريباس كاستور

، وهو شخص يُفترض أنه معاصر وخصم لباسيليدس.

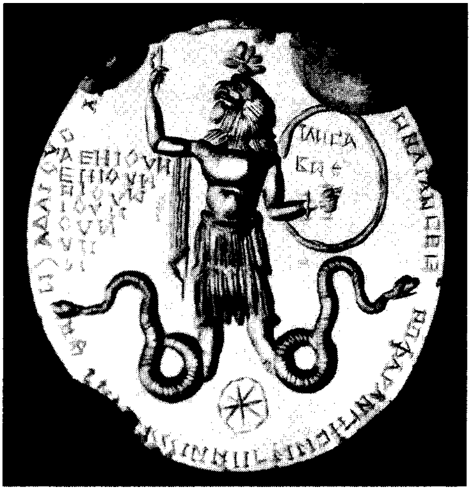
لا يُعرف الكثير عن باسيليدس ومدرسته، باستثناء أن تلاميذه كانوا ملزمين بالالتزام بالصمت لمدة خمس سنوات، على الأرجح للسماح لهم بتنمية الغنوص دون تبديد نواياهم في المحادثة. إن رؤية باسيليدس للعالم ما وراء الكون، وكذلك فهمه لعلم الكونيات، تحمل تشابهاً معيناً مع الفكر الصوفي المجرد الهندوسي والبوذي، وقد تم افتراض أنه كان على دراية بالتعاليم الآسيوية.

وفقًا لنظرية الكونيات عند باسيليدس، فإن الحقيقة المطلقة تحتوي على "البذرة التي تحتوي على كل شيء في حد ذاتها، بشكل محتمل"، ومن هذه البذرة انبثقت ثالوث مقدس من ثلاثة انبثاقات بشكل غامض. ثم ظهر الحاكم الأعظم (ديميورج)، المسمى "رأس الكون المحسوس". ارتقى إلى علو شاهق في السماء، وظن أنه لا أحد يعلوه؛ لذلك "ظن نفسه سيدًا وحاكمًا، وبانيًا حكيمًا، ... وانكبّ على خلق مخلوقات الكون" (هيبوليتوس، نقلاً عن ميد، شظايا

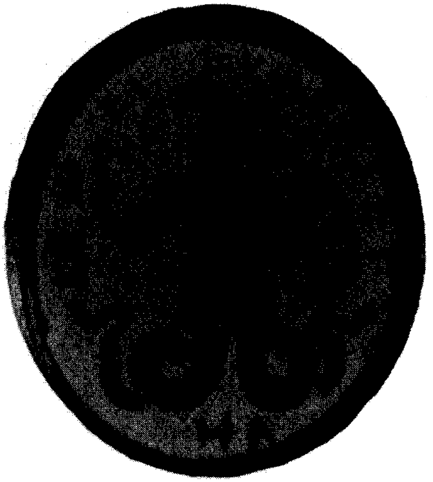
من الإيمان المنسي 257). يظهر هنا أن الديميورج محدود بسبب غفلته عن الكائنات العليا. في هذا الكون، لا يقوم الديميورج بخلق العالم المادي بشكل مباشر، بل يخلق نموذجًا أثيريًا له فقط. لا تزال هناك كائنات خالقة أقل شأناً، تقوم بإنجاز العمل المادي للخلق. بينما تنتقل الفاعلية والدافع للخلق عبر عدة تسلسلات هرمية تنازلية، فإن الدافع للخلاص ينزل أيضًا عبر هذه الترتيبات الهرمية حتى يصل إلى البشرية.

كان باسيليدس مسيحياً متشدداً، وإن كان، مثل جميع الغنوصيين، وفقاً لتعريفه الخاص. لقد اعتبر يسوع بمثابة التجسيد الأرضي لأعلى درجات الإشراق المنبثق من الحقيقة المطلقة. يستطيع الناس الاستجابة لأعمال يسوع الخلاصية ورسالته، لأن في أعماق طبيعتهم شرارة إلهية ("البنوة الثالثة"). الخلاص يكمن في فصل الروح الخالدة عن النفس الفانية وعن الخلق المادي. سيكون اكتمال الخلاص عندما ترتقي البنوة الكاملة (الشرارات المنبثقة في البشرية) وتتجاوز الحد العظيم. هذا ليس عودة كل الخليقة إلى المصدر - أو على الأقل ليس بعد. فبعد أن ترتقي شرارات النور التي تسكن البشرية، سيستمر الكون المادي.

ورد ذكر شخصية أبراكسيس بشكلٍ بارز في كتاب "مواعظ يونغ السبع"، وساد الاعتقاد لقرونٍ بأن هذه الشخصية الهجينة الغامضة كانت جزءًا من تعاليم باسيليدس. ومع ذلك، فإن كتابات باسيليدس التي استشهد بها هيبوليتوس لا تشير إلى أبراكسيس، على الرغم من وجود إشارات إلى هذه الشخصية في كتابات غنوصية أخرى. في ضوء الأبحاث الحديثة، تم تحديد اسم أبراكسيس على أنه اسم أركون مُهتدى ارتقى فوق الأفلاك السبعة ويحكم العوالم. ولا شك أن هذا المفهوم يتوافق مع تعاليم باسيليدس المتوفرة لدينا.



الشكل *8*. جوهرة غنوصية، تعود إلى القرن الثالث الميلادي تقريباً، تصور أبراكسيس. قد ترمز العجلة ذات الثمانية أضلاع الموجودة أسفلها، والتي تم تنفيذها بحرفية عالية، إلى مركبته. تم نقش الصيغة السحرية AEIOUO وغيرها من الصيغ الغامضة على التميمة.



الشكل. 9'. جوهرة غنوصية، تعود إلى القرن الثالث الميلادي تقريباً، تصور أبراكسيس مع سوط ودرع. يحتوي الدرع على الأحرف الأولى الغامضة IAO. الشكل محاط بأحرف ما يسمى "الكلمات البربرية"، والتي كانت تخدم أغراضًا مشابهة للترانيم الشرقية.

مرقيون، الناقد الكتابي **الأول**

لقد كان الكتاب المقدس مصدر الإلهام العظيم وفي الوقت نفسه كان أيضاً مصدر البلاء العظيم للمسيحية. إن التناقض الصارخ بين روح ومضمون العهدين القديم والجديد واضح للقارئ غير المتحيز للكتاب المقدس. وبطريقتها الحكيمة الخفية، قامت الكنيسة في العصور الوسطى باختيار مقاطعها الخاصة من النصوص الأقل إثارة للجدل في العهدين القديم والجديد، وقدمتها في كتب القراءات والصلوات القصيرة لعبادات شعبها. أصرت حركة الإصلاح البروتستانتي على إتاحة الكتاب المقدس بأكمله للجميع (باستثناء بعض الكتب الأكثر شعرية وإلهامًا، مثل الكثير من أدب الحكمة، والتي تم رفضها باعتبارها "أبوكريفا"). وهكذا تم تمهيد الطريق الذي انتهى في النهاية بدراسات نقاد الكتاب المقدس في القرنين التاسع عشر والعشرين، والذين أعلنوا تدريجياً أن جزءاً كبيراً من الكتاب المقدس غير أصيل. لا يُذكر في كثير من الأحيان أن أول ناقد للكتاب المقدس، وهو رجل يُدعى مرقيون، عاش ودرّس في عام 150 ميلادي.

كان مرقيون البنطي مالك سفن يتاجر في البحر الأسود. كان أيضاً أسقفاً ومن سلالة كهنة وأساقفة. قام بالتدريس في روما لمدة عشر سنوات تقريباً واكتسب سمعة طيبة كواعظ. وفي نهاية المطاف، وجد نفسه على خلاف شديد مع الكنيسة السائدة لدرجة أنه انفصل عنها وشكل كنائس تابعة لسلطته في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. على الرغم من أنه لم يكن هناك في عصره قانون محدد بدقة للأناجيل (كان هناك العديد من الأناجيل بالإضافة إلى الأناجيل الأربعة الرئيسية)، إلا أن مرقيون لم يقبل أنجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنا على أنها جديرة بالثقة، لأنه رأى فيها العديد من التحريفات والإقحامات والتزييفات. وإذا كان مرقيون ينتقد العهد الجديد، فقد كان معادياً بشكل صريح للعهد القديم، حتى أنه اقترح أنه لا ينبغي إدراجه في قانون الكنيسة المسيحية.

قال مرقيون إنه في حين أن إله يسوع والعهد الجديد

هو إله محب، فإن إله العهد القديم هو إله عادل في أحسن الأحوال. لقد علّم يسوع عقيدة جديدة، مستمدة من الله الصالح، الأب المحب لنا جميعاً. حاولت الكنيسة السائدة، ربما من أجل الادعاء بالاستمرارية، أو لإرضاء المسيحيين المؤيدين لليهودية، مزج تعاليم يسوع مع تعاليم العهد القديم، لكن النتيجة كانت غير مقبولة. قال مرقيون إن الحل الوحيد هو الاعتراف بإلهين: الإله الأعلى أو الإله الصالح، الذي أرسل يسوع، وإله الشريعة الأدنى، الذي يتحدث في كثير من العهد القديم. في علم الكونيات عند مرقيون، يسكن الإله الصالح في السماء الأولى، ويسكن إله الشريعة الوسيط في السماء الثانية، ويسكن ملائكة (أركونات) الإله الوسيط في السماء الثالثة. تحت هذه توجد *Hyle*، أو "المادة". العالم هو الخلق المشترك لإله الشريعة والمادة. باختصار، لقد أحدثا فوضى عارمة في المشروع بأكمله، وللأسف عانت البشرية كثيراً في ظل هذه الظروف.

وأخيراً نظر الإله الصالح من عرشه العالي وأشفق على الجنس البشري. وتحدث إلى ابنه يسوع:

> انزل، واتخذ صورة عبد، واجعل نفسك مثل أبناء الشريعة. اشفِ جراحهم، وأعد البصر للعميان، وأحيِ موتاهم، واصنع أعظم معجزات الشفاء دون مقابل؛ فحينئذٍ يغار إله الشريعة ويحرض عبيده على صلبك. ثم انزل إلى الجحيم، الذي سيفتح فمه ليستقبلك، ظانّاً أنك واحد من الموتى. ثم حرر الأسرى الذين ستجدهم هناك، وأصعدهم إليّ. (إزنيك، كما نقلت عن هيبوليتوس، في ميد، شظايا من الإيمان المنسي 246)

ربما تفتقر تعاليم مرقيون إلى الدقة والجمال الشعري الذي يتميز به فالنتينوس والعمق الصوفي الذي يتميز به باسيليدس. ومع ذلك، فإن السمات الأساسية للنظرة الغنوصية للعالم حاضرة بكثرة. تكمن مساهمة مرقيون العظيمة في نقده المستنير للكتاب المقدس. لا يسع المرء إلا أن يتساءل عما كان سيحدث لو تم اتباع رأيه ولم تكن المواعظ والقصص الفظة والقاسية للعهد القديم

متاحة للمحققين والمتعصبين لتبرير حرق الساحرات، وعنصريتهم، وإدانتهم للمثليين، والعديد من الفظائع الأخرى، والتي يمكن وصفها جميعًا بأنها "كتابية تمامًا".

وبحسب ما ورد، كان مرقيون يمتلك إنجيلاً اعتبره مرجعاً موثوقاً، وربما يكون قد كتبه القديس بولس الرسول. اعتبر مرقيون بولس أول مسيحي لديه فهم صحيح لرسالة المسيح. لقد تم حجب هذا الفهم بسبب دلالات العهد القديم في العديد من تعاليم الكنيسة، وبالتالي لم تتح الفرصة للرسالة المسيحية النقية كما فسرها القديس بولس للنجاح - هكذا قال مرقيون وأتباعه.

اجتذبت تعاليم مرقيون أتباعاً كثراً. بحلول نهاية القرن الثاني، تم تأسيس كنائس مرقيونية في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط وفي آسيا الصغرى. كان لهذه الكنائس أساقفة وكهنة وشمامسة، وهيكل تنظيمي هرمي محدد، وهو ما قد يكون مسؤولاً عن استمرارها. لدينا تقارير تعود إلى القرن الخامس عن كنائس مرقيونية عاملة، وربما انطفأت معظم هذه الكنائس فقط مع ظهور الإسلام. عندما قام أدولف فون هارناك وعلماء آخرون بنشر أعمال عن مرقيون في مطلع القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، نشأت مدرسة كاملة من الأدباء الألمان والتشيكي في براغ الذين اعتبروا أنفسهم علنًا مرقيونيين جدد. كان أشهر هؤلاء فرانز كافكا (1883-1924)، بينما كان من بينهم أيضاً بول أدلر، وماكس برود، وبول كورنفيلد، وفرانز ويرفيل. كان المرقيونيون في براغ بمثابة بشيرين لعصر النهضة الغنوصية في أوائل القرن العشرين، والذي بزغ في نهاية ذلك القرن، بعد اكتشاف مخطوطات نجع حمادي. إن الحقيقة اللافتة للنظر المتمثلة في أن معظم أتباع مرقيون في براغ كانوا من أصل يهودي تثبت أنهم لم يعتبروا وجهة نظر مرقيون عن الكتاب المقدس العبري وإلهه دليلاً على معاداة السامية؛ بل رأوا أن الطابع القمعي لهذه

النماذج الدينية يصيب اليهود والمسيحيين على حد سواء. وهكذا يستمر إرث مرقيون في ممارسة تأثيره عبر القرون.



الشكل10 جوهرة غنوصية، تعود إلى القرن الثالث الميلادي تقريبًا، تصور أبراكسيس برموز تقليدية، بما في ذلك الأحرف IAO. مثبتة على خاتم كان يرتديه مانلي ب. هول في وقت من الأوقات. (بإذن من جمعية البحوث الفلسفية).

الفصل العاشر

الديانة الغنوصية - المندائيون

المانويون والكاثاريون

يبدو أن الغنوصيين الأوائل الجدد قد أسسوا مؤسسات رسمية لتعزيز تعاليمهم والحفاظ عليها؛ وبالتالي، يمكن قمعهم بسهولة. (إن الخرافة القائلة بأنهم اختفوا ببساطة دون قمع تفقد مصداقيتها تدريجياً). لقد فهم بعض دارسي الغنوصية النقص النسبي في المؤسسات على أنه أمر مقصود: بما أنه لا توجد منظمة أو كهنوتية، بل روح الفرد فقط هي التي يمكنها منح الغنوص، فلم تكن هناك حاجة إلى منظمات دينية غنوصية. ومع ذلك، في التيار الرئيسي للمسيحية، يعتبر الخلاص أيضاً مسألة علاقة شخصية بين الفرد والله، ومع ذلك تكثر الكهنوت والمنظمات الكنسية. وبالمثل، لا يوجد تعارض حقيقي بين الغنوص والمنظمات الدينية، طالما أن هذه المنظمات مكرسة بشكل فعال للغنوص. بالتأكيد، لم يرَ العديد من

الغنوصيين الأوائل أن الاثنين غير متوافقين. كما هو مذكور في الفصل التاسع، فضل فالنتينوس وأتباعه البقاء في الكنيسة الرئيسية كلما أمكن ذلك، ولم يشكلوا جماعاتهم المنفصلة إلا عند الضرورة.
لقد شعروا أن المسيحيين الأرثوذكس (النفسيين)

والمسيحيين الغنوصيين (الروحانيين) يمكنهم العبادة معًا طالما سُمح للغنوصيين بتفسيراتهم الخاصة لتعاليم وأسرار الإيمان. لم يكن معظم الغنوصيين يستهويهم دور الهرطقة؛ فقد كانوا يأملون في أن تستمر المواقف التعددية التي كانت سائدة في الكنيسة المسيحية في البداية، وبالتالي يتم الحفاظ على حريتهم داخل الكنيسة.

إلا أن التعصب المتزايد الذي اجتاح الكنيسة بدأ يتدخل في مثل هذه الترتيبات. وهكذا اضطر جميع المعلمين الغنوصيين بعد فالنتينوس - مثل ماركوس، وهو تلميذ مبكر ولامع لفالنتينوس؛ وأبيليس، وهو معلم متسامح ومسالم للغنوصية؛ وهيراكليون، وهو معلق لامع على الكتاب المقدس؛ ونيكولاس، وهو معلم زاهد في الانضباطات الداخلية - إلى العمل خارج الكنيسة السائدة وتعرضوا بشكل متزايد لاتهامات الهرطقة.

نعرف ثلاث ديانات تحمل طابعاً غنوصياً مميزاً. وقد تطورت هذه الأمور بشكل مستقل عن بعضها البعض. أحد هذه المذاهب ليس مسيحياً على الإطلاق، وآخر يمكن اعتباره مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمسيحية، بينما الثالث مسيحي بشكل واضح ودقيق. ومن المثير للدهشة أن المندائية، وهي الديانة الغنوصية الوحيدة غير المسيحية، هي التي نجت في سلسلة متصلة منذ العصور التوراتية.

المندائية

ديانة النور الغريب العظيم

على مدى ألفي عام تقريباً، نجت مجموعة صغيرة ومتواضعة من الناس ذوي الأصل السامي الذين يمتلكون عقيدة غنوصية ما قبل المسيحية في وادي نهري دجلة والفرات فيما يُعرف اليوم بالعراق. يُطلق العراقيون المعاصرون على هؤلاء الناس اسم الصابئة، على الرغم من أن اسمهم لأنفسهم هو المندائيين. كلمة "ماندا" الآرامية تُترجم إلى اليونانية بمعنى "غنوص"، لذا فإن كلمة "مندائي" تعني حرفياً "غنوصي". قبل خمسة وعشرين عامًا، قُدِّر عدد أفراد الطوائف المندائية في العراق بثلاثة عشر ألفًا،

وهو رقم لا يأخذ في الاعتبار العدد الكبير منهم المقيمين في إيران. منذ الاضطرابات السياسية الهائلة التي شهدها أواخر القرن العشرين، هاجر العديد من المندائيين إلى بلدان أخرى، بما في ذلك أستراليا البعيدة. وبعيداً عن كونهم مجرد صيادين بسطاء في مستنقعات الأنهار، كما تم تصويرهم في الماضي، فهم اليوم أفضل صائغي الفضة وعمال المعادن في مدن مثل البصرة وبغداد. يمكن العثور على المندائيين في العديد من المهن، وكذلك في العديد من البلدان. التقى كورت رودولف، وهو باحث ألماني في الغنوصية، بطالب مندائي في إحدى الجامعات الألمانية.

تتميز أساطير ولاهوت المندائيين بخصائص غنوصية نموذجية. وراء كل العوالم ومجالات الظهور، يوجد كائن أسمى من نور نقي ومجيد، يشار إليه باسم "أول حياة غريبة عظيمة من عوالم النور، الكائن السامي الذي يقف فوق كل الأعمال [الأشياء المخلوقة]" (كنزا، الجزء 1). وعلى النقيض من ذلك، فإن العالم المخلوق يحكمه سيد الظلام، بتاهيل، وهو نسل روحا، وهي كائنة أنثوية تنحدر من مملكة الحياة والنور ولكنها تعارضها بشكل متمرد (شيء يشبه الشكل الأركوني لصوفيا أشاموث). كما هو الحال في الأساطير الغنوصية الأخرى، انبثقت من الوجود الأسمى العديد من الكائنات السماوية والأجرام السماوية، والتي أصبحت بترتيب تنازلي أكثر فسادًا وظلامًا. يحمل بتاهيل جميع سمات الخالق الشرير. لقد خلق عوالم غير مرئية مليئة بالكائنات المظلمة والشيطانية. كما شارك في خلق العالم المادي والجزء المادي من البشر. تصف كتابات شعرية مطولة هذه الأحداث وعلاقة البشر بالقوى الخالقة من جهة وبمملكة الحياة والنور من جهة أخرى.

يبدو أن تاريخ المندائيين يعود إلى يوحنا المعمدان، الذي قام بتدريس ونشر أسراره في الأرض المقدسة في أوائل زمن العهد الجديد. ومع ذلك، على الرغم من أنه يعتبر النبي العظيم لهذا التقليد، فإن النصوص المندائية تشير إلى أن هذا التقليد كان موجودًا قبله. وبالتالي، فإن الديانة المندائية

ليس لها مؤسس تاريخي. من المحتمل أن يكون المندائيون الأصليون من اليهود، أو من شعب مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأصل اليهودي؛ ومن هنا جاءت لغتهم المقدسة الأصلية، المندائية، وهي شكل من أشكال اللغة الآرامية. تعتبر النصوص المندائية موسى نبياً للإله المزيف، وتعتبر يسوع نوعاً من الأنبياء الكاذبين الذين لم يرتقوا إلى مستوى النبي الحقيقي، وهو يوحنا المعمدان.

كان المندائيون يُعرفون منذ فترة طويلة باسم النصوريين، أي "حراس أو مالكي الحكمة السرية". في مراحل مختلفة من التاريخ، ربما بدءًا من الحروب الصليبية، أشار المسيحيون الذين كانوا على اتصال بالمندائيين إليهم باسم "مسيحيي القديس يوحنا" أو "المسيحيين اليوحناويين". لم يعترض المندائيون، لأن هذا الاسم ضمن لهم القبول بين المسيحيين. وبالمثل، منحهم المسلمون المكانة المفضلة لـ "أهل الكتاب" لأنهم يستطيعون القول إن لديهم نبياً (يوحنا) وكتاباً سماوياً رئيسياً (الكنزا). من المحتمل جداً أن تكون الحركات الغنوصية في العصور الوسطى، وخاصة فرسان الهيكل، قد تواصلت مع هؤلاء الغنوصيين القدماء في الشرق الأوسط وتلقت منهم بعض التعاليم والطقوس السرية.

والجدير بالذكر أن الديانة الغنوصية الوحيدة الباقية تحمل سمات الطقوس السرية الواسعة: كهنوت ذو طقوس رسمية للتأهيل وهيكل هرمي. يتكون التسلسل الهرمي من ثلاثة مناصب: الكاهن المساعد، والكاهن، والكاهن الأكبر - ويتمتع الأخير بسلطة قضائية على منطقة معينة. يُسمح للكهنة بالزواج. وبالتالي فإن المفهوم الغربي الحديث القائل بأن الدين الغنوصي "غير وسيط" وبدون طقوس دينية يبدو موضع شك كبير.

لدى المندائيين العديد من الكتب المقدسة، وأهمها

كتاب "كنزا"، الذي طُبع مؤخرًا لأول مرة من قبل مجتمع مندائي في أستراليا. تحتوي العديد من كتبهم على وفرة من الأدعية والطقوس. تُعنى النصوص والطقوس المندائية في المقام الأول بتحرير شرارة الألوهية من خلال المعرفة الموجودة في الحكمة المنقولة لكهنوت المندائيين

بواسطة سلسلة من رسل النور. لم يتم ذكر أسماء هؤلاء الرسل، باستثناء يوحنا المعمدان.

بسبب طقوسهم التي تتضمن الغمر المتكرر في الماء، أطلق الغرباء على المندائيين في كثير من الأحيان اسم المعمدانيين، الذين افترضوا أن هذه الغمرات كانت طقوس معمودية. أثارت التكرارات المتكررة للطقوس بين المندائيين الدهشة. في الواقع، فإن طقوس الغمر عند المندائيين أقرب إلى القربان المقدس منها إلى المعمودية. يعتقد المندائيون أن الماء الجاري يحتوي على كمية أكبر من المادة الروحية المتعالية، والتي يشار إليها باسم النور، مقارنة بأي شيء مادي آخر. وبينما تشجع معظم الكنائس المسيحية التي تمارس الأسرار المقدسة أعضاءها على تناول القربان المقدس بشكل متكرر، فإن طقوس المندائيين تتضمن التواصل مع النور الخارق للطبيعة الموجود في الماء. تقع دور عبادتهم دائمًا بجوار المياه الجارية.

هناك طقسان رئيسيان مهمان. أحدهما هو الغطس، أو الماسبوتا، في الماء الجاري، والذي يُطلق عليه دائمًا اسم الأردن. تُقام هذه الطقوس يوم الأحد، وهو العيد الأسبوعي للمندائيين. يتكون من ثلاث غطسات كاملة، ورسم ثلاث علامات على الجبهة بالماء، وشرب الماء ثلاث مرات، ووضع إكليل من الآس، ووضع الأيدي. جميع هذه الطقوس يقوم بإدارتها كاهن. ثم يتلقى المشارك مسحة على جبهته بالزيت، ويتناول الخبز والماء، و"ختم" الجسد والنفس ضد الأرواح الشريرة. إن البوشتا، أو "فعل الحقيقة"، وهي عبارة عن مصافحة باليد اليمنى يتم تبادلها بين المتلقي والكاهن، ترمز إلى تحقيق الاتحاد مع عالم النور. جميع الأعياد، حتى حفلات الزفاف، تتضمن طقوس الماسبوتا.

تُعتبر طقوس الموتى ثاني أهم الأسرار المقدسة. تبدأ الطقوس بعد ثلاثة أيام من وفاة الشخص وتستمر لمدة خمسة وأربعين يوماً على فترات زمنية محددة. اسم الطقوس هو ***"ماسيكتا"***، ويترجم إلى "الصعود"، مما يعني أنها تسهل صعود النفس إلى عالم النور. يُكثر المندائيون من الصلاة على الموتى؛

تشمل جميع الاحتفالات المنتظمة تقريباً الصلوات والوجبات المقدسة للموتى. إلى جانب الفائدة الطقسية، يبدو أن معرفة القوى المعارضة ومخاطر الحياة الآخرة تُنقل إلى النفس، حتى تتمكن من اجتياز المناطق الخطرة بأمان (يمكن ملاحظة التشابه هنا مع ممارسات الباردو في البوذية التبتية فاجرايانا). لم يكن معروفاً الكثير عن الديانة المندائية حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. في عام 1867 ظهرت بعض المخطوطات المندائية في باريس ولندن، والتي ترجم منها الباحث الألماني مارك ليدزبارسكي أولاً كتابًا عن الطقوس بعنوان *"Mandaische Liturgien"*، والذي نُشر في برلين عام 1920؛ وفي عام 1925 نشر ترجمته التاريخية للكنزا نفسها. وقد تم تضخيم عمله بشكل كبير ونقله إلى الأمام من قبل سيدة إنجليزية مغامرة ومتفانية، هي السيدة إي. إس. دراور (1879-1972)، التي أقامت في الشرق الأوسط، وتمكنت من مصادقة أفراد من المجتمع المندائي والحصول منهم على بعض كتبهم المقدسة. في أعمال مثل "المندائيون في العراق وإيران" (1937) و"كتاب الصلاة القانوني للمندائيين" (1959)، قدمت للعالم الأكاديمي كنزًا حقيقيًا من المعلومات. وفي السنوات اللاحقة، أقام كورت رودولف علاقات مفيدة مع المندائيين. اليوم، يتولى الدفاع عن مجال الدراسات المندائية بشكل رئيسي صديق متعاطف ومخلص للمندائيين وباحث في دينهم، وهو جورون جاكوبسن باكلي، الذي لا يمكن المبالغة في الثناء على عمله في هذا المجال. (انظر أيضًا كتاب هانز يوناس الراحل "الدين الغنوصي"، وهو عمل يسهل على القارئ العادي الوصول إليه، ويحتوي على العديد من

الاقتباسات من نصوص المندائية.)

تمتلئ النصوص المندائية بمشاعر شعرية جميلة

وجذابة. إليكم مقطعين من كنزا:

منذ اليوم الذي أحببت فيه الحياة،

منذ اليوم الذي أحب فيه قلبي الحقيقة، لم أعد أثق بأي شيء في العالم.

لا أثق في أبي وأمي، ولا في العالم أجمع.

لا أثق في إخوتي وأخواتي في العالم أجمع.

لا أثق في العالم بما يُصنع ويُخلق.

لا أثق بالعالم بأسره ولا بأعماله. أبحث عن روحي وحدي،

وهو ما يساوي في نظري أجيالاً وعوالم. ذهبتُ ووجدتُ روحي-

ماذا تمثل كل هذه العوالم بالنسبة لي؟ ...

ذهبتُ ووجدتُ الحقيقة،

وهي تقف على الحافة الخارجية للعوالم. (390)

منذ اليوم الذي رأيناك فيه، ومنذ اليوم الذي سمعنا فيه كلمتك، امتلأت قلوبنا بالسلام.

نومن بك أيها الصالح،

ورأينا نورك ولن ننساك. لن ننساك طوال أيامنا،

ولن ندعك تغيب عن قلوبنا ولو لساعة واحدة. لن تُعمى قلوبنا، ولن تُكبّل هذه النفوس. (60)

ماني والديانة المانوية

وعلى عكس الديانة المندائية، فإن الديانة المانوية، التي انتشرت في وقت من الأوقات عبر ثلاث قارات، كان لها مؤسس. كان اسمه ماني، أو بصيغته اليونانية، مانيس، ويجب ذكره إلى جانب فالنتينوس كواحد من أعظم اثنين من الشخصيات البارزة في التقاليد الغنوصية. كان النبي ماني، كما ينبغي أن يُطلق عليه بحق، بلا شك أحد أبرز الشخصيات التي عاشت على الإطلاق. ولد عام 216 ميلادي في بلاد فارس (إيران الحالية) لعائلة كانت مرتبطة بالعائلة المالكة السابقة، وذهب إلى المنفى مع والديه في سن مبكرة. يبدو أن والدي ماني كانا ينتميان إلى جماعة دينية تشبه الغنوصية، ربما تكون شكلاً مختلفاً من أشكال الديانة

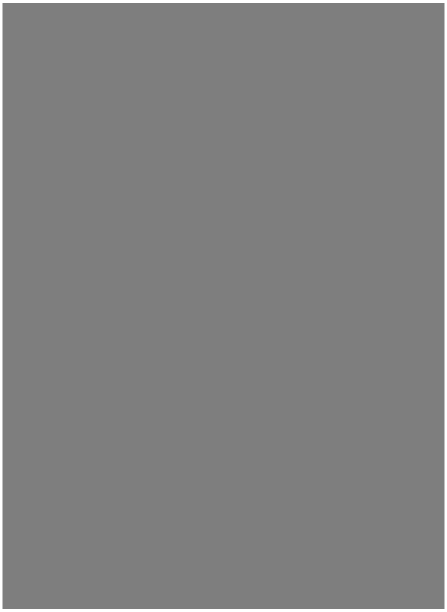
المندائية، أو على الأرجح، جماعة الألكسية، حيث تعرض في صغره للنظرة الغنوصية للعالم. وعلى غرار النبي الحقيقي، كانت لديه تجارب رؤيوية خاصة به كشفت له

عن مهمته المستقبلية كمؤسس لدين ما. حدثت أولى هذه الرؤى عندما كان عمر ماني 12 عامًا فقط. في ذلك الوقت، اتصل به ملاك يشبه الإله، يُدعى التوأم، وطلب منه الانسحاب من الجماعة الدينية التي كان يعيش فيها هو وعائلته. وأخبره الملاك أيضاً أن وقت ظهوره العلني لم يحن بعد. وبحسب تقريره الخاص، تلقى ماني المبادئ الرئيسية لدينه الجديد في ذلك الوقت. عندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره، ظهر له الملاك مرة أخرى وأمره ببدء خدمته العامة.



الشكل. *11*. ماني النبي والرسام. تُظهر ملامح ماني خصائص فارسية كلاسيكية وتمثله كشاب. غالباً ما تظهره الصور اللاحقة برأس أصلع.

عاد ماني إلى موطنه بلاد فارس، حيث صادق في النهاية الملك شابور وابنه، الملك هرمز فيما بعد. بعد فترة وجيزة من إعلان مهمته، سافر إلى الهند، حيث كوّن بعض التلاميذ ولكنه واجه أيضاً مقاومة من السكان الهندوس. كما سافر إلى آسيا الوسطى، حيث أمضى عدة سنوات في تركستان الغربية، إحداها في عزلة تامة يتواصل فيها مع السماء. ظلت تركستان معقلاً للديانة المانوية



الشكل. *12*. أيقونة غنوصية معاصرة للنبي ماني. تم تصويره على الطراز الفارسي القديم، متأثراً بفن رسم البورتريه الصيني. (لوحة زيتية على خشب للفنان جان فالنتينوس ساثر؛ بإذن من الفنان.)

لقرون بعد ذلك. لكن أعظم نجاحاته المبكرة كانت في موطنه بلاد فارس، حيث اجتذبت الديانة الجديدة الكثير من الأتباع لدرجة أنها أصبحت تحديًا خطيرًا للكهنوت الزرادشتي القائم. بدأ قادة الطائفة الزرادشتية حملة قوية ضد ماني ودينه. أثمرت مكائدهم عندما توفي الملك الشاب هرمز، الصديق المخلص والتلميذ المخلص لماني، وتولى شقيقه المعادي العرش. تم القبض على ماني، وتعرض للعديد من الإهانات، وتوفي في النهاية في السجن في 26 فبراير 277. أفاد تلاميذه، الذين تمكنوا سراً من زيارته في السجن، بأنه كان محاطاً بالملائكة وأنه كان يشع كالشمس. وقد أطلق أتباعه على أيامه الستة والعشرين من العذاب في السجن اسم "الآلام" وشُبّهت بحق بآلام يسوع.

يسوع المانوي

في وقت محاكمته الجائرة أمام الملك بهرام، أصر ماني على أنه لم يكن لديه معلم بشري، بل تلقى مذهبه بالكامل من ملاك أرسله الله، وهو "توأمه". ومع ذلك، فقد عرّف نفسه في أوقات مختلفة بأنه رسول ليسوع المسيح، الذي لم يقابله جسديًا بالطبع - كما كان الحال أيضًا مع القديس بولس. كان ماني يعتقد أن هناك رسل نور آخرين سبقوه، مثل شيث، البطريرك الغنوصي الأسطوري للعهد القديم؛ وزرادشت، نبي إيران؛ وبوذا، معلم آسيا؛ وأخيراً، يسوع المسيح. على الرغم من أن المذهب المانوي لا يُعتبر عادةً مسيحياً، إلا أن إخلاص ماني ليسوع كان هائلاً، كما توضح الاقتباسات التالية:

> اسم يسوع هذا، تحيط به نعمة. لأن يسوع هو الذي يعطي التوبة للتائبين.
>
> إنه يقف بيننا... إنه ليس بعيداً عنا يا إخوتي، كما قال في موعظته: "أنا قريب منكم كقرب ثوب أجسادكم!"
>
> يا يسوع، حملك خفيف على من يستطيع حمله؛ لقد جعلت الصليب منبراً (عرش رحمة) لنفسك، ووضعت عليه الشريعة ... لقد جعلت الصليب سفينة لنفسك وأبحرت عليها. (ماني، نقلاً عن كتاب المزامير المانوية 15، 39، 91)
>
> فلنبارك ربنا يسوع الذي أرسل إلينا روح الحق! لقد جاء وفصلنا عن عجائب العالم، وأحضر لنا مرآة نظر فيها ورأى الكون. (مزمور المانوية - الكتاب 150)

كان من الممكن بسهولة أن يصدر هذا الكلام، بالإضافة إلى العديد من التصريحات المشابهة، عن أي مسيحي أرثوذكسي متدين. ومع ذلك، هناك جوانب من تعاليم ماني المتعلقة بيسوع لها طابع فريد وغنوصي بالتأكيد. بحسب ماني، فإن يسوع هو حضور روحي مخلص كان موجودًا دائمًا في العالم، على الرغم من أنه

ظهر بشكل خاص في فلسطين. وهكذا ظهر يسوع لآدم في الفردوس وأعطاه وحياً بدائياً. رأى آدم يسوع على أنه **"مُلقى** في كل شيء، إلى أنياب النمور والفيلة، تلتهمه، وتستهلكه، وتأكله الكلاب، ويختلط ويقيد في كل ما هو كائن، ويسجن في رائحة الظلام الكريهة" (ثيودور بن كوناي، القرنين الثامن والتاسع).

إلى جانب كونه كاشفاً للتعاليم الخلاصية وجالباً للأسرار، فإن يسوع المانوي هو تجسيد للنور الإلهي الممزوج بالمادة. قبل آلامه وصلبه على صليب الخشب في أورشليم بزمن طويل، صُلب على صليب المادة. هذه هي عقيدة *Jesus patibilis*، "يسوع القابل للتأثر"، الذي "يعلق من كل شجرة ... يولد كل يوم، ويتألم ويموت" (كيفالايا، مجموعة من أقوال ماني). إن تشابه هذا المفهوم مع التعاليم الباطنية اللاحقة المتعلقة بالحياة الإلهية الكامنة في العالم المادي أمر واضح. تأمل في التأمل الشعري الذي ألفته الراحلة آني بيسانت، وهي من أتباع المذهب الثيوصوفي:

يا حياة خفية نابضة بالحياة في كل ذرة؛

يا نوراً خفياً ساطعاً في كل مخلوق؛ يا حباً خفياً يحتضن الجميع في وحدة؛

فليعلم كل من يشعر بأنه واحد معك، أنه بالتالي واحد مع كل الآخرين.

لكن لا ينبغي تفسير هذا التعليم المتعلق بـ *Jesus patibilis* على أنه مذهب طبيعي أو وحدة الوجود. لا يعني ذلك أن الكون والطبيعة هما الله بشكل خالص وبسيط (إلا بالمعنى الضعيف الذي مفاده أن جوهرهما في النهاية هو انبثاق من المصدر الإلهي). بل إن المسيح الكوني، الإنسان البدائي المتألم، محصور، بل مسجون، في المادة، بينما نظيره الروحي، المحرر المتعالي، الذي يأتي من فوق الكون والطبيعة، يواصل جمع نفسه من التشتت والتقييد الماديين.

في إنجيل توما، وهو نص مقدس ليس غريباً على المانويين، يوجد بيان من يسوع يتماشى إلى حد كبير مع عقيدة *Jesus patibilis*:

> قال يسوع: "أنا النور الذي فوقهم جميعاً، أنا الكل، الكل خرج مني والكل وصل إلي. شق قطعة من الخشب، فأنا هناك؛ ارفع الحجر وستجدني هناك". (القول 77)

وهنا أيضاً، الأمر ليس بالانحناء وعبادة قطع الخشب أو الحجارة، بل بشق هذه الأشياء ورفعها. وبعيداً عن كونها مجرد مجاز، قد تكون هذه الكلمات طلباً للقيام بعمل ما، لتحرير النور الإلهي المنتشر داخل الأشياء المادية والطبيعية. أي أن العالم الطبيعي، مثل الإنسان الطبيعي، بحاجة إلى التقديس والتحول.

عقيدة ماني الأساسية

إن النظام المفاهيمي لتعاليم المانوية بسيط إلى حد ما، على الرغم من أن التفاصيل والتفسيرات الأسطورية عديدة ومعقدة. قيل إن تعاليم ماني أكثر ثنائية من تعاليم التقاليد الغنوصية الإسكندرية والسورية.

قد يكون هذا بسبب البيئة الفارسية التي تطورت فيها المانوية، حيث تشبعت الثقافة بالثنائية الزرادشتية لفترة طويلة جدًا. صحيح أن الثنائية في علم الكونيات عند ماني لا تنشأ فقط في سياق عملية الانبثاق، بل هي متأصلة في أسس الوجود نفسها. قال ماني: في البداية، تعايشت ممالك النور والظلام في سلام مضطرب. بينما لم يكن للنور أي خلاف مع وجود الظلام وكان سيظل راضياً بالعيش جنباً إلى جنب معه، فإن الظلام كان يريد الأمر بشكل مختلف. كان الظلام في حالة من الهياج والغضب، وقرر مهاجمة وغزو عالم النور.

مع اقتراب جحافل الظلام من عالم النور،

احتاج النور البدائي إلى الدفاع عن نفسه. لقد دعت أم الحياة إلى إنجاب الإنسان البدائي (شخصية كونية، لا ترتبط بآدم أو غيره من البشر إلا بطريقة غير مباشرة). أما الرجل البدائي فكان له خمسة أبناء، وقام الستة معًا بطرد قوى الظلام من مملكة النور ومطاردتهم إلى ساحة معركة الأيونات السفلى. لسوء الحظ، في ساحة المعركة، تغلبت شياطين الظلام الرئيسية على الرجل البدائي وأبنائه الخمسة والتهمتهم، ودمجت جوهرهم المضيء في أشكالهم المظلمة. هكذا حدث أول امتزاج رهيب بين النور والظلام.

يمكن للمرء أن يلاحظ هنا الموضوع الغنوصي المتكرر باستمرار. هناك إشعاع من النور الإلهي من الإله الأعلى، وجزء منه يسقط في العوالم السفلى للظلام والفوضى والشر. يُحاصر النور هناك ويختلط بمواد غير متوافقة معه، بل وحتى معادية له. ثم يجب إنقاذ شرارات النور التي ابتلعتها الظلمة.

وفي سياق جهود الإنقاذ، يتم تحرير الإنسان البدائي، ويصعد بمجد إلى مرتبة الألوهية. أما نفوس البشر فقد تُركت وراءها، إلى جانب جزيئات النور التي تنبع من أسر الإنسان البدائي وأبنائه. عند هذه النقطة فقط يبدأ العالم المادي كما نعرفه في الوجود. لقد خُلقت الأرض كوعاء خيميائي للتطهير والتحول حيث يمكن استخلاص النور من المادة المظلمة. الشمس والقمر كلاهما وعاءان للنور يعملان كمركبات لنقل النور إلى أعلى من ظلام الأرض.

إن الرسول، الذي يمثل النموذج الأصلي لجميع رسل النور المتجسدين،

قد تم إخراجه من قبل الإله الأعلى. ينزل هذا الرسول إلى عالم الخلق، ومن خلال مناورات مختلفة محسوبة لخداع وهزيمة أركونات العالم السفلي، يتمكن من تحرير المزيد والمزيد من النور. كلما فصل الرسول بعض النور عن الظلام، يعود العنصر المظلم إلى الخلق، حيث

يصبح جزء كبير منه المملكة النباتية والحيوانية. تتكون الحيوانات، على وجه الخصوص، إلى حد كبير من أشكال أثيرية مجهضة تنبعث من الأركونات. (لاحظ أن المعرفة المانوية لن تكون بمثابة منطق منطقي لأنصار "حقوق الحيوان" اليوم.) إن ميل المانويين إلى النباتية يستند إلى نجاسة معظم لحوم الحيوانات بسبب أصولها الأركونية. وبحسب ما ورد، كان المانويون يفضلون تناول أطعمة معينة، مثل البطيخ، والتي كانت تحتوي، وفقًا لتعاليمهم، على كمية أكبر من النور مقارنة بغيرها. من السهل السخرية من هذه العادات، ولكن أليس صحيحاً أن العديد من الثقافات والأديان تكهنت بالصفات الروحية لبعض الأطعمة؟

ولا يُستثنى البشر من الظلام والتلوث الأركوني. قام آدم وحواء، من خلال تقليد الجماع الشهواني للأركونات، بتشتيت الكثير من النور لدرجة أن استعادته أصبحت أكثر صعوبة - ومن هنا جاء تدني تقدير المانويين للجنس.

لا تزال عملية إنقاذ شرارات النور مستمرة. سفن النور - الشمس والقمر - تنقل يومياً شرارات النور إلى العوالم العلوية. كما أن عمود النور الذي أقامه الرسول وتجليه، يسوع، ينقل النور على طول رحلته الصاعدة. وبدافع من رسل النور، يساعد البشر المستنيرون على تنقية شرارات النور وفصلها عن سجونها المظلمة. هناك عمل عظيم للتطهير والخلاص يجري في العالم، وقد علم النبي ماني البشر كيفية المضي قدماً في هذا العمل.

لماذا كانت المانوية مكروهة إلى هذا الحد؟

لقد مارست الديانة التي أسسها النبي ماني علنًا لمدة ألف ومائة عام في أماكن مختلفة، ومع ذلك نادرًا ما كانت بمنأى عن الاضطهاد. ما الذي تسبب في هذه الكراهية المستمرة؟ لا شك أن الدوافع اختلفت باختلاف الزمان والمكان. لا شك أن المسيحيين، وكذلك أتباع الديانات الأخرى، كانوا في وقت أو آخر مدفوعين بالخوف والغيرة من منافس لم يتمكنوا من مجاراته في القداسة والنقاء واللطف.

كما برزت الاعتبارات الاقتصادية والسياسية برؤوسها القبيحة. ومع ذلك، يبدو أن هناك شيئًا آخر.

لطالما اختلف جميع الغنوصيين عن غالبية البشر، ليس فقط في تفاصيل المعتقدات ولكن أيضًا في نظرتهم الأساسية للوجود وغايته. إن افتراض أن العالم جيد وأن مشاركتنا فيه مفيدة بطريقة أو بأخرى هو افتراض مفضل لدى معظم الناس في معظم الأوقات. صحيح أن المسيحية قد اعترفت بطريقة غنوصية إلى حد ما بأن هذا العالم هو وادي الدموع، وكذلك فعلت التقاليد الروحية الأخرى، وخاصة البوذية، التي تعتبر مبدأها الأساسي هو أن الحياة الأرضية تساوي المعاناة. ومع ذلك، فإن معظم الأديان تخفف في نهاية المطاف من موقفها إلى حد ما وتقدم تنازلات فيما يتعلق بظلام العالم. لكن الغنوصيين لم يقدموا مثل هذه التنازلات. وبينما كانت المدارس الغنوصية في القرون الأولى قصيرة العمر إلى حد ما ومقتصرة على النخبة المثقفة، كانت المانوية مختلفة. لقد كانت ديانة عالمية لعدة قرون، ولها أتباع كثر، وهيكل هرمي متقن، ورهبان، وكهنة، وطقوس دينية، وكتب مقدسة. لا يمكن للمرء أن يتجاهل المانويين أو نزعتهم غير المتسامحة نحو الآخرية وسلبيتهم الصارمة فيما يتعلق بالوجود المادي. وهكذا نظر المسيحيون والزرادشتيون والمسلمون والكونفوشيوسيون، وربما حتى البوذيون في بعض الأحيان، إلى المانويين على أنهم يشكلون تهديداً للمجتمع وللحياة كما هو مفهوم بشكل شائع.

من ناحية أخرى، فإن معظم الديانات التي علمت كراهية المانويين كان لديها رهبان وراهبات، مثل "المختارين" في كنيسة ماني، تخلوا عن الممتلكات والأسرة والانخراط في الدنيا. كان عامة الناس "المستمعين"، كما كانوا يُطلق عليهم، في المجتمعات المانوية يعيشون حياة أكثر حرية من حياة المسيحي العادي. كان القديس أوغسطين في يوم من الأيام مانويًا، وكذلك كان القديس أمبروز؛ ويبدو أن كلاهما ينظر إلى حياتهما كـ "مستمعين" بشيء يشبه الحنين المذنب. وبالتالي، فإن العداء تجاه "دين النور" الذي ينتمي إليه ماني لم يكن له أساس واقعي. من وجهة نظر غنوصية، يمكن للمرء أن يستنتج أن أركونات هذا العالم شعروا

بهيمنتهم مهددة عندما واجهوا المختارين القديسين ذوي الرداء الأبيض، الذين كانوا منخرطين بشكل فعال في تحرير أنفسهم من قيود اللاوعي الأرضي. كان الشر الروحي في المناصب العليا سبب سقوط دين ماني.

من ناحية أخرى، فضل العديد من الحكام الحكماء والمتدينين عقيدة ماني أو اعتنقوها. وكان من بين هؤلاء ملوك بلاد فارس، وحكام التركمان، وأمراء المغول، وإمبراطور واحد على الأقل من الصين. في الواقع، لقد صمدت الديانة المانوية لأطول فترة في الصين: فقد صدر آخر إدانة مصيرية لهذه العقيدة في عام *1374* من قبل أحد أباطرة مينغ. بقيت أصداء خافتة لرسالة ماني في جمعيات مثل جمعية السحب السوداء والبيضاء وجمعية اللوتس الأبيض، وكذلك في عبادة بوذا مايتريا. بل ربما يكون للديانة التبتية القديمة المعروفة باسم "بون" أصول مانوية، إذ يؤكد أتباعها أنها تأسست على يد حكيم كان أميراً من بلاد فارس. وفي أوروبا، انتشرت رائحة إيمان ماني النبيل عبر العديد من الأراضي لقرون.

زندقة الرجال الصالحون والنساء الصالحات

قلاع نبيلة تبرز من جوانب الجبال الشاهقة، ووديان تنتشر فيها بساتين الزيتون وكروم العنب، وقرى وبلدات مبنية من الحجر يسكنها شعب قديم يميل إلى المساعي الروحية، وكل هذا مضاء بضوء شمس البحر الأبيض المتوسط الدافئ - هكذا كان المشهد الذي يجسد المصير المجيد والمأساوي لديانة الكاثار.

لا يوجد دليل قاطع يشير إلى أن ديانة الكاثاريين التي ازدهرت في لانغيدوك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر قد نشأت مع النبي ماني، لكن الاحتمال موجود بالتأكيد. أطلق السير ستيفن رونسيمان (1947) اسم "المانيشية في العصور الوسطى" على الكاثاريين. وكانت المانوية

أشهر الديانات الغنوصية. بعد فترة معينة، صنف خصوم الروحانية الغنوصية جميع أشكالها على أنها مانوية. أُحرق أسقف إسبانيا في القرن الرابع، بريسيليان الأفيلاوي، وهو مسيحي ذو ميول غنوصية، على الخازوق باعتباره "مانويًا". شملت أبرشيته ما كان يسمى سابقًا أكيتانيا، حيث تقع منطقة لانغدوك. ربما كان لإرثه كأول "محروق" علاقة ما بظهور الدين المعروف الآن في المقام الأول باسم الكاثاريين.

يخبرنا المؤرخون أن الكاثاريين في جنوب غرب وغرب أوروبا تلقوا تعاليمهم من الشرق. في القرن الأخير من الألف سنة الأولى الميلادية، قام كاهن بلغاري يدعى بوغوميل بالتبشير في وطنه بعقيدة غنوصية انتشرت بحلول القرنين الحادي عشر والثاني عشر إلى بلدان البلقان الأخرى وإلى آسيا الصغرى. على الرغم من تعرضهم للعديد من الاضطهادات، إلا أن البوغوميل كانوا جماعة دينية ثابتة؛ ففي البوسنة، حيث أصبح نظام معتقداتهم هو الدين الرسمي للدولة، استمروا حتى الاحتلال التركي في القرن الخامس عشر. (اعتنق البوغوميل البوسنيون الإسلام بأعداد كبيرة وشكلوا جوهر السكان المسلمين في البوسنة.) ما هو معروف عن البوغوميل يكشف أنهم كانوا غنوصيين متعمقين، على الرغم من أن تعاليمهم كانت تحمل طابعًا أكثر قسوة وثقلًا من الغنوصية الفلسفية لأسلافهم القدماء في الإسكندرية.

كان للمبشرين البلغار دور مؤكد في تحفيز النهضة الدينية الغنوصية في أوروبا التي بدأت في القرن الثاني عشر. لكن ليس من المؤكد ما إذا كان الارتفاع الكبير في الغنوصية الذي تركز في لانغيدوك يعود فقط إلى التبشير من البلقان. لطالما عُرفت منطقة جبال البرانس بأنها مركز للاتجاهات الروحية غير التقليدية والباطنية. من المحتمل أن تكون بذور التقاليد القديمة قد نبتت بفعل التأثير المغذي لزوار البوغوميل. نعلم أنه في حوالي عام 1172، تجمع عدد من الكاثاريين الكاملين، أو "البيرفكتي"، في بلدة سانت فيليز دي كارامان الصغيرة، على بعد حوالي ثلاثين كيلومترًا من

تولوز. تحت قيادة أسقف بوغوميل من القسطنطينية يُدعى نيكيتاس، قاموا بإعادة تنظيم كبيرة لحركة الكاثار الموجودة بالفعل ووضعوا استراتيجيات لنشر الإيمان. كانت الحركة الدينية الغنوصية العظيمة في العصور الوسطى في طريقها الآن.

اسم "كاثار"، الذي يترجم إلى "نقي" أو "الطاهر"، مشتق من اليونانية، وقد استخدمه الغرباء المتعاطفون لوصف أعضاء الدين. كان الكاثاريون أنفسهم يشيرون إلى أنفسهم ببساطة باسم "المسيحيين"، أو أحيانًا باسم "المسيحيين الحقيقيين". (تحريف كلمة كاثار هو المسؤول عن المصطلح الألماني الرسمي للهرطقي: *Ketzer*.) وبما أن بعضًا من أوائل الكاثاريين كانوا يقيمون في مدينة ألبي، فقد كان اسم ألبيجنسيان شائعًا أيضًا. أطلق سكان منطقة لانغيدوك ببساطة وحزم على الكاثاريين لقب "الرجال الصالحون والنساء الصالحات".

إنجيل الأطهار

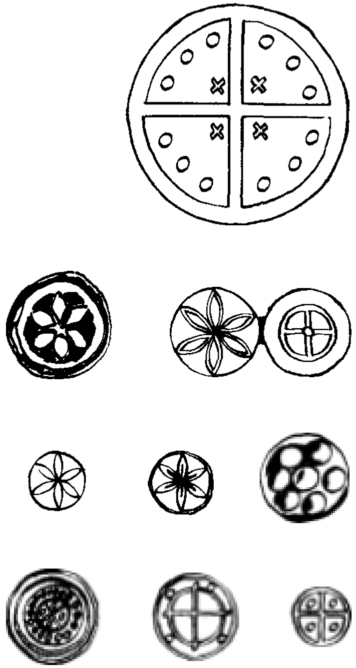
وكما هو متوقع، تم تكييف الغنوصية الكاثارية مع عقلية ونظرة العالم لدى المسيحيين في العصور الوسطى. أصبح ديميورج عند الغنوصيين هنا ببساطة لوسيفر، أو الشيطان، رئيس الملائكة الشرير. قال الكاثاريون إن العالم المادي هو إلى حد كبير مجال للشيطان، الذي يحتجز نفوس البشر حتى يستجيبوا لرسالة المسيح المحررة، الذي جاء ليحررهم ويعيدهم إلى ملكوته السماوي. تُولد النفوس غير المهتدية مراراً وتكراراً في أجساد من لحم ودم، إلى أن تستفيد من رسالة المخلص المحررة وأسراره. كانت الوسيلة العليا للتحرر التي تديرها كنيسة الكاثاريين هي سر العزاء، الذي كان بمثابة رسامة وطقوس الوداع وطقوس الفداء الغنوصية وغرفة الزفاف كلها في واحد. من خلال هذه الطقوس، يصبح المؤمن العادي "مؤمناً كاملاً" ويحصل على ضمان التحرر النهائي. كان منصب "الكاملين" متاحًا لكل

من الرجال والنساء، وفي الواقع قامت العديد من النساء اللامعات بأعمال عظيمة، روحية ومادية، داخل كنيسة الكاثاريين. كما هو الحال في كنيسة ماني، كذلك هنا أيضاً، سُمح لغالبية أفراد المجتمع بعيش حياتهم في العالم مع قيود قليلة جداً. ومع ذلك، لم يكن من غير المألوف أن يقوم كل من الرجال والنساء في سن النضج، بعد الانتهاء من تربية أطفالهم والتزاماتهم العائلية الأخرى، بإعادة طلب التعزية الروحية والانضمام إلى صفوف الكاملين.

كانت كنيسة الكاثار مقسمة إلى مناطق جغرافية، يرأس كل منها أسقف. كان الأساقفة يتلقون المساعدة في أداء واجباتهم من قبل اثنين من المسؤولين، يُعرفان بالابن الأكبر والابن الأصغر. عند وفاة الأسقف، يصبح الابن الأكبر أسقفاً، ويتقدم الابن الأصغر ليصبح الابن الأكبر. كان الشمامسة، الذين قاموا بمعظم أعمال الزيارة والتبشير، مرتبطين بكل أسقف. من بين الأعياد، احتل عيد العنصرة مكانة بارزة، لأن الكاثاريين كانوا متفانين للغاية في عبادة الروح القدس. لم يبنِ الكاثاريون كنائس، بل كانوا يعقدون اجتماعاتهم في منازل كبيرة، غالباً في قلاع النبلاء. كانت طاولة مغطاة بكتان أبيض ومزينة بالعديد من الشموع بمثابة مذبحهم.

كان الكاثاريون يعتبرون النفس البشرية ذات طبيعة ملائكية. لقد علّموا أن النفوس الروحية الخالصة للبشر قد سُرقت من قبل لوسيفر وحُبست من قبله في أجساد بشرية فاسدة بطبيعتها. وهكذا هنا، كما هو الحال في جميع الأنظمة الغنوصية، يتكون الإنسان من جزء من الروح وجزء من المادة الفاسدة. كان يُنظر إلى التعلق بالأشياء الدنيوية، بما في ذلك الرغبة الجنسية، على أنه نتيجة لظروف الحياة البشرية الملوثة. لقد عاشوا حياة مثالية من الزهد والتقشف، والتي تضمنت تعديلاً جذرياً لنظامهم الغذائي. تشير بعض المصادر إلى أن الكاثاريين الكاملين كانوا نباتيين، بينما تقول مصادر أخرى إنهم كانوا يثبطون تربية الحيوانات من أجل الغذاء، وبالتالي كانوا يعيشون على "ما يتحرك في الغابة والجداول". انضم النبلاء والسيدات الذين نشأوا في رغد العيش إلى صفوف النخبة بأعداد كبيرة، وعاشوا حياة بسيطة ومنضبطة.

وهكذا حُسم مصير الكاثاريين بسبب العداء والغيرة من جانب الكنيسة. في عام 1179، قام البابا ألكسندر الثالث بلعن الكاثاريين، مما يعني أنه جعلهم في الواقع قابلين للحرق. بذل رجال الدين جهوداً متضافرة، لا سيما من قبل الأعضاء البارزين في الرهبنة السيسترسية - وعلى رأسهم أرنو أماريك، رئيس دير سيستو، والمندوب البابوي بيتر من كاستيلنو - لإعادة تحويل الكاثاريين إلى الإيمان الكاثوليكي. كان سكان منطقة لانغدوك ينظرون إلى رجال الدين المتكبرين والأثرياء بازدراء ويقارنونهم بشكل غير مواتٍ مع المتواضعين.



الشكل *13*أ: تصاميم رمزية للكاثار، تم نسخها من النقوش على الأحجار والتمائم. تُظهر الأغلبية تصاميم تحتوي على الرقمين أربعة وستة، مما يدل على التوازن والانسجام.

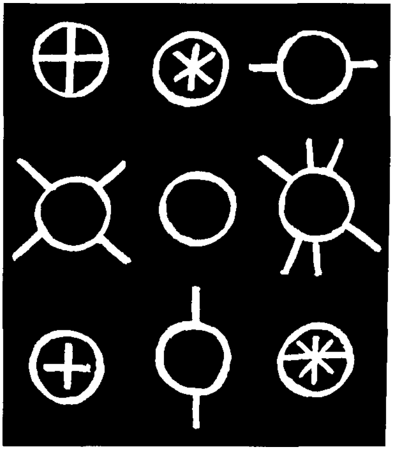
أثار أسلوب حياة الرجال والنساء الصالحين غضب رجال الدين الكاثوليك، الذين كانت أديرتهم ورهبانياتهم غالباً ما تشتهر بالفساد.

وكان من بين الخصوم الآخرين دومينيك دي غوزمان (1172-1221)، المعروف باسم القديس دومينيك. في عام 1206، كلف البابا التالي، إنوسنت الثالث، هذا الإسباني المتعصب بتولي زمام المعركة الروحية ضد الكاثاريين. في عام 1207، واجه المعلم الكاثاري الهائل، غيلهابير دي كاستر،

في المناظرة الشهيرة في فانجو، خسر دومينيك المناظرة وبالتالي خسر فرصة إعادة تحويل الكاثاريين. انصرف غاضباً، متوعداً بالانتقام.

سنحت فرصة الانتقام سريعاً. في عام 1208، بعد فترة وجيزة من مغادرة دومينيك لانغيدوك، قام المتعاطفون

مع الكاثار المسلحون بقتل المندوب البابوي، بيتر من كاستيلنو. استغل البابا إنوسنت الثالث هذه الحادثة كسبب للدعوة إلى حملة صليبية ضد الكاثاريين، وهي الحملة الصليبية الأولى والوحيدة التي شُنت على الإطلاق ضد المسيحيين. وسرعان ما تم تأسيس محاكم التفتيش المقدسة سيئة السمعة، خصيصاً لمطاردة الكاثاريين وإبادتهم. تم وضع هذه المؤسسة البغيضة تحت مسؤولية أعضاء الرهبنة الدومينيكانية، الذين كانوا مكروهين بشكل عام حتى من قبل العديد من الكاثوليك وكانوا يشار إليهم بشكل روتيني باسم "كلاب الله" *(Domini canis)*. وُعد كل



الشكل *4* تصاميم رمزية كاثارية، تُظهر اختلافات مختلفة للدائرة والصليب المحاط بدائرة. ترمز هذه التصاميم إلى الصفات الأبدية والمتوازنة للبليروما الغنوصية.

من انضم إلى الحملة الصليبية ضد الهراطقة بفوائد روحية ومادية على حد سواء. بدأت الحروب الصليبية الألبيجينية الرهيبة.

بالنسبة للكاثاريين، كان القتل، حتى في حالة الدفاع عن النفس، مخالفاً لمبادئ عقيدتهم. كانت حياة الرهبان الكاملين مكرسة بالكامل لأعمال الخدمة الدينية والممارسة الروحية. ارتدى الرجال والنساء الصالحون أثوابهم السوداء الطويلة، وجابوا الأرض يبشرون بما اعتقدوا أنه إنجيل المسيحية النقية. كانت مساكنهم، التي تشبه الأديرة المتواضعة، أماكن للصلاة والتأمل الدائمين. كان النبلاء الكبار يميلون بشكل خاص إلى عقيدة الكاثار، لكن سكان المدن والفلاحين انجذبوا أيضاً إلى هذا الشكل من الغنوصية. كان مواطنوهم الذين بقوا في الكنيسة الكاثوليكية يكنون للكاثار احتراماً ومودة. في الواقع، غالباً ما كان رجال لانغدوك الكاثوليك يتقدمون للدفاع عن الكاثاريين الكاملين بسيوفهم وأرواحهم.

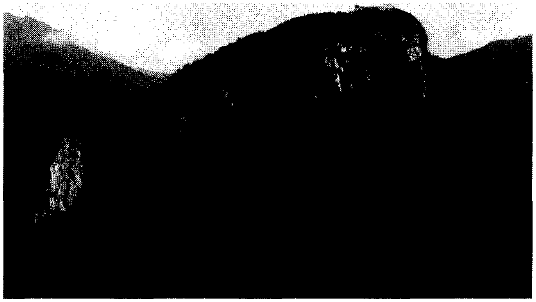
إيمان رقيق تم القضاء عليه

من عام 1209 وحتى ما يقرب من عام 1250، تدفقت موجات متتالية من جيوش الحملات الصليبية إلى منطقة لانغيدوك. بذل حكام تولوز محاولات يائسة لتأخير وتجنب مذبحة رعاياهم. قاتل سكان البلاد وعانوا ببسالة. كثيراً ما كان يتم ذبح الكاثوليك مع الكاثاريين، كما في الحادثة سيئة السمعة في بيزييه، حيث صدر الأمر بقتل الجميع بالسيف، مصحوباً بالكلمات: "الله سيعرف خاصته!" هذه الملاحظة، وإن كانت ملفقة، إلا أنها تجسد الروح البربرية للحملة الصليبية الألبيجينية.

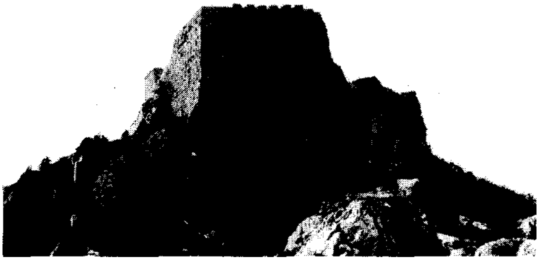
كانت مينيرف، وبيزييه، وكاركاسون، وتولوز، وبويفير، وبويلورين، وغيرها الكثير، هي القلاع والمدن، والبلدات والقرى، حيث دارت المعارك الدامية. عادة ما كان يتبع حصار وهزيمة كل قلعة ومدينة حرق جماعي للزنادقة. امتزجت رائحة نباتات البحر الأبيض المتوسط الجميلة في البلاد مع الدخان اللاذع الناتج عن حرق اللحم البشري. لقد استمتع الجنود المتوحشون القادمون من الشمال، بمن فيهم البريتونيون والفلمنكيون وحتى البلطيقيون والإنجليز، بنهب واحدة من أجمل الأراضي وأكثرها ثقافة في أوروبا. بقيادة سيمون دي مونتفورت القاسي والفظيع في البداية، والذي لم يتفوق على تشدده إلا جشعه، حيث جمع الأراضي والقلاع لإثرائه الشخصي، ترك الصليبيون انطباعًا بغيضًا لدرجة أنه لا يزال قائمًا في المنطقة حتى يومنا هذا. قُتل مونتفورت أثناء حصار تولوز بواسطة منجنيق استخدمته امرأة محلية بطولية، لكن مكانه حل محله قادة لا يقلون عنه شراسة ولا إنسانية.

مما لا شك فيه أن أقدس مكان، وأكثر مكان مأساوي للهزيمة والموت، بالنسبة للكاثاريين كان قلعة مونسيغور الشهيرة. يبدو أن هذا الموقع المقدس يعود إلى عصور قديمة جداً، وقد أصبح يُعرف باسم "جبل طابور الغربي" للكاثاريين. تم ترميم هذا الهيكل الرائع على يد زعيم الكاثاريين غيلهابيرت دي كاستر بالتعاون

مع الحكيمة العظيمة الكونتيسة إسكلاريموند دي فوا، ويقع فوق صخرة عملاقة (البوغ) في الجبال العالية في أرييج. في عامي 1243-1244، صمدت المدينة أمام حصار طويل من قبل الصليبيين، وبعد ذلك تم الاستيلاء عليها فيما أطلق عليه الروائي لورانس دوريل بشكل شعري اسم "ثيرموبيلاي النفس الغنوصية". في 16 مارس 1244، اقتاد خاطفوهم مئات من الكاثاريين الكاملين من كلا الجنسين، زهرة ما تبقى من كنيسة الكاثاريين، إلى حقل عند قاعدة صخرة مونسيغور وأحرقوا جماعياً. لا يزال المكان معروفًا



الشكل15 جبل وأطلال مونسيغور في لانغيدوك. عند سقوطها، تم اختراق القلعة من الجانب شديد الانحدار للجبل. في 16 مارس 1244، أُحرق مئات من الكاثاريين الكاملين على محرقة جماعية ضخمة عند سفح الجبل.



الشكل 16. أطلال قلعة مونسيغور. كانت هذه القلعة بمثابة مزار مقدس محصن وملجأ للعديد من آخر الكاثاريين الكاملين.

حتى يومنا هذا باسم "حقل المحروقين"، ويذكر نصب تذكاري متواضع أقامه معجبو الكاثاريين الزائر بهذا الحدث. قبل ثلاثة أيام من الحريق، تلقى عشرون من أتباع الكاثارية وثيقة العزاء، وبذلك حكموا على أنفسهم بالموت المحتوم. صعدوا جميعاً إلى النيران بفرح، وهم يغنون الترانيم.

بعد إبادة آخر الكاثاريين في لانغيدوك، استمرت عقيدتهم لبعض الوقت في إيطاليا. لم يعلن أتباعها السريون في الدول الأوروبية الأخرى ولاءهم لأسباب واضحة.



الشكل. ***18.*** نصب تذكاري لشهداء الكاثار، أقيم في مونسيغور حوالي عام 1960. تحاكي المسلة البسيطة علامة كاثارية قديمة. الصليب المحاط بدائرة في الأعلى هو صليب تقليدي للكاثاريين. الصليب السفلي هو الصليب الشعاري لمقاطعة تولوز.



الشكل 17. بوابة المعقل المقدس للكاثاريين في مونسيغور. البوابة بناء متأخر، ومع ذلك فهي تنجح في نقل سحر هذا الموقع غير المألوف. يسير آلاف الزوار الحجاج اليوم عبر هذه البوابة وهم يؤدون التحية لذكرى الكاثاريين.

وتقول التقاليد إن المؤسس الأسطوري للروزيكروشيان، كريستيان روزنكرويتز، كان سليل عائلة جيرميشاوزن الفروسية، وهي عائلة مارست عقيدة الكاثار سراً لأجيال.

في العقود الأخيرة، ازداد الاهتمام بتقاليد وتاريخ الكاثاريين. تم تسمية الشوارع والطرق السريعة في منطقة لانغدوك باسمهم، ويحظى ذكراهم باحترام وتقدير كبيرين من قبل السكان المحليين والعديد من الزوار الذين يقومون برحلات حج إلى المواقع المقدسة للكاثار. تحكي أدبيات متنامية باللغة الفرنسية ولغات أخرى قصة مجد الكاثاريين واستشهادهم، وتعيد سردها مراراً وتكراراً. ومثل الأشكال الأخرى للتقاليد الغنوصية، فإن هذا التجسيد النبيل للمعرفة الغنوصية يظهر تدريجياً في ضوء الوعي المعاصر.

ذكرت إحدى معارف المؤلفة الشخصية، وهي أمريكية مغتربة تقيم في بيزييه، اسم "كاثار" لأحد جيرانها المحليين. نظر إليها الرجل الريفي المسن بتعبير غريب وقال: "الكاثاريين، سيدتي؟ لطالما كنا من الكاثاريين، على الرغم من أننا لا نتحدث عن ذلك. سنبقى نحن أيضاً دائماً كاثاريين." وهكذا فإن الظل الطويل للرجال والنساء الصالحين يلقي بظلاله حتى على عالمنا وحياتنا في الوقت الحاضر.

تراث الغنوصية: إحياء الغنوصية

Th

يمكن القول إن التقاليد الغنوصية تتكون من عنصرين. أولها هو تقليد التعاليم والممارسة. منذ القرون المسيحية الأولى على الأقل، كان هناك انتقال واضح ومحدد للطابع الغنوصي. سواء نظرنا إلى تعاليم النبي ماني، أو أقاربه الروحيين الإسكندريين والسوريين في فترة سابقة قليلاً، أو الحركات الغنوصية العديدة في الشرق الأوسط التي انحدر منها المندائيون اليوم، أو البوغوميل في معاقلهم في البلقان، أو الكاثار في جبال البرانس - نجد في كل مكان رسالة مشتركة للخلاص عن طريق الغنوص وبعض التعاليم المصاحبة لها.

أما المكون الثاني فهو أقل تحديداً. يتكون من موقف ذهني معين، وبيئة نفسية. يُنسب إلى ترتليان، أحد آباء الكنيسة، قول "النفس مسيحية بطبيعتها". وبالمثل، فإن نوعًا معينًا من النفس هو بطبيعته غنوصي. بغض النظر عن بيئتها الجغرافية والثقافية والروحية، فإن مثل هذه النفس تنجذب حتماً نحو

رؤية عالمية غنوصية. عندما

يلتقي هذا الاستعداد النفسي بمحفز عنصر ما من عناصر النقل الغنوصي، فمن المؤكد أن نهضة غنوصية ستنشأ. وبالفعل، شهد التاريخ نهضات غنوصية.

مع انتصار المسيحية الأرثوذكسية بعد قسطنطين، اختفت التقاليد الغنوصية في الخفاء. وجاءت الضربة القاضية للمسيحية الغنوصية المبكرة في أواخر القرن الرابع، عندما اندلعت موجة من الاضطهاد الشديد على أتباع الأسقف الإسباني بريسليان الأفيلاوي، على الرغم من توسلات المسيحيين الأرثوذكس الخيريين، بمن فيهم القديس مارتن التورسي. من هذا الوقت فصاعدًا، جعل البحث المستمر عن الغنوصيين، الذين يطلق عليهم عادةً اسمًا زائفًا المانويين، من الصعب على الغنوصيين البقاء على قيد الحياة. لم تظهر الغنوصية من جديد في أوروبا الغربية إلا مع صعود الكاثاريين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

على الرغم من طابعها المسيحي إلى حد كبير، كان للغنوصية تأثير واضح على الإسلام، وخاصة على مدارسه الصوفية، مثل التصوف والطائفة الإسماعيلية. بل ربما كان النبي محمد نفسه على دراية ببعض جوانب الغنوصية، لأن الجماعات الدينية الغنوصية كانت وفيرة في عصره، وكثيراً ما كان الناس المنتمون إليها يعتنقون الإسلام. يُنسب إلى نبي الإسلام قوله إن المسيحيين دمروا الأناجيل الحقيقية ليسوع واستبدلوها بأناجيل محرفة. هل كان يشير إلى الأناجيل الغنوصية؟ ربما. أقرّ الشيخ الصوفي الكبير السهروردى، في كتابه "فلسفة الإشراق" (1186)، صراحةً بالمصادر الأفلاطونية والغنوصية لإشراقه. وحتى يومنا هذا، لا يزال العنصر الغنوصي في التصوف واضحاً للعيان.

الغنوص، والإصلاح، وما بعد الإصلاح

كان للإصلاح البروتستانتي بعض الروابط الضعيفة بالغنوصية. كان لوثر يدرك أن الاعتبار الغنوصي الأساسي للتجربة الروحية الشخصية

قد اختفى إلى حد كبير من الكنيسة الكاثوليكية في عصره، وكان يرغب في استعادته. لكن نيته كانت مشؤومة. سرعان ما أدى التحالف المشؤوم بين الأمراء الألمان المتعطشين للسلطة ورجال الدين اللوثريين العاديين إلى خنق بوادر الغنوصية في قلب البروتستانت. مع اختفاء الأفكار والممارسات الغنوصية أو حتى الصوفية المعتدلة من العقيدة الإصلاحية، بدأت الطوائف الباطنية التي كانت ذات طبيعة غنوصية إلى حد كبير في الظهور في ألمانيا خارج الكنيسة الرسمية.

كان جاكوب بوهمه (1575-1624)، صانع الأحذية الصوفي من غورليتس، شخصية غنوصية ألمانية مهمة في ذلك الوقت. بعد أن تعرض هذا العالم الريفي الملهم للمضايقات المستمرة من قبل رجال الدين اللوثريين المحليين، كتب عدداً من الكتب الصوفية التي لاقت رواجاً بين الأشخاص ذوي الميول الباطنية في جميع أنحاء أوروبا. استلهم بوهمه فلسفته من تجاربه الصوفية الخاصة، لكن كتاباته تُظهر أنه كان مطلعًا جيدًا على تقاليد الفكر الصوفي البديل. بحلول هذا الوقت، حدث عصر النهضة، مع إحياء الحكمة الهرمسية والكابالية، مما أعطى دفعة قوية لعلم الخيمياء. كان بوهمه على دراية بجميع هذه التخصصات الباطنية، وقام بدمجها في نظامه الخاص بالغنوص. لقد علّم أن الروح البشرية هي نار إلهية انبثقت من جوهر الله. إن مصير هذه الروح، المسجونة في الظلام حيث تعاني من ألم وحزن شديدين، هو أن تتحد مع النور الإلهي البدائي. إن لهيب الحب هو القوة الموحدة التي من خلالها يمكن للروح البشرية أن تصل إلى مصدرها الإلهي. كان لتعاليم بوهم الغنوصية تأثير كبير على أفراد متنوعين مثل المتصوف الفرنسي سان مارتان، والكويكر جورج فوكس، والثيوصوفية مدام بلافاتسكي.

إن أحد أكثر التطورات رومانسية وغموضاً في فترة ما بعد الإصلاح يتعلق بملحمة الروزيكروشيان. في عام 1614 في كاسل بألمانيا، نُشر كتاب صغير، عُرف عنوانه الطويل لاحقًا باسم *Fama Fraternitatis* (قصة

الأخوة) أو مجرد الاسم. في هذا الكتاب، حث المؤلف المجهول رجال أوروبا المتعلمين على التكاتف في جمعية مخصصة لإصلاح المعرفة العالمية على أسس روحية. وقدّم المؤلف المساعدة في هذه المهمة من قبل جماعة أخوية غير معروفة حتى الآن، وهي جماعة الروزيكروشيان.

ولتحديد خلفية لهذا الطلب، يروي *Fama* قصة رومانسية عن نبيل ألماني، كريستيان روزنكرويتز (الصليب الوردي)، الذي يقال إنه عاش من عام 1378 إلى عام 1484. في شبابه، سافر إلى المغرب، حيث التقى وتلقى تعليماً من خبراء بارزين في العلوم الروحية. بعد عودته إلى أوروبا، جمع حوله مجموعة صغيرة من الرجال ذوي التفكير المماثل وأسس النظام الروزيكروشيان. بعد وفاته، استمر الروزيكروشيان في العمل سراً، حتى انقضت مائة سنة. ثم، باتباع التعليمات الأصلية لمؤسسهم، دخل الأعضاء قبره، حيث لم يجدوا فقط جثة المؤسس غير المتحللة، بل وجدوا أيضًا عددًا من الأشياء والوثائق الغامضة، مما ألهمهم للتخلي عن سريتهم والظهور كجمعية نشطة مرة أخرى. وهكذا حان الوقت لإعلان الأمر علنًا مرة أخرى.

تبع كتاب فاما بعد عام كتاب آخر، وهو اعتراف الأخوية الروزيكروشيان. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه المنشورات وغيرها، يبدو أن الأخوية السرية المزعومة قررت البقاء سرية. بحث الناس عن إخوان النظام في كل مكان لكنهم لم يعثروا على أحد. اعتبر المتشككون الأمر برمته مجرد خدعة، بينما واصل آخرون بحثهم. في القرن الثامن عشر، وبدافع من زخم عصر التنوير، نشطت جماعة الروزيكروشيان المرتبطة بحركة الماسونية الجديدة والشائعة آنذاك. كان من بين أعضاء هذه الجمعية الروزيكروشيان التي تم إحياؤها نخبة المجتمع الألماني، بما في ذلك أحد ملوك بروسيا. أثارت النبرة السياسية المحافظة للنظام استياء ذوي النزعة الثورية الذين انجذبوا أيضاً إلى الرومانسية الروزيكروشيان.

لكن الاسم دعا إلى إصلاح شامل للمعرفة بدلاً من تغيير جذري للمجتمع.

يبقى وجود النظام الروزيكروشيان الأصلي أمراً غير مؤكد. لا شك في أن أسطورة الروزيكروشيان أصبحت نموذجاً أصلياً مهماً في الفكر الباطني. وهنا يمكن البحث عن صلتها بالغنوصية. من الواضح أن وثائق الروزيكروشيان لها أساس خيميائي؛ إحداها، الزواج الخيميائي لكريستيان روزنكرويتز، تصور عملية الاقتران الخيميائي. كما كشفت أبحاث يونغ، فإن للخيمياء علاقة وثيقة بالغنوصية. علاوة على ذلك، فمن المحتمل جدًا أن يكون كريستيان روزنكرويتز الغامض كاثاريًا ألمانيًا رغب في تأسيس تقليد غنوصي بصيغة جديدة. كتب الباحث الفرنسي الرائد في القرن العشرين حول الكاثاريين، موريس ماغري، في كتابه "عودة المجوس" (91):

> وهكذا، من غابة الألبيجنسيين العظيمة، التي تم قطعها وتحويلها إلى رماد، لم يبقَ سوى رجل واحد، كان عليه أن يخلّد العقيدة من خلال تحويلها... من الألبيجنسيين انبثق في منتصف القرن الرابع عشر الحكيم المعروف بالاسم الرمزي كريستيان روزنكرويتز والذي كان آخر سليل لعائلة جيرميشاوزن الألمانية (أو جيرميلشوسن). لا يوجد نص مكتوب، ولا دليل تاريخي. كيف يمكن أن يكون ذلك؟

كان ماغري منغمسًا بعمق في التقاليد الباطنية لفرنسا، وربما كان على دراية بتقاليد شفهية غير معروفة للآخرين. على أي حال، استمر وجود ارتباط مستمر بين حركات إحياء الروزيكروشيان المختلفة والتقاليد الغنوصية، وهذا في حد ذاته أمر مهم.

البذور الغنوصية

للتنوير والثورة

الموجودة على التمائم الغنوصية القديمة. الصليب المحاط بدائرة ومتساوي الأذرع

لم يكن التنوير الذي سعى إليه الغنوصيون هو نفسه المثل العليا وأهداف عصر التنوير في القرن الثامن عشر.

الشكل *19*. ميداليات كاثار من مونتسيغور. التصميم الزهري النجمي ذو الست بتلات يشبه إلى حد كبير الزخارف

أواخر العصور الوسطى.

لا يمكن للمرء أن يسافر إلى أي مكان في أرض فرنسا الجميلة دون أن يصادف آثارًا فرسان الهيكل. كانت فرسان الهيكل، إحدى أعظم ثلاث تنظيمات للفرسان في الحروب الصليبية (والتنظيمان

يُفهم التنوير الغنوصي، أو الغنوص، على أنه بصيرة روحية خلاصية. كان تنوير فولتير وزميله الفيلسوف بمثابة طرد للظلام والجمود الفكري للكنيسة في العصور الوسطى. ومع ذلك، كان الاثنان مرتبطين في أصولهما واتجاههما الأساسي. لفهم المكون الغنوصي لعصر التنوير، من الضروري النظر إلى حقبة سابقة، وهي

الأخريان هما فرسان مالطا وفرسان تيوتونيك)،

فرنسية في الغالب، وتذكر مبانيها وكنائسها المسافر بالقوة والثروة العظيمة التي امتلكتها هذه الرتبة من الرهبان المحاربين في يوم من الأيام.

تأسست هذه الجماعة في القرن الثاني عشر في الأراضي المقدسة، وكانت في البداية مخصصة لإيواء وحماية الحجاج إلى المواقع المقدسة. يبدو أن بعض فرسانها المؤسسين البارزين كانوا يميلون إلى الروحانية الباطنية، واستمرت هذه الميول داخل النظام حتى نهايته المأساوية. أبدى هيوز دي باينز، أول زعيم لفرسان الهيكل، اهتمامًا ببدعة الكاثار، وتعاليم

قد يكون رمزًا للأبراج الفلكية. فوي دي سانت أدهيمار (الذي يكتب أحيانًا خطأً "سانت أومير")، وهو من مواليد لانغيدوك. ومن المحتمل أيضًا أن يكون فرسان الهيكل الأوائل على دراية بمذاهب نظام الحشاشين، وهي جمعية عسكرية صوفية تابعة لجماعة "إسماعيلية" يرأسها مرشد روحي يُدعى شيخ الجبل. والأهم من ذلك، يبدو أن فرسان الهيكل الأوائل قد التقوا في الأرض المقدسة، أو في أماكن قريبة منها، بجماعة غنوصية مرتبطة بأسرار القديس يوحنا المعمدان - على الأرجح جماعة



الشكل *20*. مسلة كاثارية، ربما تكون شاهدة قبر. يظهر التصميم شجرةً تتوجها زهرة ذات اثنتي عشرة بتلة.

مندائية.قد يكون ذلك رمزاً للمجتمع المندائي. استقى

فرسان ء

،

الهيكل من هذه المصادر تعاليم

قاموا باستيرادها سراً إلى أوروبا، وبشكل أكثر تحديداً إلى وطنهم الفرنسي.

كان لمؤسسي نظام فرسان الهيكل راعٍ قوي بين الكاثوليك الأرثوذكس في القديس برنارد من

كليرفو، الذي لم تخلُ تعاليمه الصوفية المتعلقة بالسيدة الغامضة في نشيد الأناشيد من دلالات باطنية. وبمساعدة برنارد، أصبح فرسان الهيكل راسخين في مكانتهم ولم يخضعوا للمحاكمة إلا من قبل البابا. ازدادت ثروتهم، وكذلك ازداد الحسد الذي وجهه إليهم ملوك فرنسا.

لم تتحسن علاقة الفرسان بالملكية الفرنسية بسبب امتناع فرسان الهيكل عن المشاركة في الحملة الصليبية ضد الكاثاريين. وهكذا، بعد نصف قرن، في 13 أكتوبر 1307، تم حل النظام بتواطؤ من ملك فرنسا والبابا (وهو فرنسي مدين للملك).

وتم اعتقال كبار مسؤوليها. وبعد فترة، تم حرق السيد الأكبر، جاك دي مولاي، إلى جانب العديد من الفرسان البارزين، على الخازوق بتهمة الهرطقة. أعقب ذلك اضطهاد مرعب للفرسان، ولم ينجُ منهم إلا عدد قليل في عدد قليل من البلدان الأجنبية. لم يعد نظام فرسان الهيكل العظيم موجوداً.

حدث تفكك فرسان الهيكل واستشهادهم في ذكرى تدمير منطقة لانغيدوك ومحرقة الغنوصيين الكاثاريين. لكن بينما وقعت أحداث لانغدوك المروعة في ركن صغير من الأرض، كان غريباً في ذلك الوقت على معظم الفرنسيين، فإن مقتل فرسان الهيكل كان يهم الشعب الفرنسي بأكمله. كان النفور الذي شعر به الناس تجاه الملك والبابا عظيماً ودائماً. وكما كشفت الكنيسة عن نفسها في الحرب ضد الكاثاريين كمؤسسة قاسية ووحشية، كذلك ظهر الملك الآن كطاغية جاحد أمر بقتل أبرز رعاياه. وهكذا زُرعت بذور السخط الجذري على العرش والمذبح في فرنسا.

أربعمائة عام مدة طويلة، ومع ذلك استغرق الأمر كل هذا الوقت حتى تثمر هذه البذور. أولاً، أصبحت النخبة المثقفة الفرنسية مصممة على التراجع عن سلطة الكنيسة والملكية البوربونية. ولتحقيق ذلك، استخدموا القلم بدلاً من السيف. أطلقت كتاباتهم سيلاً من الأفكار، جميعها تنتقد الكنيسة وبعضها ينتقد النظام الملكي أيضاً. أما الخطوة الثانية فقد حدثت مع اندلاع الثورة الفرنسية. ويُقال إنه عندما اقتيد لويس السادس عشر من قبل جلاديه إلى المقصلة، قال: "هذا هو انتقام جاك دي مولاي".

هذا التفسير للتاريخ الفرنسي، وإن لم يكن معيارياً بالتأكيد، إلا أنه راسخ بقوة في الأوساط الباطنية في فرنسا وأجزاء أخرى من أوروبا. ومن بين المؤرخين، تقدم زوي أولدنبورغ، الكاتبة الرائدة في مجال الكاثاريين، العديد من التصريحات في كتابها ″مذبحة مونسيغور″ التي تتطابق تقريبًا مع هذه النظرية.

غنوصيون عصر التنوير

بحلول القرن الثامن عشر، كان قد مر أكثر من ألف عام منذ أن تجرأ أي شخص على قول أي شيء إيجابي عن المانويين. أول من فعل ذلك لم يكن سوى فولتير. في روايته "كانديد"، يصور عالماً رحالاً عجوزاً يدعى مارتن، وهو مانوي، ويجادل بنجاح ضد التفاؤل السطحي للمقولة الشائعة "كل شيء على ما يرام في أفضل العوالم الممكنة". وفي قصته القصيرة "حلم أفلاطون"، يُظهر فولتير معرفة جيدة بالتعاليم الغنوصية، والتي يذكرها بنبرة إيجابية.

كان يوهان فولفغانغ فون غوته أحد أبرز الشخصيات في عصر التنوير، وهو معروف حتى يومنا هذا في البلدان الناطقة بالألمانية باسم شاعر الأمراء وأمير الشعراء. وعلى عكس فولتير، فقد مارس علنًا العلوم الباطنية، وخاصة الخيمياء. كتب بيتاً شعرياً شهيراً عن الكاثاريين، والذي يُترجم إلى: "كان هناك من عرفوا الأب". ما الذي حدث لهم؟ أوه، لقد أخذوهم وأحرقوهم! إن العمل الرئيسي لغوته، بالطبع، هو فاوست. كما هو مذكور في الفصل الثامن، استُلهمت شخصية فاوست من صورة المعلم الغنوصي المبكر سمعان الساحر، الذي كان أحد ألقابه التشريفية فاوستوس. بينما في مسرحية كريستوفر مارلو التي تعود إلى القرن السادس عشر، وهي المحاولة الوحيدة السابقة لتصوير الساحر الغنوصي القديم، تسود الآراء اللاهوتية المسيحية التقليدية عندما يُحكم على فاوست باللعنة الأبدية، فإن فاوست غوته لا يعاني من هذا المصير ولكنه يُفتدى عن طريق الأنوثة الأبدية - وهو تلميح محتمل إلى صوفيا الغنوصية.

إن نظير غوته في الأدب الإنجليزي من جميع النواحي هو بالطبع ويليام بليك. سجل صديق بليك، هنري كراب روبنسون، أن بليك كان غالباً ما "يكرر مذهب الغنوصيين". وقد علق آخرون أيضاً على الطابع الغنوصي لأعمال بليك، وتشير تعليقات بليك نفسه المسجلة من قبل آخرين إلى جانب روبنسون إلى نفس الاتجاه. لم يكن لدى بليك أي حاجة إلى كون نيوتن المنظم جيداً والذي يشبه

الساعة. (يتساءل المرء كيف كان بليك سيرد على التحدي الذي تمثله نظرية الفوضى وغيرها من التطورات ما بعد الحداثية للعلوم الكلاسيكية.) قال بليك في إحدى المناسبات: "الطبيعة من عمل الشيطان". كانت "الطبيعة" تعني بالنسبة له كل الخليقة.

حتى قصيدة بليك الأكثر شعبية وبساطة، "النمر"، تتساءل بأسلوب غنوصي في البيت الثاني: "أي يد أو عين خالدة / تجرؤ على صياغة تناسقك المخيف؟" والإجابة الضمنية هي أنه الديميورج، الذي يظهر مرارًا وتكرارًا في أعمال بليك باسم أورثونا (مالك الأرض)، وقديم الأيام، وتحت أسماء أخرى. إن موضوع العالم باعتباره خلقًا أدنى لكائنات أدنى أصبحت هي نفسها مسجونة بخلقها الخاص قد تم ذكره بوضوح من قبل بليك: "إن العمالقة الذين شكلوا هذا العالم في وجوده الحسي ويبدو الآن أنهم يعيشون فيه مكبلين بالسلاسل، هم في الحقيقة سبب حياته ومصدر كل إبداع" *(زواج السماء والجحيم)*.

كان بليك سيتفق بشكل وثيق مع الكاربوقراطيين وغيرهم من الغنوصيين الذين يطلق عليهم اسم مناهضي الشريعة. في "أمثال الجحيم" في كتابه *"زواج السماء والجحيم"*، يصدم الحساسيات الأخلاقية المتدينة تمامًا كما قد يصدمها بعض الغنوصيين: "طريق الإفراط يؤدي إلى قصر الحكمة". تُبنى السجون بأحجار الشريعة، وتُبنى بيوت الدعارة بطوب الدين. ولعل تعريف بليك لـ "مهمته العظيمة" في القدس هو التعريف الشعري الأكثر كمالاً للغنوص على الإطلاق: "فتح العوالم الأبدية، وفتح عيون الإنسان الخالدة إلى الداخل في عوالم الفكر إلى الأبدية التي تتوسع باستمرار في حضن الله، الخيال البشري".

كان غوته وبليك من المستفيدين من الجهد الواعي الذي بذله بعض كبار شخصيات عصر التنوير لإعادة تأهيل الغنوصيين وإزالة الصورة القبيحة التي فرضت عليهم عبر العصور من خلال التكرار اللامتناهي لافتراءات آباء الكنيسة. لم يكونوا على دراية بفولتير فحسب، بل والأهم من ذلك بعمل بيير بايل السابق *"القاموس التاريخي والنقدي"*،

وهو العمل الموسوعي الأكثر شمولاً في القرن الثامن عشر. وجد الغنوصيون من جميع المدارس في بايل مدافعاً فصيحاً وعالماً.

كان هيرمان ميلفيل شخصية أدبية عظيمة تأثرت بشدة بعصر التنوير. لقد تم التعليق على الغنوصية الموجودة في روايته "موبي ديك" من قبل العديد من الكتاب (ستيوارت هولرويد وإدوارد إيدنجر، على سبيل المثال) وبالتالي لا داعي لتكرارها هنا. قد يُعتبر الكابتن أهاب مجنوناً في نظر معاصريه العقلانيين، لكن العديد من أقواله تستحق أن تُخلّد في كتابات الغنوصية القديمة. فعلى سبيل المثال، في الجزء الأخير من عمل ميلفيل، يهاجم آهاب الإله الخالق:

> أنت لا تعلم كيف أتيت، ولذلك تسمي نفسك غير مولود: أنت بالتأكيد لا تعلم بدايتك، ولذلك تسمي نفسك بل بداية. أنا أعرف عن نفسي ما لا تعرفه عن نفسك، يا أيها القدير. هناك شيءٌ لا يزول وراءك، لا تمثل لك أبديتك إلا الزمن، كل إبداعك آلي.

لا شك أن عصر التنوير أحدث تغييراً جذرياً في آراء العديد من العباقرة البارزين في تلك الثقافة فيما يتعلق بالغنوصيين ومعتقداتهم. أصبح الطريق الآن مفتوحاً أمام الفكر الغنوصي للرومانسيين، وفي أعقابهم، أمام إحياء العلوم الخفية في القرن التاسع عشر.

من الرومانسية إلى الغنوص الخفي

كانت الرومانسية إحدى الورثة المباشرين لعصر التنوير، وهي حركة متنوعة لم تتميز برؤية مركزية للعالم بقدر ما تميزت بمشاعر حارة غالباً ما توجه إلى رؤى تتجاوز هذا العالم. لم يكن لدى بعض الرومانسيين، مثل شيلي وبايرون، أي اهتمام بأي شيء له علاقة بالله أو الدين؛ بينما قام آخرون، مثل وردزورث، بتنمية نزعة صوفية طبيعية كانت ستكون غير مقبولة لدى الغنوصي. ومع ذلك،

فإن أعمال ممثلين آخرين للرومانسية تحمل طابعاً غنوصياً مميزاً. كان الرومانسيون يحتقرون العالم الدنيوي بشكل معتاد ويتوقون إلى عبادة الجلال والروعة. لقد رفعوا من شأن الخيال البشري بطريقة كانت ستجذب الغنوصيين والأفلاطونيين الجدد والصوفيين. ربما يكون "سخطهم الإلهي" على الحياة العادية وسعيهم المتعمد إلى حالات وعي غير عادية قد جعلهم محبوبين لدى بعض الغنوصيين. باختصار، كان هناك بعض الغنوص بين الرومانسيين، على الرغم من أنها كانت غير مكتملة إلى حد ما.

كان القرن التاسع عشر فترة من التغيير والضغط الكبيرين، ليس فقط في الحياة السياسية والصناعية والعلمية للثقافة الغربية، ولكن في حياتها الروحية أيضًا. لقد تحول الإعجاب الشديد بالكون النيوتني إلى اهتمام بمفاهيم أكثر تعقيداً، وأحياناً أكثر عمقاً. أثار داروين ونظريته في التطور البيولوجي تساؤلات حول العقائد المسيحية التقليدية المتعلقة بالخلق. كان هناك الكثير من عدم اليقين، وكذلك الكثير من الفحص المتحمس للأفكار والإدراكات التي لم يتم استكشافها من قبل. وفي خضم كل هذا، لم يتم نسيان الغنوصيين. في ألمانيا، استحضرت ملحمة نيكولاس ليناو *"Die Albigenser"* (الألبيجنسيين) قصة الكاثاريين الشهداء، بينما بدأ علماء الكتاب المقدس في ألمانيا وفرنسا في تناول عدد من المخطوطات الغنوصية التي ظهرت بشكل غير مفهوم تقريبًا في المكتبات والمحفوظات الأوروبية والإنجليزية.

فيما يمكن تسميته بالجانب التجريبي للروحانية، ظهرت ظاهرة الروحانية الشامانية الجديدة الشائعة. كانت جلسات تحضير الأرواح تُعقد في البيت الأبيض، وفي بلاط نابليون الثالث، وفي العديد من قلاع المجتمع الراقي، بينما كان عامة الناس يترددون على الوسطاء الروحيين في أماكن أكثر تواضعاً. اقتنع ملايين الناس بأنهم ليسوا بحاجة إلى التأكيدات الدينية المتدينة بشأن الحياة بعد الموت. لقد شعروا أن بإمكانهم المعرفة بشكل مباشر - وهو اعتقاد يتردد صداه مع الفكرة الأساسية للغنوصية.

كان إليفاس ليفي، عالم الكابالا الفرنسي والباحث في السحر الاحتفالي،

شخصية مهمة في منتصف القرن التاسع عشر، وأصبحت كتبه القراءة المفضلة للأشخاص الذين أطلقوا على أنفسهم بشكل متزايد اسم "المتخصصين في العلوم الخفية". لم يكن ليفي غنوصياً، أو على الأقل لم يؤيد الغنوصية علناً. وفي الوقت نفسه، قام عملياً بتسليط الضوء على كامل نطاق المواضيع المتعلقة بالغنوصية. أصبحت الغنوصية اليهودية للكابالا موضوعاً ذا أهمية بالغة بين غير اليهود المهتمين بالعلوم الخفية. في أعقاب إنجازات ليفي الرائدة، ظهرت على الساحة أعظم شخصية في إحياء العلوم الخفية، هيلينا بتروفنا بلافاتسكي، أو H. P.B. كما كان أصدقاؤها وأتباعها يطلقون عليها بمودة. لقد أصبحت الشخصية المحورية للحركة الروحية البديلة ليس فقط في القرن التاسع عشر ولكن في جزء كبير من القرن العشرين أيضاً.

بلافاتسكي كغنوصية

وُلدت هـ. ب. بلافاتسكي في روسيا عام 1831، وقد ساهمت بشكل كبير في إحياء الغنوصية التي نشهدها اليوم. كانت اهتمامات هذه المرأة الاستثنائية واسعة النطاق. أطلقت على نظامها التعليمي اسم "الثيوصوفيا"، مُحيِيةً بذلك مصطلحاً قديماً استخدمه الفيلسوف الأفلاطوني المحدث أمونيوس السقاص. حيثما يوجد الأفلاطونيون الجدد، لا بد أن يكون الغنوصيون بعيدين عنهم. كان لدى بلافاتسكي اهتمام عميق بالغنوصية، وقد علقت على هذا التقليد بشكل موسع (تتألف مجموعة كتاباتها المتعلقة بالغنوصية من أكثر من 270 صفحة). إن طالب الغنوصية المعاصر، الذي لديه إمكانية الوصول إلى نصوص نجع حمادي الغنوصية، سينبهر بشدة، إن لم يكن سيُذهل تمامًا، بفهم بلافاتسكي الغريب للغنوصية.

لم تكن بلافاتسكي مهتمة بإحياء الغنوصية القديمة. يطمح نظامها، الثيوصوفيا، إلى عالمية تتحد فيها الباطنية البوذية والهندوسية مع نظائرها في

الروحانية الغربية البديلة. الكثير من مصطلحاتها مشتق من اللغة السنسكريتية، وكذلك مفاهيمها الأكثر شيوعاً وعملية حول الكارما والتناسخ. وبالمثل، تحتل الغنوصية مكانة مرموقة بين التقاليد التي حاولت دمجها في كتبها، وخاصة في كتاب "العقيدة السرية". لا يمكن لأي شخص مطلع على مجموعة تعاليم بلافاتسكي ومتعاطف معها أن يتجاهل الغنوصية أو يفكر فيها بشكل سيء.

يحمل النظام الثيوصوفي لبلافاتسكي بالضرورة بعض بصمات أواخر القرن التاسع عشر وروحه، تمامًا كما تحمل الغنوصية بصمات عصرها المحدد. كان أواخر القرن التاسع عشر فترة اتسمت بروح متفائلة معينة. على الرغم من أن التشاؤم الغنوصي الذي ينكر العالم يتم تخفيفه دائمًا بنوع من التفاؤل المطلق الذي يشير إلى عودة النفس المجيدة إلى واقع أفضل، إلا أنه لم يكن متوافقًا تمامًا مع النبرة المتفائلة والمبادرة والتقدمية للقرن التاسع عشر. وهكذا لم تلفت بلافاتسكي الانتباه كثيراً إلى هذه السمة من سمات الغنوصية، على الرغم من أنها



الشكل *21*.هيلينا بتروفنا بلافاتسكي (1831-1891)، رحالة روسية المولد، ومُحبية للتقاليد الروحية البديلة في الغرب. كانت من أشد المؤيدين للغنوصية، وقد خصصت لها ما يقارب ثلاثمائة صفحة في كتاباتها. تُعد بلافاتسكي من المؤسسين الرئيسيين للجمعية الثيوصوفية عام 1875.

أكدت موافقتها على العديد من التعاليم الغنوصية. كانت بلافاتسكي بالتأكيد غنوصية حقيقية عندما يتعلق الأمر بالمفهوم

الغنوصي لله. في كتاباتها، تهاجم بشدة المفهوم التقليدي للإله الموحد وتدعو إلى الإيمان بإله متعالٍ وغير شخصي تمامًا - على غرار *aletbes tbeos* أو الإله الحقيقي الغنوصي. تؤكد بلافاتسكي على المفهوم الغنوصي القائل بأن إله العهد القديم هو الديميورج. في بعض تصريحاتها، تتفوق على الغنوصيين أنفسهم، على سبيل المثال، عندما تصرح بجرأة أن يهوه هو الشيطان! وفي موضع آخر، ذكرت أن الكون صنعه كائنات روحية



غير كاملة. باختصار، تتحدث بلافاتسكي دائماً بإشادة بالغنوصيين، وحيثما تستطيع القيام بذلك نها تعلن بجرأة عن موافقتها على التعاليم الغنوصية. في الوا درّس في بعض النواحي ما يمكن تسميته بنوعٍ خفي أو خافت من الغنوصية. إن قول كارل غوستاف يونغ بأن الثيوصوفيا لبلافاتسكي وكذلك الأنثروبوسوفيا لرودولف شتاينر (وهي شكل مختلف من الثيوصوفيا) كانتا كلاهما غنوصية خالصة

في زي هندوسي يحتوي على قدر كبير من الحقيقة.

كان لموقف بلافاتسكي الثاقب والمتعاطف تجاه الغنوصيين دور كبير في التأثير على أعداد كبيرة من الأشخاص المبدعين والمغامرين روحياً في اتجاه الغنوصية. أصبح تلميذها المخلص، جي. آر. إس. ميد، الذي كان سكرتيرها الشخصي الأخير وألقى الخطاب في جنازتها في برايتون عام 1891، تحت إلهامها، مترجمًا خبيرًا

الشكل *22*. جي. آر. إس. (جورج روبرت ستو) **ميد،** المترجم العظيم للنصوص الغنوصية، الذي ظلت أعماله المصادر الأكثر اكتمالاً وسهولة في الوصول إليها للتعاليم الغنوصية حتى نشر نصوص نجع حمادي في عام 1977. وقد حظي عمل ميد بتقدير كبير من قبل العديد من طلاب الغنوصية، بمن فيهم كي. غي. يونغ، الذي قام برحلة خاصة إلى لندن لزيارة ميد وشكره على عمله في الغنوصية.

للكتابات الغنوصية والهرمسية أيضًا. كانت ميزة عمل ميد من وجهة نظر غنوصية أنه كتب عن الغنوصيين كصديق يعرفهم ويفهم معنى كتاباتهم. جعل ميد الغنوصية في متناول الجمهور المثقف خارج الأوساط الأكاديمية، مما مهد الطريق لعدة موجات من النهضة الغنوصية.

كي. غي. يونغ وعلم النفس **الغنوصي**

أسست هـ. ب. بلافاتسكي الجمعية الثيوصوفية عام 1875. ولد كارل غوستاف يونغ، الذي كان عمله يهدف إلى إحياء الغنوصية بطريقة مختلفة إلى حد ما عن طريقة بلافاتسكي، في نفس العام. كان يونغ واحداً من الثلاثي العظيم من المحللين النفسيين الذين ضموا سيغموند فرويد، وألفريد أدلر، ويونغ نفسه. إلا أن إسهاماته تمتد إلى ما هو أبعد من مجال علم النفس لتشمل تخصصات مثل الأساطير، والأنثروبولوجيا الثقافية، والأدب، ودراسة الدين. إن مساهمته في تعزيز فهم وتقدير الغنوصية، وإن لم يتم الاعتراف بها إلا مؤخراً، إلا أنها ذات أهمية بالغة.

كان يونغ مهتماً بالدين بشكل كبير منذ طفولته. قام والده، وهو قس بروتستانتي، بتعريف ابنه على المسيحية، لكن يونغ كان دائماً غير راضٍ بشكل عميق عن التقاليد المسيحية السائدة. وفي النهاية اتجه إلى كتابات الغنوصيين، والتي كانت تعني في أواخر القرن التاسع عشر كتابات آباء الكنيسة بتحيزها الواضح. يُحسب ليونغ أنه استطاع من خلال هذه الكتابات المجزأة والعدائية في كثير من الأحيان أن يطور صورة دقيقة إلى حد ما لماهية الغنوصية. كما أنه طور شعوراً وثيقاً بالتعاطف مع الغنوصيين. وكما ذكرت تلميذته باربرا حنا، فقد أخبرها أنه عند أول لقاء له مع الغنوصيين شعر بأنه بين أصدقاء قدامى.

أصبح يونغ عالم نفس وزميلاً لفرويد، رائد

علم النفس التحليلي. حتى في اتصالاته المبكرة مع فرويد، كان يونغ يشير في كثير من الأحيان إلى الغنوصيين. فعلى سبيل المثال، كتب في رسالة إلى فرويد بتاريخ 12 أغسطس 1912 أنه شعر بأن المفهوم الغنوصي للصوفيا على وشك أن يعود إلى الفكر الغربي عن طريق التحليل النفسي. لم يجد تفانيه في الفكر الغنوصي صدىً يُذكر في فكر فرويد. في الواقع، كان الإلهام الغنوصي هو ما دفع يونغ إلى اتباع نهجه الخاص وتأسيس مدرسة نفسية مختلفة عن مدرسة فرويد. وقد مرّ يونغ بسلسلة من الرؤى التي تضمنت شخصية روحية تُدعى فيليمون، والتي وصفها بأنها غنوصية. قام فيليمون بتضمين التعاليم التي نقلها إلى يونغ بشأن معاني الرموز في كتاب، وكان هذا الكتاب هو الذي تسبب في نفور فرويد النهائي من يونغ.



الشكل *23*. كارل غوستاف يونغ (1875-1961)، أحد المؤسسين الرئيسيين لعلم النفس التحليلي، رأى في الغنوصيين الأجداد الروحيين لتعاليمه. هذا الاهتمام العميق بالغنوصية، الذي لازمه طوال حياته، موثق في جميع كتاباته. وعن أول لقاء له بالأدب الغنوصي، قال: "شعرت وكأنني وجدت أخيرًا دائرة من الأصدقاء الذين يفهمونني".

في وقت مبكر من حياته المهنية، وبعد فترة وجيزة من انفصاله عن فرويد، قام يونغ بتأليف نوع من "الإنجيل" الغنوصي. ومثل الغنوصيين الفالنتينيين ـ الذين تعرضوا لانتقادات لاذعة من إيرينيئوس لكتابتهم أناجيلهم الخاصة ـ استلهم يونغ لكتابة رسالة على غرار الغنوصية القديمة. أطلق يونغ عليها اسم *Septem Sermones ad Mortuos* ووصفها بأنها "الخطب السبع للموتى التي كتبها باسيليدس في الإسكندرية، المدينة التي يلتقي فيها الشرق والغرب". وقد أقر يونغ نفسه (الذكريات، الأحلام، الرفض) بأن غالبية نظرياته ورؤاه النفسية كانت موجودة بشكل أساسي في "التخيلات الأولية" الواردة في هذا النص. وبالتالي فإن وجود الإلهام الغنوصي وراء العمل العلمي ليونغ واضح تمامًا (هويلر، الأغاني الغنوصية والخطب السبعة للموتى).

لقد أحيا يونغ بالتأكيد الكثير من الحكمة الغنوصية القديمة وطبق ببراعة المفاهيم والأساطير والصور الغنوصية على علم النفس التحليلي. يلخص الباحث الإيطالي جيوفاني فيلورامو في كتابه "تاريخ الغنوصية" (14) علاقة يونغ بالغنوصية بشكل مناسب:

> لقد انغمست تأملات يونغ لفترة طويلة في فكر الغنوصيين القدماء إلى حد أنه اعتبرهم المكتشفين الحقيقيين لـ "علم النفس العميق". ... وبقدر ما ينطوي الأمر على بحث في الذات الوجودية، وهي تقنية معرفية تستبق عملية التفرّد الحديثة، فإن الغنوص القديم، وإن كان في شكل دين عالمي، قد مهد بطريقة ما، وفي الوقت نفسه ساعد في توضيح طبيعة العلاج الروحي اليونغي.

تعرض يونغ لانتقادات عدة مرات بسبب اهتمامه بالغنوصية. في كتابه "كسوف الله"، اتهم مارتن بوبر يونغ بأنه غنوصي، مما يعني ضمناً أنه كان هرطقياً مستهجناً. في الآونة الأخيرة، استخدم ريتشارد نول، في انتقاداته القاسية للغاية ليونغ، اهتمامات يونغ الباطنية، وخاصة الغنوصية، لإثبات أن يونغ لم يكن عالماً جيداً ولا رجلاً جيداً. وبدوره، اتهم الباحث الديني روبرت سيغال يونغ بـ "استغلال" الغنوصية بطريقة غير مناسبة من خلال قلب هدف الجهد الغنوصي

رأساً على عقب. يزعم سيغال أن الغنوصيين كانوا مهتمين فقط بالهروب من هذا العالم، وبالتالي فإن نظريات يونغ النفسية حول التوفيق بين الأضداد، ودمج الظل، وما شابه ذلك، لا علاقة لها بالفكر الغنوصي.

إن هذه الانتقادات تم دحضها في معظمها من خلال تصريحات يونغ نفسه ومن خلال محتوى النصوص الغنوصية. لم يقم يونغ بتبني الغنوصية لتحويلها إلى علم نفس. يتضح من كتابات يونغ أنه شعر بأنه بالإضافة إلى أي معانٍ أخرى مضمنة في الغنوصية، فإنه كعالم نفس يمكنه أن يرى معانٍ نفسية واضحة هناك. علاوة على ذلك، تحتوي كتابات نجع حمادي على العديد من الإشارات إلى معرفة الذات وإلى الحاجة إلى الكمال، بحيث تسقط أطروحة عدم صلة التفرّد اليونغي بالاهتمامات الغنوصية. وعلى العكس من ذلك، مع قليل من الخيال، يمكن للمرء أن يتصور يونغ كمعلم غنوصي حديث يقدم وجهات نظر معاصرة قابلة للتطبيق على الأساطير والتعاليم القديمة، ويقدم مساهمته الرائعة في الغنوصية. وعلى وجه الخصوص، فإن الأسطورة الواردة في كتاب يونغ "إجابة أيوب" توسع وتضخم التعاليم الغنوصية القديمة المتعلقة بالديميورج بطريقة أصلية وإبداعية.

يُطلق على يونغ لقب آخر الغنوصيين. يشير هذا الحكم إلى أن التقاليد الغنوصية قد وصلت إلى نهايتها. ومع ذلك، فعلى الرغم من إعلان زوال الغنوصية مرات عديدة، إلا أن هذه التصريحات تبين دائماً أنها سابقة لأوانها. أحد الأشخاص الذين علمونا سبب ذلك هو في الواقع يونغ نفسه.

الفصل الثاني عشر

الغنوصية غرباً وشرقاً: هلا وقف الغنوصي

في خاتمة ترجمة مارفن ماير لإنجيل توما، كتب هارولد بلوم ("قراءة" 120): "لن يقوم أحد بتأسيس كنيسة غنوصية في أمريكا، وأعني بذلك كنيسة غنوصية معلنة، والتي لن يتم منحها إعفاءً ضريبياً على أي حال". أختلف معك بكل احترام. كانت الكنائس الغنوصية موجودة منذ أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا، وفي القرن العشرين ظهرت في أمريكا أيضاً.

لا يوجد شيء غير محتمل في جوهره بشأن وجود كنيسة غنوصية. كما رأينا، ازدهرت مؤسسات غنوصية كبيرة، مع مكاتب كنسية وأسرار مقدسة وسلالات للخلافة والسلطة، في ظل المانوية والبوغوميلية والكاثارية، ولا تزال موجودة في الديانة المندائية. ربما اعتبر أتباع الديانات السائدة هذه الكنائس المضادة الهرطقية، لكن من الواضح أن هذه مسألة أخرى. على الرغم من امتلاكها للعديد من السمات الفريدة، فإن التقاليد الغنوصية قادرة على أن تتجسد في مؤسسة، وإذا توفرت الظروف المواتية، فلا يوجد سبب يمنعها من الازدهار بهذا الشكل.

الكنيسة الغنوصية تولد من جديد

إن قصة الغنوصية الكنسية الحديثة تعيدنا مرة أخرى إلى فرنسا، حيث استمرت لعدة قرون تقاليد غنوصية مختلفة في بيئة كاثوليكية رومانية في الغالب. في وقت مبكر يعود إلى حوالي عام 180 ميلادي، كان الغنوصيون منتشرين بكثرة في بلاد الغال - المقاطعة الرومانية المعروفة الآن باسم فرنسا. اشتكى إيرينيئوس، الذي كان أسقف ليون، بمرارة من أتباع فالنتينوس في أبرشيته. يبدو أن فرنسا كانت تربطها علاقة حب وكراهية بالكنيسة الكاثوليكية طوال الوقت تقريباً. في كل مرة تضعف فيها قبضة الكنيسة على حكومات فرنسا، تظهر الهيئات الدينية الغنوصية من مخابئها، ليتم قمعها في نهاية المطاف من قبل حكومة أخرى متأثرة بالكنيسة. لقد رأينا أن ديانة الكاثار ظهرت فيما كان آنذاك حدود فرنسا وأن الغنوص السري ازدهر داخل نظام فرسان الهيكل، وهي منظمة كاثوليكية ظاهريًا. منذ القرن الثامن عشر فصاعدًا، لعبت الماسونية وغيرها من الأخويات التأسيسية، التي كان العديد منها مكرسًا للتعاليم الباطنية وحتى الغنوصية، دورًا مهمًا في البلاد.

وفي هذا الوسط ولدت التقاليد الغنوصية القديمة من جديد في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر. جول بينوا دوينيل دو فال ميشيل، وهو عالم باطني متمرس كان باحثًا متفانيًا في وثائق عقيدة الكاثار، مر بتجربة صوفية في عام 1890، حيث تلقى فيها تمكينًا روحيًا لإعادة بناء الكنيسة الغنوصية القديمة. وقد حدثت تجربته في الكنيسة الرائعة في مقر إقامة دوقة بومار، كونتيسة كيثنيس، في باريس. كانت هذه النبيلة الرائعة صديقة للسيدة بلافاتسكي، وإحدى أوائل الثيوصوفيات وراعية الحركات الباطنية. (بسبب الارتباك في أذهان العامة بشأن علاقة الثيوصوفيا والحركات ذات الصلة بالروحانية، تم تداول روايات غير دقيقة تفيد بأن تجربة دوينيل حدثت في جلسة تحضير أرواح روحانية.)

قام جول دوينيل بتكوين أتباع وأسس جماعة الغنوصية البريطانية، التي تم تنظيمها على أسس طقوسية. كانت تعاليم الكنيسة الجديدة غنوصية بحتة، وتكريماً لفالنتينوس، اتخذ دوينيل اللقب الكنسي للبطريرك تاو فالنتين الثاني. وفي خطوة تقدمية للغاية، قام بسيامة النساء إلى رتبة الكهنوت والأسقفية، كما أعاد تأسيس سر العزاء، الذي يذكرنا بالكاثار.

سرعان ما ارتبطت الكنيسة الغنوصية الجديدة بالنظام المارتيني، الذي أعاد تنظيمه في وقت سابق العالم الباطني الفرنسي الشهير بابوس (الدكتور جيرارد إنكوس)، والذي رُسِّم هو نفسه أسقفًا غنوصيًا على يد دوينيل. بعد فترة من الزمن، قام أحد خلفاء دوينيل، جان بريكو، بتأمين نسب معترف به للخلافة الرسولية للكنيسة الغنوصية، حيث أن دوينيل كان يمتلك تكريسًا روحيًا فقط.

كان إنشاء كنيسة غنوصية بكهنتها وأسقفيتها وأسرارها المقدسة وخلافتها الرسولية بمثابة نعمة للعديد من



الشكل *24*. ملابس رجال الدين في الكنيسة الغنوصية الفرنسية، حوالي عام 1890. تصور الصور شماسًا ذكرًا، وأسقفًا، وكاهنًا، وشماسة من الكنيسة الغنوصية التي أحياها الأسقف دوينيل في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر.

الباطنيين والماسونيين الفرنسيين، الذين كانوا محرومين من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. أصبح بإمكان هؤلاء الأشخاص الآن المشاركة في الأسرار المقدسة بطريقة تقليدية في خدمات الكنيسة الغنوصية، والتي كانت تقام في كثير من الأحيان داخل حرم المعابد الماسونية. وهكذا أصبحت الكنيسة الغنوصية تُعرف باسم "كنيسة المتأهلين".

بحلول أوائل القرن العشرين، كانت هناك كنائس غنوصية في فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإنجلترا ودول أوروبية أخرى. وصلت الكنيسة الغنوصية إلى الولايات المتحدة في النصف الثاني من نفس القرن، نتيجة للهجرة الهايتية. بسبب ارتباطاتها الثقافية الفرنسية، كانت هناك كنائس غنوصية في هايتي لبعض الوقت. يوجد حاليًا سلالتان غنوصيتان - الفرنسية والإنجليزية - تعملان في الولايات المتحدة. تربط الاثنين علاقة ودية.

الغنوصية والأديان الشرقية

لقد تم الاعتراف منذ فترة طويلة بالتشابه بين الغنوصية وبعض الديانات العظيمة في الشرق. إن كلمة غنوص مشتقة من كلمة جنانا *jñana* السنسكريتية، والتي تعني "المعرفة"، وخاصة المعرفة الروحية. إحدى المدارس الكلاسيكية العظيمة لليوغا تسمى في الواقع جنانا **يوغا**، وتعني "طريق الاتحاد من خلال المعرفة". إن التأهيل في المعرفة المباشرة للحقائق الروحية هو ممارسة قياسية في الأشكال العليا لليوغا، وبالتالي فهو معروف جيدًا في الهند. في الواقع، من هذا المنطلق، لا تشبه الغنوصية شيئاً أكثر من تشابهها مع الديانة القديمة للهند، والتي تسمى الهندوسية في الغرب. الهندوسية ليست ديانة بالمعنى المفهوم في الغرب، بل هي عائلة من الأديان. يوجد تنوع كبير في هذه العائلة، لدرجة أن بعض أفرادها لا يكاد يشبهون الآخرين. وهكذا يبدو أن المذهب الأدفايتي الفلسفي لا يشترك إلا في القليل مع المذهب الفيشنوي المتعبد

أو المذهب التانتري السحري؛ ومع ذلك، فإنهم يشتركون في تقليد مشترك. إن التنوع بين التقاليد الغنوصية متشابه بالتأكيد.

هناك العديد من السمات المحددة التي تجمع بين الغنوصية والهندوسية. أحدها هو التعليم المتعلق بوجود الإلهي في الروح البشرية. إن الأتمان هو نفسه البراهمان، مما يعني أن الألوهية الكونية موجودة بشكل مصغر داخل كل شخص. وبالمثل، في الغنوصية، فإن الروح هي شرارة انبثقت من اللهب الإلهي، ومن خلال معرفة الروح، يعرف الغنوصي تلقائيًا المصدر الروحي الذي أتت منه. يتفق الهندوسي والغنوصي على أن معرفة الذات العميقة تعادل معرفة الله.

ثانياً، تعترف كل من الغنوصية والهندوسية بوجود العديد من الكائنات الإلهية في عوالم تقع بين الأبعاد النهائية والمادية. الهندوسية هي الديانة الوثنية الأبرز في العالم اليوم، بينما تعمل الغنوصية ضمن إطار توحيدي. لكن من الصعب وصف الغنوصية بأنها دين توحيدي خالص وبسيط. علاوة على ذلك، فإن بعض الآلهة الفيدية في الهندوسية، مثل إندرا أو براجاباتي، لها صفات مماثلة للديميورج الغنوصي.

ثالثًا، لدى التعاليم الهندوسية الكثير لتقوله حول ما يشكل ثنائية (دفايتا) وما هو غير ثنائي (أدفايتا). على الرغم من أن الغنوصية توصف في كثير من الأحيان بأنها ثنائية، إلا أن نظرتها إلى كلتا الفئتين قابلة للمقارنة فعلياً بالهندوسية. وهكذا، في عالم ما يسميه الهندوس مايا (التجلي الوهمي)، تسود الثنائية ويحدث صراع النور والظلام، بينما على مستوى الحقيقة المطلقة يوجد كمال الوجود، وهو ما يمكن مقارنته بما يعرفه الغنوصيون باسم البليروما.

تتشابه الغنوصية أيضاً مع البوذية، وهي الديانة العظيمة الأخرى في الشرق. أولاً وقبل كل شيء، فإن الهدف الأسمى للبوذية - وهو نفسه الهدف النهائي للغنوصية - هو التحرر، أي التحرر من الوجود الجسدي وبالتالي من كل المعاناة المستقبلية. (إن مثال البوديساتفا والتعاليم المعدلة الأخرى ليست

سوى تفصيلات لهذه التعاليم الأساسية.) تستند قائمة نقاط التقارب التالية بين الغنوصية والبوذية - وتحديداً بوذية ماهايانا - إلى تصريحات العالم البوذي الراحل الشهير إدوارد كونز:

- يتحقق الخلاص من خلال المعرفة (غنوص جنانا). إنّ فهم الأصل المترابط للوجود الظاهر هو ما يحرر.
- الجهل هو الأصل الحقيقي للشر؛ في الغنوصية يسمى *agnosis*، وفي البوذية يسمى *avidya*.
- لا يتم التوصل إلى المعرفة الغنوصية والبوذية بالوسائل العادية، بل كنتيجة للوحي الداخلي.
- هناك مستويات من الإنجاز الروحي، تتراوح من حالة المادي الأحمق (hyletic) إلى حالة القديس المستنير (pneumatic).
- في كلٍّ من الغنوصية والبوذية، يلعب مبدأ الحكمة الأنثوي (صوفيا وبراجنا، على التوالي) دورًا هامًا. ويستشهد كونزي بتانترا هيفاجرا قائلًا: "تُسمى براجنا بالأم، لأنها تلد العالم". وهناك آلهة أخرى في البوذية قد تكون مرتبطة بصوفيا، مثل تارا وكوان يين.
- يُظهر كل من الغنوصية والبوذية تفضيلاً للأسطورة على الحقيقة. يُقدَّم كل من المسيح وبوذا ككائنات نموذجية وليسا مجرد شخصيات تاريخية.
- إن الميل إلى اللاأخلاقية (تجاهل القواعد والوصايا) متأصل في كلا النظامين. بينما تُعتبر قواعد السلوك مهمة بل وحاسمة في المستويات الدنيا من السلم الروحي، فإن أهمية هذه القواعد تصبح نسبية في الحالات الروحية السامية.
- كلا النظامين يحتقران الشعبية السهلة ويوجهان تعاليمهما إلى نخبة روحية. تنتشر المعاني الخفية والتعاليم الغامضة في كلا النظامين.
- تعتبر كل من الغنوصية والبوذية أحادية من الناحية الميتافيزيقية، مما يعني أنهما تطمحان إلى تجاوز تعدد الأشياء الظاهرة وتحقيق حالة من الوحدة المطلقة.

قد تكون هذه أوجه التشابه ذات أهمية خاصة بالنظر إلى الشعبية الحالية للشكل التبتي (فاجرايانا) من البوذية الماهايانية في الغرب.

صعوبة تعريف الغنوصية

لطالما كان من الصعب تعريف الغنوصية، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى أنها نظام فكري قائم على تجارب حالات الوعي غير العادية ويتم تعديله بشكل متكرر من خلالها، وبالتالي فهي مقاومة للجمود اللاهوتي. كان غالبية العلماء الذين درسوا الغنوصية من رجال الدين، ومن المفهوم أنهم حكموا على موضوعهم وفقًا لمعايير أنظمة معتقداتهم الخاصة. لكن الغنوصية لم تكن أبداً بناءً دينياً يمكن مقارنته باللاهوت الغربي، وخاصة المسيحي. لطالما كان طائرًا من نوع مختلف ـ أو ربما شكلًا مختلفًا من أشكال الحياة تمامًا.

نجد اليوم عدداً من التعريفات الغريبة للغنوصية تتعايش مع التعريفات القليلة الصحيحة بشكل معقول. بل إن صوتاً واحداً (مايكل ألين ويليامز، في كتابه "إعادة التفكير في الغنوصية") يقترح أنه نظراً لتنوع الغنوصية، فلا وجود فعلياً للغنوصية! والأكثر إثارة للقلق هو كيف ساهم تنوع التفسيرات الحديثة للغنوصية في تشويش التعريفات، حيث يبدو أن كل دقة ومعنى يتلاشى. وقد كتب الراحل إيوان كوليانو (الذي كان من أبرز الباحثين الواعدين في هذا المجال) في منشور أوروبي:

> كنت أعتقد ذات مرة أن الغنوصية ظاهرة محددة جيداً تنتمي إلى التاريخ الديني للعصور القديمة المتأخرة. بالطبع، كنت مستعدًا لقبول فكرة التوسعات المختلفة للغنوص القديم، وحتى فكرة التوليد التلقائي لوجهات نظر العالم التي تظهر فيها، في أوقات مختلفة، السمات المميزة للغنوصية مرة أخرى.
>
> لكن سرعان ما أدركت أنني كنت ساذجاً بالفعل. لم يكن الغنوص فقط غنوصيًا، ولكن المؤلفين الكاثوليك كانوا غنوصيين،

وكذلك الأفلاطونيون الجدد، والإصلاح البروتستانتي غنوصيين، والشيوعية غنوصية، والنازية غنوصية، والليبرالية والوجودية والتحليل النفسي غنوصيين أيضاً، وعلم الأحياء الحديث غنوصيين، وكان بليك ويتس وكافكا غنوصيين. تعلمتُ أيضاً أن العلم غنوصي والخرافة غنوصية،

هيغل غنوصي وماركس غنوصي؛ كل الأشياء ونقيضها

غنوصية على حد سواء. (جاكوب تاوبس، محرر، الغنوصية والسياسة 290)

ثمة ظرف مهم يتعلق بهذا القول يتم تجاهله على نطاق واسع في أمريكا. في أوروبا، يُستخدم مصطلحا "الغنوص" و"الغنوصية" بشكل متبادل في أغلب الأحيان. ولم يلقَ الاقتراح القائل بأن مصطلح "الغنوص" ينبغي أن يصف حالة وعي، بينما يشير مصطلح "الغنوصية" إلى النظام الغنوصي، قبولًا. ولا يزال استخدام التعريف الكلاسيكي للغنوصية سائدًا في الأدب الأوروبي، بما في ذلك كتابات باحثين معاصرين مثل جيل كويسبيل، وكورت رودولف، وجيوفاني فيلورامو. وقدّم الراحل روبرت ماكلاكلان اقتراحًا للتمييز بين هذين المصطلحين، لكن الاستخدام الحالي في أوروبا لم يتبنَّه. وقد تفقد الكلمة التي تُستخدم بهذه الطرق المتناقضة معناها. فلا عجب أن الكاتب البصير تشارلز كولومب

يشعر باليأس إزاء هذا الوضع.

في الواقع، إن كلمة "الغنوصية"، مثل كلمة "البروتستانتية"، هي كلمة فقدت معظم معناها. وكما نحتاج إلى معرفة ما إذا كان الكاتب "البروتستانتي" كالفينيًا أو لوثريًا أو معمدانيًا أو غير ذلك لتقييمه بشكل صحيح، كذلك يجب تحديد هوية "الغنوصي". [مراجعة أكسفورد الجديدة، نوفمبر 1991، 28-29]

الارتباكات السياسية، والأوهام التقليدية،

والغموض الأكاديمي

يأتي أحد أكثر الأصوات إثارة للحيرة بشأن الغنوصية من تخصص العلوم السياسية. في محاضرات والغرين التي ألقاها في جامعة شيكاغو عام 1951، دافع الباحث المهاجر إريك فوغلين عن ما أسماه "التقاليد الكلاسيكية والمسيحية" ضد ما اعتبره

"نمو الغنوصية". وقد أعقب هذه البداية القوية بالعديد من الكتب (العلم الجديد للسياسة، والنظام والتاريخ متعدد المجلدات، والعلم والسياسة والغنوصية) وأصبح نبياً لنظرية جديدة للتاريخ تلعب فيها الغنوصية دوراً شريراً. يقول فوغلين إن جميع الأيديولوجيات الشمولية الحديثة مرتبطة روحياً بطريقة أو بأخرى بالغنوصية. الماركسيون والنازيون وكل من يراه الأستاذ الجيد مستهجناً هم في الواقع غنوصيون، منخرطون في "تحقيق نهاية العالم" من خلال إعادة تشكيل المجتمع إلى جنة على الأرض. بما أن الغنوصيين لا يقبلون مفهوم نهاية العالم المسيحي التقليدي المتمثل في الجنة والنار، فإن فوغلين يستنتج أنه يجب عليهم الانخراط في ثورة ألفية للوجود الأرضي. وفي الوقت نفسه، يتعين على فوغلين أن يعترف بأن الغنوصيين يعتبرون العالم الأرضي معيباً بشكل لا يمكن إصلاحه. يتساءل المرء كيف يمكن تحويل مثل هذا العالم إلى يوتوبيا أرضية. إن حقيقة أن الغنوصيين المزعومين لدى فوغلين ليس لديهم معرفة أو تعاطف مع الغنوصية التاريخية لا تزعجه أيضاً. هم غنوصيون، وهذا كل ما في الأمر.

وقد تفاقم الارتباك الذي أحدثه فوغلين بسبب عدد من

المفكرين السياسيين المحافظين، وخاصة أولئك الذين تربطهم صلات بالكاثوليكية. اتبع توماس مولنار وتيلو شابيرت وستيفن أ. ماكنايت نظريات فوغلين على الرغم من التناقضات الواضحة. يرى مولنار أن الغنوصيين مسؤولون ليس فقط عن كل النزعة الطوباوية الحديثة، ولكن أيضًا عن تعلق الناس المعاصرين المفرط بالعلم والتكنولوجيا. يقول هؤلاء الناس إن النظرة العلمية للعالم هي في الواقع نظرة غنوصية للعالم، وهي المسؤولة عن معاملة البشر كآلات وعن تحويل المجتمعات إلى تجمعات تشبه الآلات.

لا تزال النظرة المسيسة للغنوصية تحظى بأتباعها، ولكن يتم تجنيد هؤلاء بشكل متزايد من الفئات المتطرفة. لا يزال يتم تصوير الغنوصيين على أنهم مخربون خطرون في المجلات الرخيصة ومنشورات المؤامرة الغامضة التي "تفضح" الماسونيين وعبدة الشيطان وغيرهم من الآفات. في غضون ذلك، تخلى المفكرون المحافظون

المحترمون عن قضية الغنوصية. وقد قام البعض، مثل الباحث وعضو مجلس الشيوخ الأمريكي السابق إس. آي. هاياكاوا، بإخضاع فوغلين ونظرياته لانتقادات وسخرية شديدة.

أما الأصوات الأخرى التي تسبب الارتباك فتعود إلى كتاب مصممين على إثبات أن هناك تقاليد سرية للغنوص داخل الأديان الرئيسية القائمة، وهي تقاليد لا تتطابق مع الغنوصية "الهرطقية" في القرون المسيحية الأولى. في كتابه "الفلسفة الخالدة" الصادر عام 1947، يروج ألدوس هكسلي لنوع من الغنوص الذي كان في الواقع لغزًا محصورًا بالنخبة، تم الكشف عنه في فجر التاريخ وتناقلته الأجيال عبر مختلف التقاليد الدينية، حيث لا يزال قائمًا على الرغم من عدم توافقه الظاهري مع العقائد الرسمية لتلك التقاليد. تقترب وجهة نظر هكسلي من الموقف الأكثر جذرية الذي تبناه التقليديون مثل رينيه غينون وفريثجوف شوان. (جزء من خلفية غينون التي يميل أتباعه إلى إخفائها هو الفترة التي قضاها كأسقف في الكنيسة الغنوصية في فرنسا وكعضو بارز في الماسونية والباطنية). لقد نبذ ليس فقط الغنوصية، بل المسيحية أيضاً عندما اعتنق الإسلام السني.

لا يصدر هكسلي أي حكم على أي شخص يسمي نفسه غنوصياً. يتمنى المرء لو كان بالإمكان قول الشيء نفسه عن غيرهم من المحافظين. كثيراً ما ينتقد أتباع غينون المعلمين الغنوصيين الأوائل بطريقة تذكرنا بالمجادلين القدماء مثل إيرينيئوس. إن تقسيم التقليديين للكتاب الغنوصيين الأوائل إلى "غنوصيين زائفين" و"غنوصيين أصيلين" يعكس معايير لا تعدو كونها تعسفية؛ وتشير الأبحاث المعاصرة إلى أنه خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى بعد المسيح، لم تكن هناك أرثوذكسية حقيقية، وبالتالي لم تكن هناك بدعة أيضًا. بدلاً من ذلك، ازدهرت العديد من التعاليم الدينية، بما في ذلك الغنوصية، جنباً إلى جنب. بالتأكيد كانت هناك خلافات، لكن استنباط معايير الزيف والأصالة بشكل تعسفي من هذه الجدالات لا يبدو مبرراً.

تحتوي طبعة عام 1988 من مكتبة نجع حمادي على خاتمة مطولة

بعنوان "الأهمية المعاصرة للغنوصية". يستعرض

مؤلف الكتاب، ريتشارد سميث، التطورات العديدة في الثقافة الغربية التي تبدو مرتبطة بالغنوصية. يأمل المرء أن نجد هنا أخيراً تعريفاً حقيقياً للغنوصية وقائمة بالكتاب والمفكرين المعاصرين الذين قد يظهرون كممثلين لها. للأسف، هذا ليس هو الحال.

يسرد سميث عدداً من الشخصيات المهمة من القرن الثامن عشر فصاعداً الذين كانوا متعاطفين مع الغنوصية. ومع ذلك، يبدو أنه يشير إلى أن قلة من هؤلاء المفكرين كان لديهم تعريف كافٍ للغنوصية، ولذلك فقد أساءوا استخدام المصطلح في أغلب الأحيان. يتهم سميث المؤرخ إدوارد غيبون، على سبيل المثال، بـ "كذبة مؤذية" في الإشارة إلى الغنوصيين بعبارات إيجابية. (من الواضح أن غيبون لم يوافق على التقدير المتدني الذي كان آباء الكنيسة يكنونه للغنوصيين، ولكن هل هذا يجعله كاذباً؟) ويتم تصوير تعاطف فولتير مع الغنوصية والمانوية على أنه مدفوع فقط بمعارضته للسلطة الكنسية. لكن هل كان بإمكان الفيلسوف العظيم أن يكون لديه أسباب أخرى لآرائه؟ من المعروف أن فولتير كان ماسونيًا متحمسًا؛ ربما يكون قد جمع معلومات إيجابية عن الغنوصيين من خلال التيارات الباطنية التي كانت تتدفق في الأخويات السرية في عصره. ربما كان على علم بمعلومات لم يكن سميث على علم بها. وفي السياق نفسه، يشير سميث إلى أن يونغ استغل الغنوصية عن طريق تحويلها إلى نظرية نفسية: "يأخذ يونغ الأسطورة الثنائية بأكملها ويضعها داخل النفس"، كما يكتب سميث.

يتم نقد هذه الاتهامات في الفصل الأول. ومن المفارقات، أنه من بين الانتقادات الموجهة ضد فولتير ويونغ وغيرهما، لا يقدم سميث ما يعتبره التعريف الحقيقي للغنوصية. كان غيبون مخطئاً، وكان فولتير ويونغ مخطئين، ولكن من كان على صواب؟ لم نجد إجابة لمثل هذا السؤال.

لحسن الحظ، هناك أيضاً عدد من الأصوات المطلعة والمنصفة بين الكتاب الذين يتناولون الغنوصية. يلفت الباحث الإيطالي جيوفاني فيلورامو (تاريخ الغنوصية، الفصل الرابع عشر) الانتباه إلى حقيقة أن

مخطوطات نجع حمادي حظيت باستقبال إيجابي من قبل جمهور واسع، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن "بعض المجالات في المشهد الثقافي أظهرت ميلاً وحساسية خاصة تجاه النصوص التي تناولت ظاهرة ساهموا هم أنفسهم بطريقة أو بأخرى في إبقائها حية".

أحد الأشخاص الذين حافظوا على ظاهرة الغنوصية هو المقرب من يونغ، الباحث الغنوصي جيل كويسبيل، الذي عمل بجد واجتهاد على ربط الغنوصية القديمة لفالنتينوس وغيره من المعلمين بالغنوصية الحديثة لعلم النفس التحليلي. لقد رأى أن الجهد الغنوصي ينطوي على فهم عميق للذات الوجودية، وبالتالي فهو مماثل لأفضل ما في علم النفس العميق. يشرح كتاب كويسبيل الرئيسي في هذا الموضوع، "الغنوص كدين عالمي" (1972)، بالتفصيل العلاقة بين نموذج يونغ والتعاليم الغنوصية. لم يختزل كويسبيل، مثل يونغ نفسه، التعاليم الغنوصية إلى علم النفس التحليلي، بل أشار إلى علم النفس التحليلي باعتباره مفتاحًا لفهم الغنوصية.

ومن الشخصيات الرئيسية الأخرى في إعادة تقييم الغنوصية القديمة هانز يوناس. قام يوناس، وهو تلميذ الفيلسوف الوجودي مارتن هايدغر في ثلاثينيات القرن العشرين، بتوجيه اهتمامه إلى حكمة الغنوصيين واكتشف فيهم سلفًا قديمًا للفلسفة الوجودية. وهكذا وجدت النظرة التشاؤمية للوجودية فيما يتعلق بالحياة الأرضية وتقديرها العالي للتجربة على عكس النظرية سلفاً ونظيراً لها. على الرغم من انتقاده لـ "العدمية" لدى الغنوصيين، إلا أن يوناس كان أحد أهم الشخصيات، إلى جانب يونغ، في وضع التعاليم الغنوصية في منظور حديث. لا يزال كتابه "الدين الغنوصي" أحد أهم الكتب الكلاسيكية في هذا المجال.

كان الربط الذي أجراه كويسبيل ويوناس بين الغنوصية في الماضي والفلسفات الحية في الحاضر ذا أهمية بالغة، وكاد أن يزود الغنوص والغنوصية بتعريفات حيوية ونابضة بالحياة. كشفت الأسئلة التي طرحها الغنوصيون القدماء - وأجابوا عليها - أن مواقفهم لم تكن غريبة

أو شاذة، بل كانت مناقشات سابقة

لقضايا تناولها فرويد ويونغ وكيركغارد وهايدغر وغيرهم الكثير في العصور الحديثة.

نحو التعريف

إن البحث عن تعريفات ليس بالأمر السهل أبداً، وخاصة في العلوم الاجتماعية. في هذه التخصصات، يجب إيلاء اهتمام كبير للسياق التاريخي الذي تتطور فيه المعتقدات والأفعال. إن الاختلافات والتشابهات الجوهرية في الفروق الدقيقة والنبرة ودقة الحالة المزاجية أكثر أهمية هنا من التعريفات الصارمة والسريعة. يبدو أن النقاش حول الغنوصية يدور حول هذه النقاط الدقيقة، وقد لا يكون من الممكن حل الكثير من خلال تعريف. ومع ذلك، فإن الفوضى الحالية المحيطة بتعريفات الغنوصية تستدعي محاولة.

يقول هانز يوناس إنه لفهم الغنوصية، يحتاج المرء إلى شيء يشبه إلى حد كبير الأذن الموسيقية. إن هذا النوع من الحساسية الداخلية هو في الواقع أكثر أهمية من أي مجموعة من التعريفات. ومع ذلك، فإن طبيعة العقل المتأثر بالأنا تتطلب تعريفات، وهو غير مرتاح بدونها. إن المعرفة الحقيقية، بطبيعة الحال، لا تهتم بالتعريفات. لا يمكن للمرء أن يفكر في هذه المهمة إلا عندما يتلاشى تأثير التجربة الغنوصية. لقد أحسن المترجم العظيم جي. آر. إس. ميد التعبير عن ذلك عندما كتب: "إن النفس المستنيرة التي تترك سجنها، لتغتسل في نور اللانهاية، لا يمكنها إلا أن تتذكر ومضات من الرؤية المجيدة بمجرد عودتها مرة أخرى إلى الأرض" (سمعان الساحر 49). لذا ينبغي النظر إلى الملخص المفصل التالي للاعترافات الغنوصية على أنه مجموعة من "ومضات الرؤية المجيدة" هذه بدلاً من كونه بيانًا للعقائد الدينية بالنمط التقليدي:

1. هناك وحدة روحية أصلية ومتسامية انبثقت منها مظاهر واسعة من التعددية.

2. لم يتم خلق الكون الظاهر من المادة والعقل بواسطة الوحدة الروحية الأصلية، بل بواسطة كائنات روحية تمتلك قوى أدنى.

3. أحد أهداف هؤلاء الخالقين هو الفصل الدائم بين البشر والوحدة (الله).

4 إن الإنسان كائن مركب: فالمظهر الخارجي هو من صنع الخالقين الأدنى، بينما المظهر الداخلي هو شرارة ساقطة من الوحدة الإلهية المطلقة.

5. إن شرارات القداسة المتعالية تغفو في سجنها المادي والعقلي، ووعيها الذاتي مذهول بفعل قوى المادية والعقل.

6. لم يتم التخلي عن الشرارات النائمة من قبل الوحدة النهائية؛ بل ينبثق من هذه الوحدة جهد مستمر موجه نحو إيقاظها وتحريرها.

7. إن إيقاظ الجوهر الإلهي الكامن في الإنسان يأتي من خلال المعرفة الخلاصية، والتي تسمى "الغنوص".

8. لا يتحقق الغنوص عن طريق الإيمان أو عن طريق أداء الأعمال الصالحة أو عن طريق طاعة الوصايا؛ فهذه الأمور في أحسن الأحوال تعد المرء بالمعرفة المحررة.

.9ومن بين أولئك الذين يساعدون الشرارات النائمة، تحتل صوفيا (الحكمة) مكانة خاصة من الشرف والأهمية، وهي تجسيد أنثوي للوحدة. لقد شاركت في خلق العالم، ومنذ ذلك الحين ظلت مرشدة لأبنائها اليتامى من البشر.

10. منذ أقدم العصور التاريخية، تم إرسال رسل النور من الوحدة المطلقة بهدف تعزيز الغنوص في نفوس البشر.

11. كان أعظم هؤلاء الرسل في سياقنا التاريخي والجغرافي هو لوغوس الله المتجسد في يسوع المسيح.

12. مارس يسوع خدمة مزدوجة: كان معلماً، ينقل التعليمات المتعلقة بطريق الغنوص؛ وكان كاهناً، ينقل الأسرار.

13. إن الأسرار التي كشف عنها يسوع (والتي تُعرف أيضًا باسم الأسرار المقدسة) هي وسائل قوية للوصول إلى الغنوص وقد عهد بها إلى رسله وخلفائهم.

14. من خلال الممارسة الروحية للأسرار (الطقوس المقدسة) والسعي الدؤوب وغير المتنازل للغنوص، يمكن للبشر أن يتقدموا بثبات نحو التحرر من كل القيود، المادية وغير المادية. إن الهدف النهائي من عملية التحرر هذه هو تحقيق الغنوص الخلاصي، ومعها التحرر من الوجود المتجسد والعودة إلى الوحدة المطلقة.

كتب عالم الاجتماع الشهير ماكس فيبر في كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" أن "التعريف المفاهيمي المثالي لا يمكن أن يكون موجودًا في البداية، بل يجب تركه حتى نهاية البحث". لذلك من المناسب أن نتناول هذا التعريف في نهاية هذا البحث. يبقى السؤال مطروحاً عما إذا كانت هذه النقاط قادرة على أن تطمح إلى شيء مثل "التعريف المفاهيمي المثالي" لفيبر. ومع ذلك، فهي بشكل عام دقيقة تاريخياً ومحددة من الناحية المصطلحية، وهو ما يتجاوز ما تقدمه معظم الأدبيات الحالية، سواء الأكاديمية أو الشعبية. تم تجنب التمييزات مثل "المعرفة الأرثوذكسية" و"المعرفة الرسولية" هنا، وكذلك الفئات مثل "الغنوصيين الزائفين" و"الغنوصيين الأصيلين". تُصدر هذه الأحكام على أساس معتقدات لم تكن ذات صلة بالغنوصيين أو بالغنوصية.

بالتأكيد، كانت النقاط الأربعة عشر المعروضة هنا جميعها جزءًا من التقاليد الغنوصية وقد تبناها الغنوصيون في وقت أو آخر. يمكن اعتبار النقاط العشر الأولى على الأقل من النقاط الأربع عشرة ذات سلطة كاملة، حتى بمعنى غنوصي غير مسيحي، وبالتالي فإن غياب أي منها من نظرة الشخص للعالم قد يؤدي إلى استبعاده من كونه غنوصيًا. عندما يقف الغنوصيون ليعرّفوا بأنفسهم،

سيتعين عليهم الموافقة على غالبية هذه المبادئ، ولكن ما إذا كان تفسيرها سيكون حرفيًا أو نفسيًا أو فلسفيًا أو غير ذلك، فيجب تركه للفرد.

على الأقل، قد لا نضطر بعد الآن إلى الاستشهاد بكتاب "عبر المرآة" (الفصل 6) فيما يتعلق بتعريف الغنوصية:

قال هامبتي دامبتي: "عندما أستخدم كلمة ما، فإنها تعني بالضبط ما أختاره لها أن تعنيه - لا أكثر ولا أقل".

قالت أليس: "السؤال هو ما إذا كان بإمكانك جعل الكلمات تعني كل هذه الأشياء المختلفة".

الفصل الثالث عشر

الأدب الغنوصي: الأسطورة والحقيقة والسرد

لطالما كان الدين مصدراً للإبداع والخيال. إن القوى النفسية و/أو الميتافيزيقية التي تفسر التجربة الدينية والكشف ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمنبع الذي تتدفق منه القصائد والدراما وغيرها من أشكال الأدب العلماني. لقد ألهم الكتاب المقدس المسيحي الكثير من الفنون، ولكن في الوقت نفسه، فإن الأرثوذكسية المسيحية، بإصرارها على حرفية وواقعية أدبياتها المقدسة، قد أعاقت أيضًا التقاء الإبداع الديني والفني.

إن التطورات التي كبحت الكثير من الإبداع الخيالي داخل المسيحية كانت مرتبطة إلى حد كبير بقمع الغنوصية. كان الغنوصيون ممارسين بارعين للرمزية والاستعارة والتشبيه والأسطورة والغموض الإبداعي عندما يتعلق الأمر بأعمالهم الأدبية. كما أشير إليه سابقاً، كانت هذه الأعمال في أغلب الأحيان نتيجة لحالات وعي غير عادية اختبرها حكماء الغنوصية. لاحظ العديد من الباحثين أن التجارب المكتسبة في حالات غير عادية لها أوجه تشابه مع الأساطير والشعر والرمز. وعلى

النقيض

من ذلك، في وجهة النظر المسيحية الأرثوذكسية، وهي أكثر واقعية، ينبغي أن يكون لدى المسيحي الصالح عقائد يؤمن بها ووصايا يلتزم بها، وليس أكثر من ذلك بكثير. لم تكن الأساليب الأدبية المتطورة، مثل تلك التي استخدمها الغنوصيون، مناسبة جدًا للأهداف الأرثوذكسية؛ وكذلك لم يكن الأدب الرؤيوي. والجدير بالذكر أن المصلحين البروتستانت تفوقوا على آباء الكنيسة الأرثوذكس السابقين في هذا الصدد؛ فقد قاموا بحذف أكثر الأجزاء الشعرية من الكتاب المقدس وأعلنوا أنها من الكتب المنحولة. (بل إن لوثر أراد إزالة سفر الرؤيا من الكتاب المقدس، بسبب طابعه الرمزي والرؤيوي.)

كانت الأساطير والاستعارات حاضرة بالطبع في أدب اليونان وروما الوثنيين. (كان الموقف العدائي نسبياً للعديد من المسيحيين الأرثوذكس تجاه الأساطير يرجع إلى حد كبير إلى رفضهم للعقلية الوثنية.) ومع ذلك، وعلى الرغم من عظمة أدب الأساطير الهوميرية، إلا أنه يفتقر إلى شيء موجود في كتابات الغنوصيين. يشير جوليان جاينز إلى أن الكثير من الأدب الأسطوري لليونان القديمة يفتقر إلى الوعي الذاتي ورفض الذات. يذكر كارل كيريني، الذي ربما يكون أحد أكثر علماء الأساطير المعاصرين بصيرة، أن **أساطير** الأفلاطونيين الجدد والغنوصيين أقرب بكثير إلى التجربة الصوفية التي اشتُقت منها من أساطير هوميروس *(مقالات في علم الأساطير)*. تُظهر لنا هذه الاعترافات أن **الأساطير** ليست كلها متساوية؛ فبعضها أكثر كشفاً من غيرها.

إلى جانب أصالتها الصوفية، تُدخل الأدبيات الغنوصية بعض المواضيع إلى الفكر الغربي. بعض هذه المشاعر هي الشعور بالوحدة الإنسانية، والحنين إلى الوطن، والاغتراب، والوقوع في فخ نظام كوني استبدادي، وإمكانية الحرية المطلقة - ليس فقط من القمع السياسي أو الاقتصادي أو الأيديولوجي، ولكن من الحالة الوجودية الإنسانية نفسها. بمجرد ظهور هذه المواضيع في الفكر والأدب الغربي، أصبحت جزءًا لا يتجزأ من تراثه، ولن تُنسى مرة أخرى.

بقايا من طاولة الغنوصي

"الغنوص، وفقًا لأعدائها" هو العنوان الذي أطلقه جي. آر. إس. ميد على كتابات آباء الكنيسة المهووسين بالهرطقة حول الغنوصية *(في شظايا الإيمان منسي)*. تُشكّل هذه الأدبيات العديد من التحديات - أبرزها الإزعاج - للقارئ. ومع ذلك، فقد كان هذا هو الأدب الوحيد المتاح الذي يتعلق بالغنوصية لعدة قرون. كان ثلاثة من الكتاب معروفين بآرائهم المعادية بشدة للغنوصية: إيرينيئوس الليوني، وهيبوليتوس الرومي، وإبيفانيوس السلاميسي. تم رفع الثلاثة جميعاً إلى مرتبة القداسة، ولم تخلُ أعمالهم جميعاً من الكذب والغضب اللاهوتي. يجب قراءة كتاباتهم بحذر وشك، خاصة عندما يصبح هدفهم الجدلي واضحاً.

من ناحية أخرى، تعتبر هذه الأعمال قيّمة لاقتباساتها وملخصاتها للتعاليم الغنوصية. لا يوجد شك كبير نسبياً في دقة هذه الاقتباسات والملخصات من الناحية الموضوعية. في الوقت نفسه، يجب أن نتذكر أن هذه الكتابات مسجلة من قبل معارضين معلنين للغنوصية؛ فمن الصعب الوثوق بنزاهة الكتاب الذين يعتبرون موضوعهم علنًا خاطئًا ومخادعًا، بل هو نتاج الشيطان نفسه. هناك كاتبان آخران يتمتعان بشخصية أكثر شرفاً، وهما في الواقع قريبان إلى حد ما من الغنوصيين في بعض أفكارهم: وهما كليمنت الإسكندري وأوريجانوس الإسكندري. يستخدم كليمنت، على وجه الخصوص، كلمة *"غنوص"* بشكل متكرر ويعتبر "الغنوص" نهجًا للدين يتفوق على مجرد الإيمان.

أما في فئة مختلفة من الأدب، فتوجد ما يسمى بالأعمال الرسولية،

والتي كتب معظمها على الأرجح مؤلفون غنوصيون، وخاصة لوسيوس شارينوس، كما نوقش في الفصل 8. حظيت هذه الكتب بشعبية كبيرة طوال القرون المسيحية الأولى، ولم تكن تعتبر على الإطلاق كتباً غير أرثوذكسية. إن أهمها من وجهة نظر غنوصية هي أعمال يوحنا وأعمال توما، لأن العنصر الغنوصي لا يزال واضحًا جدًا فيها.

أحد أروع الأمثلة على الاستعارة الرمزية الغنوصية هو جزء من أعمال توما يسمى "ترنيمة اللؤلؤة" أو "ترنيمة رداء المجد". هي رواية شعرية تُروى بضمير المتكلم، ويُقال إن الرسول توما هو من قام بتأليفها. تمت ترجمة القصيدة ببراعة من قبل ميد، وهي متوفرة أيضاً بترجمات أخرى. يصف هذا النص، بشكل رمزي، الأسطورة الأحادية للغنوصية: رحلة الروح البشرية من الكمال إلى التجسد على الأرض والعودة إلى الكمال مرة أخرى. يشبه هذا العمل إلى حد ما قصة الابن الضال، على الرغم من أن أسلوبه أكثر شعرية ومحتواه أكثر نموذجية. يبدو أن المعنى متعدد المستويات، مما يسمح للأشخاص ذوي درجات متفاوتة من الغنوص بالاستفادة من قراءته. يناسب البطل الفئة التي يسميها بعض علماء الأساطير المعاصرين "المُخَلص المُخلِص"، لأنه يأتي إلى هذه الأرض لتحرير واستعادة اللؤلؤة (رمز واضح لكنز النور الغنوصي - ربما الشرارات الإلهية في الأسر الأرضي)، وفي محاولته يقع هو نفسه فريسة للنسيان والاغتراب. بعد أن أيقظته رسالة من الكمال، شرع في عمله الخلاصي وعاد في النهاية إلى عالم والديه السماويين.

يحتوي سفر أعمال يوحنا على عدة فصول لافتة للنظر حول أعمال يسوع قبل صلبه مباشرة، وكذلك حول عملية الصلب نفسها. الجزء الذي يُترجم عادةً إلى "ترنيمة يسوع" مثير للاهتمام بشكل خاص. إن الترانيم عبارة عن قصيدة ذات محتوى غنوصي لا شك فيه، وكما هو مذكور في الفصل 7، يتم غناؤها من قبل يسوع والرسل أثناء أدائهم رقصة صوفية في ليلة خميس العهد. تغيب الرقصات المقدسة بشكل ملحوظ عن الطقوس المسيحية، وقد تبدو صورة يسوع وهو يرقص تدنيساً للمقدسات حتى اليوم بالنسبة للعقل الأرثوذكسي. لكن الكنيسة القبطية الإثيوبية تتضمن رقصة مقدسة في قداسها. من يستطيع الجزم بأن هذا قد لا يكون من بقايا الممارسات الغنوصية القبطية، المشابهة لتلك الموصوفة في "ترنيمة يسوع"؟

ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر، ظهرت ثلاث مجموعات من الكتابات الغنوصية الأصلية في مؤسسات مختلفة في إنجلترا وأوروبا. كيف تمكنوا من البقاء مختبئين لمدة ستة عشر قرناً ثم ظهروا فجأة هو أحد ألغاز التاريخ. في عام 1784، تم اكتشاف كتاب قديم مكون من 346 صفحة ضمن ممتلكات طبيب بريطاني يدعى أسكيو. تم اقتناؤها من قبل المتحف البريطاني وأطلق عليها اسم مخطوطة أسكيو. كُتبت محتوياتها باللهجة الصعيدية من اللغة القبطية، مما قد يشير إلى أنها تأتي من صعيد مصر، حيث تم اكتشاف كتابات نجع حمادي الشهيرة في القرن العشرين. يروي النص الرئيسي لمخطوطة أسكيو، بيستيس صوفيا، قصة شخصية الحكمة الأنثوية الغنوصية. الراوي هو يسوع نفسه. وحتى يومنا هذا، يُعد هذا العمل مصدرنا الرئيسي لقصة سقوط صوفيا وفدائها (انظر الفصل 4).

كان ترجمة المخطوطة أو التعليق عليها بطيئاً، ولكن بحلول أواخر القرن التاسع عشر، جذبت انتباه ميد، الذي أعدّ أول ترجمة متاحة لكتاب بيستيس صوفيا بنثر إنجليزي رائع. شجعت السيدة بلافاتسكي، معلمة ميد، ميد في هذه المهمة، وقبل وفاتها مباشرة كتبت بعض التعليقات على النص، بما في ذلك رسم تخطيطي رسمته لتوضيح محتوياته. لا تزال ترجمة ميد هي النسخة الأكثر انتشارًا والأكثر إعدادًا بشكل ثاقب لهذا العمل، وقد حظيت بإعجاب الكثيرين، بمن فيهم يونغ.

ومن بين المحتويات الأكثر تعقيدًا والتي تحظى باهتمام كبير أيضًا مخطوطة بروس، التي اكتشفها الرحالة الاسكتلندي جيمس بروس في الشرق الأوسط وأودعها في مكتبة بودليان في أكسفورد. يتكون هذا الكتاب من جزأين، الجزء الأكبر هو "معرفة الإله الخفي" أو "كتب جو"، والجزء الأصغر هو "نهاية العالم بدون عنوان". كما ورد في الفصل السابع، يروي الجزء الأول رحلة رؤيوية مذهلة يأخذ فيها يسوع تلاميذه إلى العوالم الداخلية ويمنحهم التأهيلات الروحية. النص

مليء بالرسوم البيانية والرموز السحرية المصحوبة بصيغ لفظية إما بلغة غير معروفة، أو تمثل أمثلة على "التكلم بألسنة". كانت الرسالة محيرة للعلماء السابقين، وقد وُصفت في بعض الأحيان بازدراء بأنها سحرية. ولحسن الحظ، حظي هذا الموضوع باهتمام إيجابي أكبر في الآونة الأخيرة. لكن للأسف، لا توجد ترجمة دقيقة ولا نسخ مطابقة للتصاميم في أي من الطبعات الإنجليزية.

تمت ترجمة وتعليق كتاب "نهاية العالم بدون عنوان" من قبل علماء أكثر بكثير من كتاب "أسفار جيو". هذه الرسالة، التي تسمى أيضًا معرفة النور، هي عمل صوفي ذو عظمة وجمال ساميين يصف التجلي التدريجي للألوهية وأيضًا مهمة شرارة النور الإلهي في العالم.

أما المخطوطة الثالثة من بين المخطوطات الغنوصية الثلاث التي ظهرت في القرن التاسع عشر فهي مخطوطة برلين، والمعروفة أيضاً، بسبب مكان نشأتها في مصر، باسم مخطوطة أخميم. على الرغم من أن العالم الألماني الشهير كارل شميدت قام بإعداد ترجمات لأجزاء من هذه المخطوطة، إلا أن محتوياتها لم تُنشر لفترة طويلة جدًا. يتألف من ثلاث رسائل، أشهرها إنجيل مريم، الذي يتناول سردًا للأعمال والتعاليم الصوفية ليسوع كما روتها مريم المجدلية. تم نشر هذه الرسالة باللغة الإنجليزية في الجزء الأخير من مكتبة حمادي باللغة الإنجليزية، وبالتالي فهي متاحة بشكل عام. إنها واحدة من أهم الأعمال الغنوصية التي تتناول مريم المجدلية؛ ونبرتها الصوفية ورمزيتها الغريبة، والجنسية في بعض الأحيان، تجعلها ذات أهمية للدراسة والتعليق المعاصرين. أما الرسائل الأخرى، أعمال بطرس وحكمة يسوع المسيح (كما كانت تُعرف سابقًا)، فهي بحاجة إلى مزيد من البحث والاستكشاف أيضًا.

أدى ظهور الكتابات الغنوصية الأصلية إلى تغيير كل من الدراسات الغنوصية الأكاديمية والاهتمام الشعبي بالغنوصية في أواخر القرن التاسع عشر وطوال النصف الأول من القرن

العشرين. أثارت بيستيس صوفيا، على وجه الخصوص، ضجة كبيرة في أوساط الروحانية الباطنية. لولا هذه الاكتشافات، لكان من المستحيل تصور إحياء الغنوصية الناشئة في تلك الفترة. منذ بداية القرن العشرين، كانت الغنوصية على الأقل بشكل متقطع موضوعاً لاهتمام عام معتدل. لقد احتوت الروايات والقصائد، وخاصة الأدب الثيوصوفي وغيره من الأدب الباطني، على المزيد والمزيد من الإشارات إلى الغنوصية. لقد استفاد المعلمون الباطنيون، مثل رودولف شتاينر وجورج آي. غوردجييف وب. د. أوسبنسكي، من الفكر الغنوصي. كان المشهد حينها جاهزاً لتدفق كبير من الحكمة الغنوصية، والتي ظهرت في منتصف القرن في شكل أهم اكتشاف للكتابات الغنوصية على الإطلاق: مكتبة نجع حمادي.

ضوء جديد من كهف قديم. مخطوطات نجع حمادي

حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت النصوص الغنوصية تقتصر على الملخصات والمراجعات للتعاليم الغنوصية التي كتبها آباء الكنيسة المذكورون سابقًا والمخطوطات الغنوصية الأصلية الثلاثة التي تمت مناقشتها للتو. ويستحقون الثناء على أن العديد من الطلاب المتعمقين في التقاليد الغنوصية، بمن فيهم ميد ويونغ، تمكنوا من تكوين صورة دقيقة إلى حد ما عن الغنوصية على أساس هذه الأدلة الشحيحة. وبإضافة معرفتهم الخاصة إلى قراءاتهم، فهم العديد من هؤلاء الغنوصيين المعاصرين معنى هذه النصوص المعقدة والمتشعبة بشكل جيد للغاية. ما يثبته هذا هو أنه لفهم نص غنوصي، يجب أن يكون المرء غنوصيًا. كتب كتّاب مثل ميد ويونغ عن الغنوصية من الداخل، إن صح التعبير، وهذا يفسر فهمهم الرائع لموضوعهم.

شهد عام 1945 حدثاً مذهلاً غيّر وجه الدراسات الغنوصية إلى الأبد. في شهر ديسمبر من ذلك العام، اكتشف فلاح عربي

إناءً طينياً مليئاً بالمخطوطات أثناء حفره بحثاً عن السماد في وادٍ بصعيد مصر. لا يزال الموقع الدقيق للاكتشاف موضع تكهنات. يشتبه البعض في أن الاكتشاف تم بالفعل في أحد الكهوف العديدة الموجودة في سلسلة الجبال التي تطل على وادي نجع حمادي، لأنه في هذه المنطقة أسس مؤسس الرهبنة المسيحية، الراهب القبطي باخوميوس، مجتمعه الرهباني الكبير. من المرجح جداً أن تكون المخطوطات البردية الثلاثة عشر التي تشكل ما يسمى مكتبة نجع حمادي قد شكلت بعض المواد القرائية الأقل تقليدية للرهبان في هذا الدير. عندما اجتاحت موجة من الاضطهاد الديني مصر في القرن الرابع، ربما قرر الرهبان القلقون دفن كتبهم الهرطقية. لم يدركوا أن مكتبتهم لن تظهر إلا بعد ألف وستمائة عام.

بعد سنوات من الاكتشاف، أفاد المكتشف أنه كان مترددًا لفترة من الوقت في فتح الجرة الفخارية الكبيرة خوفًا من أنها قد تحتوي على جن (روح). عندما حطم الجرة الحمراء بمطرقته في النهاية، ارتفعت سحابة من الغبار الذهبي وتبددت في هواء الصحراء. ربما يكون "المارد" قد خرج من القمقم بالفعل وسيتسبب في تطورات غريبة لسنوات قادمة.

وقد رافقت عملية ترجمة ونشر مكتبة نجع حمادي الكثير من الجدل الأكاديمي والسياسي. أدت الاضطرابات السياسية في مصر إلى طرد العلماء الغربيين، وبقي هذا الاكتشاف طي النسيان. تم تهريب مخطوطة واحدة - تحتوي من بين رسائل أخرى على إنجيل الحقيقة الشهير، والذي ربما يكون فالنتينوس قد ألفه - من مصر واكتُشفت في متجر لبيع الكتب بواسطة خبير يونغ الغنوصي، كويسبيل. قام أصدقاء يونغ بتأمين ثمن الشراء وقدموا المخطوطة إلى يونغ بمناسبة عيد ميلاده الثمانين. كان المعلم الغنوصي المسن في زيورخ، الذي تأثر بشدة بالهدية، مهتمًا للغاية برؤية بقية المكتبة مترجمة ومنشورة.

(اتُهم المؤلف الحالي بالمبالغة في دور يونغ

في نشر مكتبة نجع حمادي). والحقيقة هي أنه في حين أن المشروع العملي لإنقاذ الاكتشاف وترجمة محتواه كان إلى حد كبير من عمل الدكتور جيمس روبنسون من معهد العصور القديمة والمسيحية في كليرمونت، كاليفورنيا، فإن اهتمام يونغ الحيوي بالوثائق الغنوصية سهّل النشر من الناحية النفسية. ساهم تأييد يونغ لأهمية هذه الكتابات في الاستجابة الإيجابية الواسعة النطاق لمشروع النشر. لا يمكن المبالغة في تأثير شخص بمكانة يونغ، الذي عرف الغنوصية من الداخل، كما يُقال.

مكتبة نجع حمادي هي بالضبط ما يوحي به اسمها: مكتبة. إنها ليست مجموعة رسمية من النصوص المقدسة، بل مكتبة تحتوي على مواد قراءة متنوعة ذات أهمية غنوصية. تحتوي بعض الرسائل على كتابات ليست غنوصية بالمعنى الدقيق للكلمة، على سبيل المثال، الزوستريانوس، وجزء من جمهورية أفلاطون، وخطاب التأهيل الهرمسي الرائع "الثامن يكشف التاسع". أما بقية المواد الكبيرة فيمكن تصنيفها تحت ستة عناوين رئيسية. يتعلق أول هذه الأمور بالأساطير الإبداعية والخلاصية، حيث يقدم روايات عن خلق العالم، وآدم وحواء، ونزول الكلمة المخلصة في صورة يسوع. العديد من المقاطع المقتبسة في الفصل الثالث مأخوذة من هذا المصدر. أما الفئة الثانية فتتألف من التعليقات والملاحظات حول مواضيع غنوصية مختلفة، مثل طبيعة النفس، والخلاص الروحي، وعلاقة النفس بالعالم. إن أبرز هذه الرسائل هو إنجيل الحقيقة، الوارد في مدونة يونغ، والذي يتألف من خطاب جميل يتعلق بمهمة المخلص ورسالته الروحية. أما الفئة الثالثة فتضم النصوص الليتورجية والطقوسية، والتي يعتبر كتاب "الثامن يكشف التاسع" أكثرها إثارة للاهتمام. أما الفئة الرابعة فتتألف من كتابات تتعلق بالأنوثة الإلهية، وخاصة صوفيا. وتشمل المجموعة الخامسة كتابات عن بعض الرسل. تحتوي الفئة السادسة على أقوال يسوع بالإضافة إلى أحداث من حياته.

لا يوجد سوى أربعة نصوص مقدسة في مجموعة نجع حمادي تحمل عنوان "الإنجيل": إنجيل توما، وإنجيل فيليب، وإنجيل الحقيقة، وإنجيل المصريين. ومن بين هذه الكتب، فإن إنجيل توما هو الأكثر سهولة في الوصول إليه وبالتالي الأكثر شعبية. بخلاف الأناجيل الأربعة القانونية، فهي ليست رواية تصف حياة يسوع. بل هو بالأحرى مجموعة من أقوال يسوع. بعض هذه النصوص متطابقة تقريبًا مع تلك الموجودة في المصادر القانونية، في حين أن العديد منها يتميز بطابع غنوصي واضح. من المؤكد أن النبرة الغنوصية تظهر في الأقوال التمهيدية:

> هذه هي الكلمات السرية التي نطق بها يسوع الحي. من يجد تفسير هذه الكلمات لن يصعق بالموت.

> وقال [يسوع]: من يطلب فليطلب حتى يجد. وعندما يجد نفسه سيُصاب بالضيق؛ وعندما يُصاب بالضيق سيتعجب، وعندما يتعجب سيسود على الكل. (مقدمة ومقولة 1)

لاحظ أنه لا يوجد حث على الإيمان، ولا يوجد بيان بأن الناس إذا آمنوا فسوف ينجون. بدلاً من ذلك، يُطلب من القارئ أن يفسر ويفهم ويبحث ويصبح سيداً على كل شيء. هذه وصفات للخلاص الغنوصي وليس للخلاص الأرثوذكسي. يتم التأكيد بوضوح على أن الغنوص الذاتي هو المعرفة العامة:

> عندما تعرفون أنفسكم، حينها ستُعرفون، وستعرفون أنكم أبناء الآب الحي. لكن عندما لا تعرفون أنفسكم، ستكونون في فقر وستكونون أنتم الفقر. (القول الثالث)

أي عالم نفس تحليلي حديث قد يختلف مع ما يلي؟

> إذا أخرجتم ما هو موجود في داخلكم، فإن ما تخرجونه سينقذكم. إذا لم تُخرج ما في داخلك، فإن ما لم تُخرجه سيقتلك. (القول 70)

تحتوي بعض نصوص نجع حمادي على مؤشرات واضحة على "النخبوية" التي تعرض لها الغنوصيون والتي تعرضت لانتقادات كثيرة. تحتوي الرسالة المعنونة "رؤيا بطرس" على مقطع مثير للاهتمام يظهر فيه يسوع وهو يضحك ويفرح (كما هو الحال في رواية أعمال يوحنا) أثناء صلبه. يشعر بطرس بالذهول لأن الحشد لا يستطيع أن يرى الطبيعة الحقيقية لصلب يسوع، ويقول ليسوع: "يا رب، لا أحد ينظر إليك"؛ فيجيبه يسوع: "لقد قلت لكم: اتركوا العميان وشأنهم". أي أن الأغلبية دائماً عمياء. إن محاولة شرح ما لا يستطيع المكفوفون رؤيته بطبيعتهم هو مضيعة للوقت والجهد. إن المعنى الخفي للأحداث والتعاليم، بل وللحياة نفسها، لا يعرفه إلا القليل. تتناقض هذه الأقوال بشكل قوي مع الادعاء التقليدي بأن يسوع كشف كل شيء. يجعل هندريك إبسن بطله في مسرحيته الرائعة *"عدو الشعب"* يصيح قائلاً: "الأغلبية؟" "الأغلبية ليست على صواب أبداً!" سيوافق الغنوصيون على ذلك.

ذكر أستاذ في الدراسات الدينية في سبعينيات القرن الماضي

أنه بعد أن أوصى أحد طلابه بقراءة إنجيل توما، أبلغ الطالب الفصل بفرح: "يسوع بوذي زن". في الواقع، يبدو أن الغرض من العديد من أقوال يسوع الموجودة في الكتب الغنوصية مشابه للغرض من كوآن الزن. إنها ليست مصممة لنقل المعلومات بقدر ما هي مصممة لإحداث تحول روحي في المريد.

يُزعم أحيانًا أن الأناجيل الغنوصية تفتقر إلى التركيز على الحب الموجود في رسالة الإنجيل القانونية. يفترض النقاد أن يسوع الذي يظهر في هذه الأناجيل ليس هو صانع المعجزات المهتم الذي يقوم بشفقة على البشر بإحياء الموتى، وشفاء المرضى، وإعادة البصر إلى المكفوفين. لكن هذا الاستدلال خاطئ. إن يسوع الذي يظهر من الإنجيل بحسب توما والكتب المقدسة المماثلة هو معلم روحي، ومرشد للنفوس، يقوم بتأهيل المختارين المؤهلين الغنوص الروحي. ومثل غوتاما بوذا من قبله، يدرك أن التخفيف الجسدي للمعاناة ليس كافياً،

لأن الجذور النهائية للمعاناة تكمن في العقل والقلب. كما هو الحال في الأناجيل القانونية، كذلك في الأناجيل الغنوصية ينصح تلاميذه بأن يحبوا بعضهم بعضاً:

أحب أخاك كنفسك، واجعله كبؤبؤ عينك. (القول 25)

لكن كما هو الحال بالنسبة لكل غنوصي، كذلك بالنسبة ليسوع أيضاً: فإن أكثر أعمال الحب فعالية هو التحرر الروحي، الذي يؤدي إلى توقف كل المعاناة الجسدية والنفسية أيضاً. ولهذا السبب، فإن يسوع في هذه الأناجيل لن يكون أبداً شخصية مناسبة لعلماء اللاهوت التحريري؛ فالتحرير الذي يجلبه ليس سياسياً أو اقتصادياً بل روحياً. لكن - وهذا بالتأكيد لا ينبغي نسيانه - لأنه تحرير يحرر العالم بدلاً من تحرير العالم، فهو أيضاً تحرير نهائي. وهذا بالتأكيد يستحق الكثير.

دائماً وفي كل مكان في مجموعة نجع حمادي من الكتب المقدسة، نجد الاقتران الغنوصي النموذجي بين الذات واللاذات المتعالية - الروح الساكنة والألوهية التي تتجاوز الأيونات. الطريق إلى الإلهي يمر عبر الذات. تُعبّر رسالة نجع حمادي "تعاليم سيلفانوس" عن هذا بوضوح:

أنِر عقلك. أضئ المصباح الذي بداخلك. اطرق على

نفسك كما لو كنت تطرق باباً، وامشِ على نفسك كما لو كنت تسير على طريق مستقيم. لأنه إذا سرت في الطريق، فمن المستحيل أن تضل. افتح

الباب لك لكي تعرف ما هو.

تُعد مخطوطات نجع حمادي مستودعاً رائعاً للحكمة الغنوصية. إنها ليست فقط أكبر مجموعة من الكتابات الغنوصية التي تم اكتشافها على الإطلاق، ولكن من خلال اكتشافها تضاعف حجم المعرفة الغنوصية المتاحة بشكل كبير. لأول مرة منذ ألفي عام، توجد مواد غنوصية كافية لإقناع عدد متزايد من الأشخاص الجديرين بالتقدير في ثقافتنا بأن إعادة تقييم

حكم العالم المسيحي على الغنوصيين قد يكون أمراً مناسباً. يمكننا أن نرى أن الصورة التي رُسمت لنا منذ زمن بعيد بشأن البدايات الأولى للمسيحية كانت معيبة بشكل خطير. لم تكن هناك "كنيسة عظيمة" واحدة، ولا مؤسسة دينية أرثوذكسية نقية انفصلت عنها "الهرطقة الغنوصية" عمداً وبشكل منحرف. بل إن العالم المسيحي كان منقسماً منذ البداية؛ فقد كان تجمعاً لأنواع عديدة من المعتقدات والتفسيرات وأنواع عديدة من الغنوص أيضاً. اليوم، عندما تنقسم المسيحية غير الغنوصية مرة أخرى إلى مئات الطوائف، قد يكون هناك مكان مرة أخرى للمتهم زوراً والمتجنب "الهرطقي"، أي الغنوصي. الصورة تتغير، وقد جاءنا عامل التغيير من رمال الصحراء، من الجرة الفخارية الحمراء القديمة التي أطلقت أكثر من مجرد سحابة صغيرة من الغبار الذهبي في عام 1945. نتيجة للعمل الدؤوب والمتفاني للعديد من العلماء،

أصبحت مكتبة نجع حمادي بأكملها متاحة بنثر إنجليزي سهل وبأسعار معقولة منذ عام 1977. لم يسبق في التاريخ أن توفرت مثل هذه الكمية من المواد لدراسة واستيعاب هذه التعاليم. في عالم مضطرب ومنقسم بشكل مؤلم، تُعد هذه علامات جيدة بالفعل.

كتب ميد، أحد أعظم الرواد الأوائل في مجال النصوص الغنوصية، منذ ما يقرب من مائة عام، ولكن بشعورٍ دائمٍ بأهميته في الوقت الحاضر:

> صحيح أننا اليوم نتحدث بصراحة عن أشياء كثيرة غلّفها الغنوصيون بالرمز والأسطورة؛ ومع ذلك فإن معرفتنا الحقيقية بهذه المواضيع ليست متقدمة كثيراً عن كبار علماء الغنوصية كما نميل إلى تخيل ذلك؛ الآن، كما في السابق، لا يوجد سوى قلة ممن يعرفون حقاً ما يكتبون عنه، بينما يقوم الباقون بالنسخ والمقارنة والتكييف والتكهن....
>
> من ذا الذي يملك من الذكاء ما يكفي ليقرر كل هذه المواضيع الرفيعة نيابة عن زملائه؟ فليتبع كل واحد النور كما يراه - فهناك ما يكفي للجميع؛ حتى نرى في النهاية "كل الأشياء تتحول إلى نور - نور حلو بهيج". [شظايا الإيمان منسي 592، 606-7]

الفصل الرابع عشر

الغنوصية
والفكر ما بعد الحداثي

تبدو لنا الغنوصية وكأنها قديمة وبعيدة المنال، وفي الوقت نفسه معاصرة وحيوية للغاية. قد يعود ذلك جزئياً إلى تشابه معين في السياقات التاريخية للغنوصية القديمة من جهة، وما بعدها من جهة أخرى.

من جهة أخرى، عالم الفكر الحديث. إن بيئات القرون الأولى من العصر المسيحي والقرن العشرين وربما القرن الحادي والعشرين ليست مختلفة كما قد يتوقع المرء. يشهد كلا العصرين على تقدم مادي متواصل. لقد جلبت فترة السلام الأمريكي، مثل فترة السلام الروماني، قدراً من الاستقرار والأمن والازدهار في أعقابها. (كانت أسواق الإسكندرية في القرن الثاني تخدم أغراضاً مشابهة لتلك التي تخدمها مراكز التسوق لدينا.) ومع ذلك، فإن كلا الفترتين مليئتان أيضاً بالقسوة والقلق والحزن. لقد بُنيت روما على عمل العبيد وعلى دماء الشعوب المغلوبة؛ أما العالم الحديث المتأخر وما بعد الحداثة فهو عالم ازدهرت فيه معسكرات الإبادة والاستبداد الشمولي والهجمات الإرهابية. إن الغنوصيين وأقاربهم الروحيين في كلا العصرين هم أولئك الذين خلصوا إلى أن سر الحياة العظيم لا يمكن العثور عليه في مثل هذا العالم،

وبالتالي يجب البحث عنه في مصادر أعمق وأقل دنيوية. لقد أفسحت الأجواء الثقافية البسيطة والفضيلة للجمهورية الرومانية

المجال للروح التعددية الثقافية والعدمية العظيمة للإمبراطورية الرومانية؛ وكذلك الأسس المتفائلة والعلمانية والعقلانية والتقدمية للمجتمع الغربي الحديث تتلاشى حاليًا. قبل فترة ليست ببعيدة، كنا نفترض عمومًا أنه من خلال العقل سنكتشف "قوانين الطبيعة" وأن الأمور ستتحسن أكثر فأكثر من خلال تطبيق هذه القوانين. اليوم، نادراً ما يتم التسليم بهذا الافتراض دون تساؤل. لا يأخذ الكثيرون وعد التقدم من خلال العقل على محمل الجد.

في زمن الغنوصيين، كان حشد الآلهة الأولمبية القديمة هو الذي فشل. لقد شهدنا في عصرنا الحالي أفول آلهة العصر الحديث - الأيديولوجية السياسية، والعلوم، وعلم الاجتماع، وعلم النفس القائم على الطب، وربما مؤخراً الحركة البيئية. لا تزال ثقافتنا تعمل كما لو كانت قائمة على النزعة الإنسانية العقلانية لعصر التنوير في القرن الثامن عشر، لكنها تفعل ذلك بثقة أقل فأقل في تلك الفلسفة. شكوك جديدة تقوض الإيمان العلماني الذي ساد خلال القرون الثلاثة الماضية. أصبحت الطبيعة، التي كانت تُعتبر في السابق منظمة بطبيعتها، تُنظر إليها من قبل بعض العلماء على أنها أكثر فوضوية بكثير مما كان يتصوره أي شخص. كما أن التاريخ البشري لم يعد يُنظر إليه على أنه شيء يمكن للبشرية العقلانية أن تطوعه حسب رغبتها. يتزايد النظر إلى العملية التاريخية على أنها قوة قائمة بذاتها، لا تخضع لإملاءات العقل البشري وأهدافه. وبشمولها لكل شيء، يُنظر إلى الكون نفسه في كثير من الأحيان ليس على أنه الكون المتناغم القديم، ولكن مع ظهور نظرية الفوضى، على أنه ظاهرة من التدفق والتغير المستمر حيث تكون معظم الظواهر المشؤومة غير قابلة للتنبؤ بطبيعتها. كتب دونالد وورستر، وهو محلل أكاديمي للنظريات الجديدة ومؤرخ بيئي معترف به دوليًا: "إن عصرنا هو عصر ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، حيث يذوب كل ما بدا صلبًا في الهواء" (مقابلة في مجلة ستريت الكاملة، 11 يوليو 1994).

ولتوضيح الوضع بعبارات واقعية: لننظر إلى التغيرات في السمات الثقافية المميزة مثل المواضيع التي يتم عرضها على شاشة السينما. أظهرت لنا أفلام الخمسينيات، مع استثناءات ملحوظة، عالماً يتقدم بسعادة بفضل جهود العلم. بعد أربعة عقود، قدم لنا فيلم "جوراسيك بارك" عالماً طبيعياً مرعباً، اجتاحته قوى أطلقتها علوم غير مسؤولة وفاسدة. هل الاختلافات في هذين التصويرين محض صدفة؟ لكن المراقبين الأكثر دقة لا يعتقدون ذلك. ويخلصون إلى أن الاختلافات تشير إلى إثارة تساؤلات مقلقة حول السلوك البشري والقيم الأخلاقية.

إن الاتجاه ما بعد الحداثي، الذي أثبت أنه مدمر للغاية للإيمان القديم الراسخ بالتقدم المنظم، ينشأ في حد ذاته من الفكر العلمي. لقد وسعت نظرية الفوضى بعض الأفكار الراسخة للعلماء فيما يتعلق بعدم القدرة على التنبؤ بالكون والطبيعة - بدءًا من "مبدأ عدم اليقين" لهايزنبرغ الذي تم صياغته في عشرينيات القرن الماضي. باختصار، تنص النظرية على أنه لا يمكن التنبؤ بالسلوك طويل المدى للأنظمة (مثل الطقس، أو الكون نفسه) على وجه اليقين. يتطلب التنبؤ الدقيق معرفة الظروف الأولية للنظام بدرجة مطلقة من الدقة. من الواضح أن هذا مستحيل؛ لذلك، يبدو أن مبدأ الأحداث العشوائية أكثر انتشارًا من مبدأ القدرة على التنبؤ. تعكس هذه التغيرات الجذرية في الفكر العلمي في نهاية المطاف تغيراً جوهرياً في الثقافة الأوسع. لم تكن قلعة العلوم وحدها هي التي غزتها القوة المركزية للتفكيكية، بل الأدب والمسرح والفنون البصرية والعلوم الاجتماعية أيضاً. يتم تفكيك الأدب وفقًا لمسارات سياسية واجتماعية، والنتيجة هي تآكل الاحترام الذي كان يحظى به التراث الأدبي للثقافة تقليديًا.

من المحتمل أن يجد الغنوصي القديم نظرية الفوضى خبراً مثيراً، لأنها تشير إلى نظرة للواقع مشابهة للنظرة الغنوصية للعالم. بما أن الكون من تصميم الديميورج، فإنه مشكوك فيه

من نواحٍ عديدة - ليس أقلها أنه مزيف في الغالب. فعلى سبيل المثال، تقول النصوص الغنوصية أن الديميورج ابتكر دورات الزمن كتقليد رديء للأبدية الخالدة. إن النظام والعظمة والشرعية في الكون هي في الغالب زائفة؛ وعلى الأرجح، تحت قشرة النظام الثابت والتقدم السببي، يكون الكون فوضوياً وعشوائياً. قد يرد الغنوصي بسخرية على مقولة أينشتاين الشهيرة بأن الله "لا يلعب النرد"، قائلاً: "أوه، ألا يفعل ذلك الآن؟" إلداباوث، أحد أكثر الأسماء شيوعًا للديميورج، يعني "الإله الطفولي"، ومن المؤكد أنه سيكون متوافقًا مع شخصية مثل هذا الكائن أن يلعب النرد بالكون الذي جمعه معًا.

بالطبع، يميز الغنوصيون بين الإله الذي يصنع الكون - والذي قد يلعب النرد - وبين الألوهية المتعالية الموجودة خارج جميع العوالم والأنظمة. من غير المرجح أن يلعب الإله المتعالي النرد. علاوة على ذلك، في طريقة التفكير الغنوصية، نادراً ما تكون العبارات القطعية مناسبة. تشير العديد من النصوص الغنوصية بوضوح إلى أن جوانب من الألوهية العليا قد تسللت سراً إلى عالم الديميورج. يكمن عنصر متعالٍ ضمني وراء النظام الزائف للكون، وبالتالي يكمن وراء الفوضى أيضاً. يتعلق المفهوم الأساسي هنا بالوعي، أو بشكل أدق، بالغنوص. عندما يتم تفكيك الكون، فإنه يكشف عن نفسه على أنه فوضى. لكن عندما يتم اختراق الفوضى بنوع من الوعي المتغير المعروف باسم الغنوص، فإن الفوضى تكشف عن حقيقة ضمنية لها نظامها الخاص. يختلف هذا النظام اختلافًا كبيرًا عن النظام الوهمي لعالم الديميورج. إن إدراك الفوضى الكامنة تحت سطح الكون قد يكون خطوة أولى نحو الغنوص، ولكن هناك حاجة إلى خطوات أخرى. يتم اكتشاف نظرية الفوضى بوسائل عقلانية وعلمية، بينما لا يمكن اكتشاف النظام المتعالي إلا من خلال الغنوص. لا يظهر هذا النظام الذي يتجاوز النظام إلا في حالات الوعي السامية وغير العادية. لن تكشف الحسابات الرياضية والتفكيك الأدبي عن هذه الحقيقة، لكن الغنوص سيفعل ذلك.

الغنوص والعدمية

أثارت نظرية الفوضى وتداعياتها الرعب في قلوب العديد من المراقبين. يتساءل دونالد فورستر في مقابلة: "ما الذي يمكن أن نحبه أو نحافظ عليه في عالم من الفوضى؟ كيف يُفترض أن يتصرف الناس في مثل هذا الكون؟ إذا كان هذا هو نوع المكان الذي نسكنه، فلماذا لا نمضي قدماً في تحقيق جميع طموحاتنا الخاصة، دون أي خوف من أننا قد نلحق ضرراً خاصاً؟" (صحيفة وول ستريت جورنال، 11 يوليو 1994)

قبل ما يقرب من ألفي عام، طرح النقاد أسئلة مماثلة على الغنوصيين. كان جوهر الخلاف في ذلك الوقت هو رفض الغنوصيين اعتبار الشريعة الموسوية وغيرها من القواعد الدينية ضرورية للخلاص، أو بشكل أدق، للغنوص. بالتأكيد، لم يعتقد الغنوصيون أن الشريعة، سواء كانت معتمدة دينياً أو غير ذلك، عديمة الفائدة للمجتمع. ما احتجوا عليه هو فكرة أنه من خلال "حسن السلوك" في العالم يمكن للمرء أن يشتري الدخول إلى الخلاص والنعيم السماوي. ومع ذلك، فقد تكررت تهمة معاداة الشريعة (معارضة الشريعة) باستمرار ضد الغنوصيين. في الآونة الأخيرة، تحول النقد إلى اتهامات بالعدمية، والتي تعني في المقام الأول العدمية الأخلاقية.

مع مرور الوقت، أصبحت الثقافة الغربية بشكل عام أقل اهتماماً بالشريعة الموسوية وأكثر اهتماماً بنظام الكون وقانونيته. لم يكن انتقاد وصايا موسى أمراً مستهجناً، ولكن من المفترض أنه في عالم تسوده الشريعة، كان من واجب الناس التصرف بطريقة ملتزمة بالشريعة. مع الانهيار شبه الواضح للإيمان العلماني العقلاني للثقافة، فإن الخوف من العدمية الأخلاقية ليس بالتأكيد بلا مبرر. عندما يبدأ فراغ فلسفي بالظهور في ثقافة ما، سيحاول الناس ملؤه بطرق مختلفة. سيستغل الأنانيون والجشعون والشهوانيون - وهم أصحاب النزعة المادية (الهيليتي) في التراث الغنوصي - هذه الفرصة لتحقيق أغراضهم الخاصة. أما الآخرون - الذين ربما أطلق عليهم الغنوصيون اسم النفسيين - فسيسعون إلى اللجوء إلى "الدين القديم" للأصولية

والانسحاب إلى حصن من الشريعة الدينية. أما الأقلية المتبقية، وهي عادةً ما تكون صغيرة، وهم أصحاب الروحانية، فسيستجيبون بالتوجه نحو الداخل، نحو الغنوص التحرري. كان الأمر كذلك في أيام الإمبراطورية الرومانية، وقد يكون كذلك اليوم.

لكن ماذا عن تهمة العدمية الموجهة ضد الغنوصيين؟ وقد أعاد إحياء هذا الاتهام بقوة لأول مرة هانز يوناس، وهو باحث متعاطف مع الغنوصية، والذي أحدث عمله في هذا الموضوع ثورة في الدراسات الغنوصية منذ الخمسينيات. لطالما كان للتوحيد الأخلاقي، الذي يمثل جوهر تعاليم اليهودية، وبدرجة أقل الزرادشتية والإسلام والمسيحية، اهتمام بالغ بإضفاء السلطة الإلهية على القواعد الاجتماعية. يجب إطاعة الشريعة لأنها من عند الله، وإذا لم نطعه، فسوف يصيبنا الله بأشكال مختلفة.

لا يستطيع الغنوصيون في العصور القديمة ولا في عصرنا الحالي، ولن يوافقوا على الأقوال المأثورة للتوحيد الأخلاقي. وذلك لأسباب كثيرة، من الناحية الأسطورية، فإن مصدر الشريعة هو الديميورج - وهي حقيقة تقلل من سلطة الشريعة، على أقل تقدير. من الناحية التاريخية، من الواضح أن يسوع، الرسول الأخير والأعظم، قد ألغى شريعة موسى القديمة واستبدلها بشريعته الخاصة، والتي يسميها الغنوصيون شريعة الحب. (يفسر الغنوصيون العبارة التي تقول إنه جاء "ليتمم الشريعة" على أنها "إكمال" أو "إنهاء" الشريعة.) وأخيراً، يعتبر الغنوصيون شريعة المجتمع نوعاً من الواقع الثانوي، وزيفاً للواقع الروحي. الأشخاص الذين لا يرغبون في الارتقاء إلى الرؤية الروحية يسقطون الواقع المتعالي على المؤسسات وقواعدها، ويقدسون الشريعة الاجتماعية ويمكّنونها باعتبارها "حقوقاً إلهية". عندما يسمح البشر للشريعة بأن تصبح محور تركيزهم الديني الأساسي، فإنهم يعزلون أنفسهم عن إمكانية الغنوص الروحي. أما الغنوصيون، من ناحية أخرى، فيسعون وراء الروح، التي كُتب عنها أنها "تهب حيث تشاء". إن موقف معظم المتصوفين، بمن فيهم أعظم علماء الكابالا والمتصوفين المسيحيين والصوفيين المسلمين، تجاه الشريعة الدينية يعكس عموماً هذا الازدراء الغنوصي.

أين يختلف الغنوصيون عن العدميين المعاصرين وما بعد الحداثيين

ربط معظم النقاد المعاصرين للغنوصية باعتبارها عدمية أخلاقية الغنوصيين بالوجودية، وبالفكر النيتشوي، وفي بعض الأحيان حتى بالمواقف النازية الألمانية. وراء انتقاداتهم تكمن فكرة أن الأشخاص الذين لا يولون اهتماماً لشريعة موسى من المرجح أن يتغاضوا عن جميع أنواع السلوك المشين، وعلاوة على ذلك، أنه إذا شعر شخص ما أن العالم بلا معنى، فمن المحتم أن يعيش حياة خالية من المعنى. ويمكن تقديم حجج مماثلة ضد الكثير من الأفكار ما بعد الحداثية أيضاً.

لكن أوجه التشابه لا تعني بالضرورة التطابق. إن الوجودية وغيرها من التعاليم الحديثة وما بعد الحداثية، بما في ذلك نظرية الفوضى، تشبه الغنوصية جزئياً فقط. لقد أكد الفكر الحديث وما بعد الحداثي، بطريقة غنوصية إلى حد ما، على مواضيع مثل الاغتراب، والوحدة، وسقوط النفس في العالم - أسرها، وقلقها، ورعبها الوجودي. إلا أن هذه الإدراكات تمثل ما يقرب من نصف الصورة الغنوصية للواقع. لا نجد في الفكر الوجودي وما يتصل به التزاماً راسخاً بحقيقة مطلقة تتجاوز هذا العالم، والتي قد تسافر إليها النفس المنعزلة والقلقة والمكتئبة. إن البشرية الحديثة وما بعد الحداثية ميؤوس منها، بينما يمتلئ الغنوصيون بأمل الخلاص. علاوة على ذلك، فإن الغنوصية هي تقليد مليء بما يميز التقاليد بشكل عام: التعاليم والكتب المقدسة والممارسات الروحية. إن عصرنا، الذي يتسم عموماً بالشك في التقاليد، يميل بطبيعة الحال إلى التركيز على الجانب غير التقليدي من الغنوصية. لكن جانبها التقليدي هو الذي، على عكس الكثير من الفكر الحديث وما بعد الحداثي، يشير إلى الطريق نحو مصير الحياة البشرية. يعلم الغنوصي أن أصل البشر يعود إلى الأزل وأن الخلود هو هدفهم أيضاً. وهذا يُحدث فرقاً كبيراً!

وماذا عن الجانب الشخصي لتهمة العدمية الأخلاقية؟

لم يُعرف عن الغنوصيين القدماء أنهم أقل التزاماً بالشريعة من المسيحيين السائدين. إذا استبعدنا بعض الاتهامات المبكرة بالتجاوزات الجنسية باعتبارها افتراءات ذات دوافع سياسية، فلن يتبقى شيء يدل على أن الغنوصيين مجرمون أو حتى غير أخلاقيين. من المعروف أن الغنوصيين المانويين عاشوا حياة تتسم بنقاء زاهد استثنائي، ويمكن قول الشيء نفسه عن الكاثاريين في العصور الوسطى، الذين قال عنهم أحد خصومهم اللاهوتيين، القديس برنارد من كليرفو، إن "أخلاقهم كانت الأنقى".

لا شك أن الحياة الصوفية، سواء كانت غنوصية أو غيرها، تحمل في طياتها مخاطر بقدر ما تحمل من وعود، وبعض هذه المخاطر يتعلق بسلوك المتصوف. قد يؤدي التصوف أحيانًا إلى التعصب، كما تثبت ظواهر مثل الحروب الصليبية المسيحية ومحاكم التفتيش، بالإضافة إلى أعمال الثورة الإسلامية في إيران. قد يُعتبر العديد من الرهبان الصليبيين أو المحققين من نوع من المتصوفين، كما هو الحال مع بعض الملالي القساة في عصرنا الحالي. ويُحسب لممارسي التقاليد الغنوصية أنهم تجنبوا مثل هذه المزالق.

إذا كان إنكار الصور المنحوتة للثقافة يشكل العدمية، فقد يكون من حق الغنوصي أن يعترف بالذنب. لطالما حافظ الغنوصيون على قدر من الصدق الأساسي تجاه الحياة في العالم. لقد رفضوا أن يمنحوا أي مجتمع - سواء كان روما أو الإمبراطورية الفارسية أو الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، التي أشاروا إليها باسم "الوحش" - التوقعات الإيجابية التي يميل عباد المؤسسات إلى استخدامها. لكن الغنوصيين لم يكونوا حريصين على الاستشهاد. كان أحد اتهامات آباء الكنيسة ضدهم هو أنهم سيتجنبون الاستشهاد على أيدي المضطهدين الرومان للمسيحيين. حتى الكاثاريون، الذين لم يشك أحد في شجاعتهم، لم يسعوا إلى الموت على أيدي المحققين، على الرغم من أنهم عندما أصبح الأمر حتمياً تقبلوا مصيرهم بكرامة كبيرة، وساروا إلى النيران وهم يغنون. يقول إنجيل فيليب الغنوصي بسخرية أنه كما خلق الله الإنسان، فإن البشر يردون الجميل بخلق آلهتهم الخاصة التي يعبدونها. وتقول هذه النصوص المقدسة إنه من الأفضل لمثل هذه الآلهة أن تعبد البشر! إن

الآثار المترتبة واضحة: فالأفكار والتوقعات والتعلقات التي يغذيها معظم الناس ليست سوى صور محفورة بلا روح. إن عبادتهم عملٌ عبثي تماماً.

لكل عصر أبطاله المفضلون. في العصور الوسطى، كان المثل المسيحي كما فسره الباباوات والأساقفة هو المثل المقدس الذي كان الجميع، حتى الأباطرة، يخضعون له. في عصر العلم والإنسانية، أصبحت فكرة التقدم البشري بمثابة الصنم المقدس للثقافة. واليوم، يترنح هذا الصنم أيضاً على قاعدته، ويعود ذلك إلى حد كبير إلى الأفكار ما بعد الحداثية المقترنة بالدروس المحزنة للتاريخ. إذا كان التقدم يتجلى في تاريخ البشرية، فلماذا كان علينا أن نعيش خلال القرن العشرين، وهو القرن الأكثر دموية وإيلاماً على الإطلاق؟ هل كان هتلر وستالين وماو تسي تونغ حقاً نتاجاً للتقدم؟ هل ينبغي لضحايا هيروشيما أن يكونوا ممتنين لنعمة التقدم التي أتت إليهم في صورة القنبلة الذرية؟ يتهم عالم الأحياء ديفيد إهرنفيلد (مؤلف كتاب غطرسة الإنسانية) التقدمية والإنسانية بالغطرسة المفرطة عندما **يقول**: "إن فكرة التقدم هي مرض عصرنا". في الحقيقة، نحن لا نخترع مستقبلنا. نحن مجرد مهندسين نجري تغييرات لا يمكننا التنبؤ بنتائجها، والتي غالباً ما تكون كارثية. سيوافق الغنوصي بالتأكيد على ذلك.

إذا لم يتحقق التقدم من تلقاء نفسه، فهل الثورة أفضل؟ إذا رفضت المؤسسات التغيير، فهل ينبغي لنا أن نستثمر عقولنا وقلوبنا وحياتنا في تغييرها؟ هل سنظل نقتحم حصون هذا العالم إلى الأبد، آملين أن تكون كل معركة وكل ثورة وحرب هي الأخيرة؟ لا توجد سجلات لحروب أو ثورات شنها الغنوصيون طواعية. حتى عندما لجأ المتعاطفون مع الكاثار إلى السيف في لانغيدوك، فعلوا ذلك دفاعاً عن النفس وعلى مضض. لم يكن الغنوصيون مهتمين بتغيير العالم بقدر اهتمامهم بتجاوزه.

من الممكن بالفعل أن يؤدي عصر ما بعد الحداثة، بنظريته الفوضوية وغيرها من الاهتمامات المصممة لتفكيك العديد

من المُثُل وأصنام الثقافة، إلى زيادة العدمية في العالم. إن العدمية، في نهاية المطاف، تستمد اسمها من الكلمة اللاتينية التي تعني "لا شيء". عندما يتم تفكيك كل شيء، فإن ما سيبقى على الأرجح هو ذلك بالضبط: لا شيء. أم أن الأمر ليس كذلك؟ إذا ظهر في خضم هذه التغييرات أمل غنوصي، فإن زوال البنى الأرضية قد يتبعه عودة الروح إلى الكمال. غالباً ما يكون الأمر كذلك ـ عندما يتم التشكيك في الدنيوي، يبرز الأبدي. عندما يصاب البشر بخيبة الأمل ـ عندما تُسلب منهم أوهامهم ـ قد يكتشفون الحقيقة. وفي هذا الصدد، فإن الغنوصيين متفائلون بالفعل؛ فهم واثقون من أن الغنوص قد تأتي لأولئك الذين يستيقظون من سبات العالم العميق.

المنظورات الغنوصية لعصر المعلومات

إن ما بعد الحداثة متشابكة بشكل لا ينفصم مع مفهوم وواقع عصر المعلومات. إن العلماء الذين يستنتجون من حساباتهم أن الفوضى قد تكون أكثر واقعية من الكون، والأدباء والنقاد الذين ينشغلون بتفكيك الأدب والعلوم الاجتماعية، يقومون جميعاً بعملهم في المقام الأول باللجوء إلى المعلومات التي تظهر على شاشات أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم. بقدر ما يصبح المثقف المعاصر على دراية بالغنوصية، فمن المرجح أن يفسر الغنوص على أنه معلومات. حتى هذه النقطة، قام أحد أكثر كتاب الأدب الخيالي إبداعًا، فيليب ك. ديك، الذي أدمج الغنوصية بحماس في العديد من أعماله، بتفسير الغنوصية ببساطة على أنها "معلومات". لكن هل الغنوص في الحقيقة ليست أكثر من مجرد معلومات؟ إن التقدير الكبير الذي تحظى به المعلومات في عصرنا يعود بلا شك إلى تأثير الحاسوب، الذي أصبح الأداة الرئيسية للمعلومات. تتدفق كمية هائلة من المعلومات، بالإضافة إلى كمية هائلة مماثلة من المعلومات المضللة، إلى عقول لا حصر لها يومياً من شاشة الكمبيوتر. آلهتنا الجديدة هي

البيانات التي نستحضرها بطريقة سحرية على الشاشة، والتي تعدنا بربطنا بكل ما هو موجود وما يمكن أن يكون.

من البديهي أن المعلومات لا تكون جيدة إلا بقدر جودة المصدر الذي استُمدت منه. ومن الحقائق التي لا يتم ذكرها كثيراً أن المعلومات لا تكون جيدة إلا بقدر جودة العقل الذي يستقبلها. في عصر المعلومات، يزداد الإغراء بالغرور المعرفي، وهو أمر متطور بالفعل في ثقافتنا. يمكن تعريف الغطرسة المعرفية بأنها افتراض أن المرء، لمجرد امتلاكه للمعلومات، يعرف ما هو صحيح ومفيد، ولا يحتاج إلى أي تقاليد أو مصدر إلهام سوى الأنا الواعية ومواردها من البيانات. في الأمور الروحية، يمكن أن يكون هذا الغرور مؤسفاً حقاً. قد يقرر الشخص انتقاء المعلومات ذات الطبيعة الروحية المزعومة في محاولة لتكوين سلمه الفريد إلى السماء. تصبح شاشة الكمبيوتر، أو أي مصدر للمعلومات، أشبه بطاولة ضخمة في كافتيريا للأفكار حيث يمكن للمرء أن يتناول ما يشاء منها بطريقة "بوفيه" حتى يرضي غروره.

في عصر المعلومات، كثيراً ما يصادف المرء التصريح الرنان: "أنا أعرف ما هو الأفضل لي!" سأختار ما يناسب متطلباتي الخاصة. وهذا بمثابة قول شخص مريض لطبيب مؤهل: "أنا أعرف جسدي". سأختار العلاجات بنفسي، دون اعتبار لخبرتك الطبية. أو ببساطة، الأمر أشبه بطفل يدخل مطعماً ويقول: "سآكل ما هو لذيذ المذاق". لدى البوذيين رد فعال على هذا النوع من الغطرسة. يقولون إن ما يقدمونه هو التنوير، وبما أن الشخص الذي يستفسر عنه يفعل ذلك تحديداً لأنه ليس متنوراً، فعليه أولاً وقبل كل شيء أن يدرك افتقاره إلى التنوير. يقول البوذيون إن الشخص غير المستنير يكون واهماً، وبالتالي سيختار بناءً على أوهامه الخاصة. وبالتالي، فإن وجود تقليد صحيح، مع معلمين ذوي بصيرة وممارسات أصيلة، أمر ضروري من أجل تقليل الوهم أولاً ثم إزالته.

الغنوص ليس هو نفسه المعلومات، على الرغم من أن الغنوصية،

وهي وسيلة للغنوص، قد تحتوي على بعض المعلومات. لكن حتى هنا يجب توخي الحذر. تختلف المعلومات الغنوصية اختلافاً كبيراً عن معظم المعلومات الأخرى. يحتوي على الأساطير، والرؤى الثاقبة، والمحفزات النفسية والروحية، والعمليات السحرية، وأكثر من ذلك بكثير. إن التعامل مع هذه المواد على أنها مجرد مجموعة من البيانات، بكل بساطة، سيكون كارثياً. إن التقاليد الغنوصية موجودة جزئياً لجعل هذا النوع من المعلومات قابلاً للاستيعاب بالنسبة للعقل غير المدرب على الصور والتصورات واللغة الغنوصية. إن وضع المرء نفسه فوق تقليد له استراتيجياته الخاصة، وطريقته الخاصة في رؤية الواقع، وممارساته الروحية الخاصة هو أمر عبثي وأحمق.

عصرنا مشبع بالمعلومات، ومع ذلك فهو متعطش للمزيد. يبدو أنه كلما زادت المعلومات التي **نجمعها،** كلما قلت واقعية حياتنا. يشعر الناس بالحيرة إزاء التكنولوجيا التي يعتمدون عليها، وغالباً ما يشعرون بالحيرة نفسها إزاء المعلومات التي يتلقونها من خلال هذه التكنولوجيا نفسها. نحن مدمنون على عصر المعلومات، وكثيراً ما ننسى أن هناك نوعاً آخر من المعرفة ممكناً، نوعاً يكون فيه قول القليل يعني معرفة المزيد، ويحل فيه نشوة الرؤية محل الجشع للحقائق. فنادراً ما قدم الغنوص حقائق أو حتى نظريات؛ بل قدمت دائماً تجارب. في عالم تصبح فيه المعلومات قديمة في غضون ساعات، قد يكون هذا النوع من المعلومات المفيدة هو الأكثر إلحاحاً.

الخاتمة

من ضوء النهار إلى شمس منتصف الليل

في بداية هذا الكتاب، تم استخدام سماء الليل كاستعارة لنور الغنوص في مقابل الظلام الأرضي. قد يكون من المفيد هنا، في ختام دراستنا، توسيع الاستعارة لتشمل التباين بين سماء النهار وسماء الليل. في ضوء النهار، تضيء الأشياء المادية بوضوح كبير. تتطلب الأنشطة اليومية العادية مثل هذه الرؤية الواضحة. من ناحية أخرى، فإن رؤيتنا الليلية الدقيقة والأكثر قدرة على الرؤية البعيدة تتلاشى أمام هذا الوضوح بالذات. على الرغم من وجود الأجرام السماوية، إلا أنها مخفية بضوء النهار الساطع؛ ونادراً ما نرى ملامح القمر في النهار، بينما يكون ضوء النجوم مخفياً تماماً. عندما يختفي وهج الشمس وتظهر سماء الليل من جديد، تصبح الأشياء القريبة منا هنا على الأرض مظللة، بينما يضرب ضوء النجوم التي تبعد عنا

سنوات ضوئية أعيننا مرة أخرى.

تخيل عالماً، واقعاً، ينكر على نفسه رؤية سماء الليل ولا يؤكد إلا ضوء الشمس. وبعزلهم عن رؤية النجوم، لن يختبر السكان سوى التناقضات الحادة

لعالم ضوء النهار، وبالتالي لن يختبروا سوى الأمور الدنيوية، والتي تعني في المقام الأول الأمور المادية. والأكثر كارثية، هو غياب الحافز الذي يوفره ضوء النجوم للخيال. لا يمكن لأحد أن يتصور عالماً من النور اللامحدود الذي تبدو الثقوب الظاهرة في الحجاب الأسود وكأنها تشهد عليه.

عالمنا عالمٌ يسوده هذا الإنكار. منذ عصر النهضة، التزمت حضارتنا بشكل متزايد بنظرة للعالم تستند إلى عالم البيانات المادية الواضحة وإلى النظريات العقلانية التي يمكن استنتاجها منها. نحن محاصرون في عالم الوعي القاسي المشمس حيث نجمع المزيد والمزيد من الحقائق التي، على نحو متناقض، لا تؤدي في النهاية إلى سعادة أكبر. نتعلم المزيد والمزيد عن القليل والقليل. إننا محرومون من الرؤية الغنوصية للسماء الليلية بأضوائها الغامضة، وبالتالي لدينا فهم غير مكتمل بشكل مثير للقلق للجانب غير المادي من تجاربنا. يبدو أننا عالقون في زمن ومكان قريبين، محاصرون في قصر نظر روحي ذي أبعاد وعواقب جسيمة.

الآلهة التي فشلت

في ثقافة تنكر النور الذي يسطع من وراء هذا العالم، يبتكر الناس وسائل للخلاص في هذه الدنيا. في القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كنا مدفوعين للاعتقاد بأن المذاهب الاجتماعية والاقتصادية للتغيير ستؤدي إلى خاتمة مجيدة للتاريخ البشري. انطلق كارل ماركس لإنقاذ العالم عن طريق السياسة المقترنة بالاقتصاد؛ وأصبح أتباعه في العصر الحديث ستالين وماو تسي تونغ وبول بوت أكثر من قاموا بإبادة بني جنسهم بكفاءة في التاريخ. ابتكر هتلر فكرة الخلاص من خلال العرق والتوسع الإقليمي، وجلب المعاناة والموت لنحو خمسين مليون شخص، بمن فيهم أبناء وطنه. اليوم، في بداية القرن الحادي والعشرين، بتنا مقتنعين تدريجياً

بأننا تعرضنا للخداع والاستغلال من قبل المنظرين السياسيين على مدى ما لا يقل عن مائتي عام، والذين جلبت أنشطتهم المعاناة بدلاً من الجنة الأرضية الموعودة. لقد انكشف من جديد أن إله الخلاص السياسي هو إله فاشل.

إن هناك سبيلاً آخر للخلاص العلماني، وهو في حد ذاته إله خذلنا، ألا وهو العلم. على الرغم من أن العلم قد زاد من معرفتنا بالعالم المادي ومنحنا أدوات لإتقانه، إلا أنه لم ينقذنا بأي حال من الأحوال من مأزقنا الوجودي. كلمة *"العلم"* مشتقة من الكلمة اللاتينية *"scientia"* التي تعني "المعرفة". هذا مفهوم مختلف للمعرفة عما تنقله كلمة *"غنوص"*. الغنوص ليس علميا أو عقلانيا في جوهره. لقد ميز الإغريق بأسلوبهم الدقيق إلى حد ما بين المعرفة العلمية (كما في "هو يعرف الكيمياء") والمعرفة المكتسبة من خلال التجربة (كما في "هي تعرفني").

إله آخر يخذلنا هو إله حماية البيئة. نشعر بالقلق إزاء النمو المستمر للتكنولوجيا، وقد تحولنا إلى مدافعين قلقين عن العالم الطبيعي - أو كما نسميه بشكل متناقض، البيئة. إن مصطلح "البيئة" مصطلح مركزية الإنسان لأنه يُعرّف العالم الطبيعي بأنه شيء يحيط بالبشر. لكن افتراض شعور غامض بوحدة الوجود لإنقاذ الطبيعة أو الكوكب لا يعادل إنقاذ أرواحنا ومعنوياتنا. إذا ظل جوهرنا الداخلي ملوثاً، وإذا ظل وعينا غير كافٍ، فهل ستنقذنا البيئة النظيفة من غبائنا ومرضنا الوجودي؟ هل سيؤدي حل ما يتوقعه البعض بأنه أزمة بيئية قادمة إلى حل الأزمة في عقولنا وقلوبنا أو حتى تخفيفها؟

لقد اكتشفت الحضارة الغربية، وخاصة منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قدراً هائلاً من المعلومات عن العالم من حولنا. وفي الوقت نفسه، ما زلنا نجهل تماماً العوالم التي بداخلنا والتي تتجاوزنا. تُلخص هذه العوالم أحيانًا تحت مصطلح الوعي. لقد قيل، وبحق، أن الوعي ليس نقطة قوة العلم. حتى علم النفس،

وخاصة علم النفس العميق، الذي بلغ مكانة بارزة في القرن العشرين، فشل في بناء جسر فعال حقًا إلى العلم. لم يكن فرويد يرغب بشيء أكثر من الاعتراف بالتحليل النفسي كعلم جديد، ولكن بعد مرور قرن من الزمان، لا تزال رغبته غير محققة.

على الرغم من وجود فرع من فروع الدراسة يسمى "دراسات الوعي"، إلا أن علم الوعي غير موجود. يصعب دراسة الوعي باستخدام الإجراءات والأساليب العلمية، ويرجع ذلك أساسًا إلى أنه لا يستجيب بشكل جيد للمبدأ العلمي للتجربة القابلة للتكرار. ولعل أفضل مثال على ذلك هو الفشل شبه التام لتخصص خوارق علم النفس. تصبح نتائج التجارب في التخاطر والقدرات الحسية الخارقة ذات الصلة أقل حسمًا مع تكرارها.

كيف نعرف أن الوعي موجود؟ إننا نعرف ذلك فقط من خلال نوع من التجربة الشخصية التي تعتمد بشكل أقل على التجربة القابلة للتكرار وأكثر على تعزيز نمط معين من الإدراك الذي يمكنه الوصول إلى الوعي. باختصار، عندما نتعامل مع الوعي، فإننا نتعامل مع عالم الغنوص. كان هذا بالتأكيد إدراك يونغ، الذي أدى إلى ربطه البارع بين علم النفس وكل من الغنوص والغنوصية. لقد حقق الغنوصيون القدماء، كما أدرك يونغ، اكتشافات فريدة في مجال الوعي تحديداً لأنهم استخدموا أنماطاً من الإدراك لم تكن مقيدة بمعايير الأنا وميولها العقلانية والانبساطية.

من الإنصاف القول إن العلم قد اكتسب تدريجياً سمات تشير إلى ما هو أبعد من ذاته، حتى نحو الوعي. لقد غامرت الفيزياء النظرية، على وجه الخصوص، بالدخول في عوالم ذات طبيعة ميتافيزيقية أكثر من كونها فيزيائية. ومع ذلك، فإن عددًا قليلاً فقط من العلماء المؤهلين يأخذون الأبعاد الميتافيزيقية لتخصصاتهم على محمل الجد. إن المؤلفين الذين يعلنون عن وجود نوع من الطاو في الفيزياء، أو فروع أخرى من العلوم، هم في الغالب من المبسطين الذين لا تحظى مكانتهم في المجتمع العلمي إلا بالضئيلة في أحسن الأحوال. وفي الوقت نفسه، يعيش عامة الناس، حتى الجزء المتعلم منهم،

في عالم نيوتني وداروينى حيث كان من الممكن ألا يكون أينشتاين وبلانك ورفاقهما موجودين أبدًا. لا شك أن العلوم التطبيقية تستند إلى نظريات تحمل دلالات ميتافيزيقية، لكن هذه الدلالات لا تهم الشخص الذي يتمتع بنعم التكنولوجيا المتطورة باستمرار. على الرغم من أنه من المؤلم الاعتراف بذلك، إلا أن العلم، من حيث الوعي وبالتالي الغنوص، قد تحول إلى إله آخر فشل.

إن الآلهة المذكورة هنا والتي فشلت ليست سوى جزء من عدد أكبر بكثير ممن يتظاهرون بالقوة الخلاصية. جميعهم محكوم عليهم بالفشل لأن مفهوم الخلاص الدنيوي برمته معيب. إن الخطأ الحقيقي لا يكمن في أوجه القصور الفردية في الأساليب والوسائل. علينا أن ندرك أن احتياجاتنا الأساسية والدائمة لا يمكن تلبيتها بالموارد الأرضية والبشرية وحدها. إن ضوء التفكير الأرضي غير كافٍ ببساطة لهذه المهمة؛ ما نحتاجه هو ضوء آخر، ضوء يشرق من وراء هذا العالم.

مواجهة اللاأدري

لطالما أدرك الغنوصيون مأزقًا أساسيًا يحيط بنا في هذا العالم، وقد حددوه على أنه غياب الغنوص. يُلقي النبي هوشع، أحد أكثر الشخصيات الغنوصية في العهد القديم، باللوم على غياب الغنوص الإلهي (معرفة الله) في بؤس ليس البشر فحسب، بل الخليقة كلها:

> لا يوجد إخلاص، ولا حنان، ولا معرفة بالله في هذا البلد. ولهذا السبب تعيش البلاد في حداد، وكل من يعيش فيها
>
> يذبل، حتى الحيوانات البرية وطيور السماء؛ حتى أسماك البحر نفسها تهلك. (هوشع. 4.2—3; تم إضافة التأكيد)

تتعارض وجهة النظر الغنوصية هذه بشكل جذري مع طريقتين

للنظر إلى العلاقة بين الإلهي والبشر

والعالم الطبيعي. يقترح الأول أن الإنسان هو مصدر كل القيم، وأن العالم الطبيعي ليس سوى أداة للأهداف البشرية، وأن الله، إن وجد أصلاً، فهو غير ذي صلة. (ربما تم التعبير عن هذا الموقف لأول مرة، بشكل متواضع، من قبل فرانسيس بيكون، وأصبح بارزًا خلال عصر التنوير.) أما الموقف الثاني والأحدث فيقترح أن العالم الطبيعي هو مصدر كل القيم، وأن الإنسان دخيل على النظام البيئي العالمي، وأن الله، إن وجد أصلاً، فهو كامن في الطبيعة، وفي الواقع لا يمكن تمييزه عنها. في الرؤية الغنوصية، لا يمكن للإنسان ولا للنظام الطبيعي أن يكونا مصدر كل القيم لأن كلاهما منفصلان جذرياً عن الإلهي، حيث تكمن القيمة الحقيقية. لا يمكن إدراك القيم الحقيقية إلا عندما يمتد الوعي البشري عبر هوة الانفصال ويتصل بالإلهي.

إن الغنوصي، الذي تغلب في روحه ونفسه على هذا الاغتراب عن الإلهي، هو غريب عن العالم وعن البشر الآخرين. إن مقابلة شخص غنوصي حقيقي تعني مقابلة شخص غريب. قد نلتقي بمثل هذا الشخص بشكل غير مباشر، عن طريق قراءة النصوص الغنوصية، أو بشكل مباشر، من خلال مقابلة غنوصي معاصر. في كلتا الحالتين، يلتقي المرء بشخص غريب ينقل أفكاراً غريبة. لكن إذا انخرطنا في تفاعل إبداعي مع هذا الغريب، فقد يصبح الغريب صديقًا يمكننا الاعتماد على بصيرته عندما يتعلق الأمر بالأمور الروحية التي تفلت من فهمنا. أولئك الذين سلكوا الطريق أمامنا إلى البلد البعيد عادة ما يكونون مؤهلين لإعطائنا التوجيهات. قد يكون الاجتماع واعداً.

ومرة أخرى - بالاستناد إلى صورة استخدمها كل من ماني وبوذا - فإن الغنوصي يشبه قاربًا يقوده إلى الخارج لمقابلتنا ومساعدتنا في الوصول إلى الشاطئ الآخر. يخبرنا الغنوصي أنه على دراية بالمنطقة الواقعة على الشاطئ البعيد ويؤكد لنا أن عجائب عظيمة تنتظرنا هناك. كما يذكرنا بأنه لكي نصعد على متن عبّارته، سيتعين علينا مغادرة أرض موطننا الحالي. يختلف هذا الموطن باختلاف كل فرد. قد يضطر المتشككون العلمانيون إلى التخلي

عن راحة افتقارهم إلى الالتزام الروحي؛ وقد يضطر المتدينون إلى إعادة تقييم مُثلهم الدينية، وخاصة مفاهيمهم عن الله؛ وقد يضطر ضعاف القلوب إلى حشد قدر معين من الشجاعة الوجودية للشروع في مغامرة عظيمة. ولعل الأهم من ذلك كله، أن رواد متاجر الروحانية في العصر الجديد قد يحتاجون إلى ترك السطحية السهلة لتلك البيئة والالتزام بعملية شاقة من التنمية الذاتية الواعية المقترنة بنظرة عالمية مختلفة تمامًا.

لقد حددت النصوص الغنوصية المأزق البشري بأنه مأزق الجهل أو النوم أو السكر أو النسيان. تأتي هذه المكونات لحالتنا المؤسفة بأشكال عديدة. نحن أشبه بالحيوانات التي اعتادت على حبسها لدرجة أنها ترفض مغادرة أقفاصها بمجرد فتح الأبواب. يبدو أن النوم والذهول اللذين نعيشهما في حياتنا الحالية أفضل من نوع الحرية التي يجلبها الغنوص. نادراً ما نشكك في النظرة العالمية المتفق عليها في ثقافتنا أو في عقائد ديننا، ومع ذلك يبدو أننا الآن نشكك في التعاليم المستمدة من الرؤية الغنوصية. بعض هذه التساؤلات مفيدة بالطبع. لكننا نحتاج إلى التشكيك ليس فقط في الغنوصيين وتعاليمهم، بل في السائل أيضاً. هل نحن غير راغبين في التفكير في المسلمات الغنوصية لأنها تتعارض مع ما يعتقده الأغلبية؟ كم من المعتقدات العزيزة التي تقف في طريق استعدادنا لقبول الأفكار الغنوصية ليست في الحقيقة سوى افتراضات غير مختبرة فرضها علينا مجتمعنا؟

كان صحيحاً قبل ألفي عام، ولا يزال صحيحاً اليوم، أن الغنوصية، بالنسبة للغالبية العظمى من البشرية، أمر مزعج بل ومثير للغضب في بعض الأحيان؛ فهي تمثل تحدياً لما آمن به معظم الناس ومارسوه. أولئك الذين يصرون على تحقيق المزيد من هذا العالم يشعرون بالرعب من الغنوصية واعترافها الرصين بأن الخلاص الدنيوي غير ممكن. لا يمكن للعالم أن ينهض بنفسه، سواء أكانت هذه الجهود سياسية أو اقتصادية أو علمية أو بيئية بطبيعتها. ما يحتاجه العالم هو شيء

خارج عن ذاته - حكمة، ومعرفة داخلية تتجاوز حدود الكوكب والكون. يبدو هذا الموقف منفصلاً وغريباً عن الواقع بالنسبة للعقل الحديث أو ما بعد الحداثي، المهووس بفضائل التغيير الاجتماعي. كما يميل أنصار الوضع الراهن في المجتمع إلى النظر إلى الغنوصيين بعين ناقدة. كيف يمكن لشخص يسب الخالق بألفاظ بذيئة، ويرى عيباً في كل ما يتعلق بالخلق، ولا يعتبر وصايا الدين أو المجتمع خلاصية، أن يكون إلا قوة مزعزعة للاستقرار في المجتمع؟

أما أولئك الذين أدركوا أن الحياة مأساوية، والذين شعروا بالوحدة والاغتراب في وعيهم وسط عجزهم، فهم أكثر عرضة للاستجابة للرسالة الغنوصية. أولئك الذين عانوا بما فيه الكفاية في حياتهم الدنيوية والذين تمكنوا من إضافة أقصى قدر من الوعي إلى معاناتهم، بحيث أصبحوا الآن يمتلكون النية الصحيحة والإخلاص اللازمين، من المرجح أن يستمعوا إلى الصوت الغريب والقديم للغنوصي الذي يناديهم - في هذه الأيام بقوة متجددة. هؤلاء هم النفوس والعقول التي من المرجح أن تحول أنظارها من ضوء النهار القاسي للعقلانية والانفتاح إلى اللمعان الغامض لسماء الليل، حيث يمكن إدراك نور الغنوص. بالنسبة لهم، فإنّ التعرّف على التعاليم الغنوصية أمرٌ مفيد. يعود ضوء النجوم، الذي طالما حجبه ضوء النهار، للظهور، وتتلاشى الظلال الداكنة التي يلقيها ضوء النهار. وفي خضم النجوم، تظهر شمس منتصف الليل الغامضة التي رآها المتأهلون القدماء في ظهورها المرحب به.

الملحق أ

قائمة قراءات غنوصية

هذه ليست قائمة شاملة بالمراجع المتعلقة بالغنوصية؛ إنما تهدف ببساطة إلى أن تكون بمثابة دليل للقراء الذين يبحثون عن كتب تستحق الاهتمام. معظم هذه الكتب مطبوعة، ومعظمها متوفر في مكتبة جامعية؛ ومع ذلك، فإن العديد من الكتب المهمة المذكورة هنا نفدت طبعاتها، ويصعب العثور على بعضها حتى في مكتبة جيدة.

قراءات تمهيدية

هولرويد، ستيوارت. عناصر الغنوصية. Shaftesbury, Dorset, Eng., and Rockport, Mass.: Element Books, 1994.

مقدمة ممتازة وموجزة لتعاليم وتاريخ وأدب الغنوصية. هذا النهج متعاطف، مع التركيز على أهمية الغنوصية في عصرنا الحالي.

باجلز، إيلين. الأناجيل الغنوصية نيويورك: دار راندوم هاوس، 1978.

كتاب كلاسيكي شهير، يقدم نصوص نجع حمادي والغنوصية في سياق تاريخي مفيد. ربما يكون هذا أول كتاب رئيسي يخلو من التحيز الهرطقي المناهض للغنوصية.

سيمور سميث، مارتن. الغنوصية: طريق المعرفة الداخلية. سان فرانسيسكو: هاربر سان فرانسيسكو، 1996.

كتاب صغير يُوضع على طاولة القهوة، مزين برسوم توضيحية ملونة جذابة، ويتناول الموضوع بتعاطف معتدل. موجز ولكنه غني بالمعلومات.

سينغر, جون. معرفة القلب. أسرار حكمة الغنوص الداخلي.

روكبورت، ماساتشوستس: إليمنت، 1999.

عملٌ رائعٌ نابعٌ من حبّ الغنوص من قِبَل أحد علماء النفس اليونغيين البارزين. يتألف من نصوص غنوصية مقدسة مرتبة للقراءة وفقًا لساعات وأيام الأسبوع الرهبانية. تُلحق بالنصوص تعليقات مستوحاة من الفكر اليونغي والغنوصي. أداة لتعميق الغنوص. (نُشر هذا الكتاب سابقًا بعنوان كتاب ساعات الغنوصي). - مفاتيح الحكمة الداخلية. سان فرانسيسكو: هاربر سان فرانسيسكو، 1992.)

قراءات متوسطة المستوى

تشورتون، توبياس. الغنوصيون. لندن: ويدنفيلد ونيكلسون، 1987.

دراسة شاملة ومدروسة جيداً وموضوعية، تشمل التعاليم والأدب الغنوصي. يتضمن جدولاً زمنياً مفيداً. (تم تأليف هذا الكتاب لمرافقة فيلم وثائقي تلفزيوني بعنوان "الغنوصيون"، والذي أنتجته شركة "بوردر تيليفيجن" في بريطانيا العظمى عام 1987.)

دارت، جون. المخلص الضاحك: اكتشاف وأهمية مكتبة نجع حمادي الغنوصية. نيويورك: هاربر آند رو، 1976.

عينة صحفية، سطحية إلى حد ما، من نصوص نجع حمادي، مع معلومات سياقية مفيدة بشكل طفيف.

دوريس، جان. الكتب السرية للغنوصي المصري: مقدمة للمخطوطات القبطية الغنوصية المكتشفة في خنوبوسبيون. نيويورك: فايكنغ، 1960.

رواية شخصية لأحد مكتشفي مخطوطات نجع حمادي. يتضمن ترجمة مبكرة لإنجيل توما. يُظهر المؤلف تحيزاً مناهضاً للغنوصية.

جرانت، روبرت م. الغنوصية والمسيحية المبكرة. نيويورك : هاربر تورتشبوكس , 1966 .

معالجة مفيدة إلى حد ما للموضوع، تشوبها النظرة السلبية للمؤلف، المتجذرة في تحيز هرطقي.

جيردهام، آرثر. البدعة الكبرى. جيرسي، إنجلترا: نيفيل سبيرمان، 1977.

دراسة تعاليم الغنوصيين في العصور الوسطى المعروفين باسم الكاثاريين. الجزء الأول من الكتاب غني بالمعلومات ومفيد للغاية. يعتمد الجزء الثاني على اتصالات مزعومة من كيانات غير مادية، وبالتالي فإن قيمته مشكوك فيها.

هولر، ستيفان أ. يونغ والإنجيل المفقود. ويتون، إلينوي: دار النشر الثيوصوفية، كتب كويست، 1989.

دراسة توضح العلاقة بين علم النفس عند يونغ والأساطير الغنوصية الرئيسية وأربعة من أناجيل نجع حمادي.

يوناس، هانز. الديانة الغنوصية. بوسطن: بيكون، 1958، 2001.

عمل كلاسيكي، يوظف المبادئ الوجودية للتحليل في التعاليم الغنوصية (كان المؤلف تلميذاً لهايدغر). يحتوي على العديد من الاقتباسات القيّمة، بما في ذلك العديد من المصادر المندائية والمانوية. وقد كُتب قبل نشر مخطوطات نجع حمادي، لذا فهو لا يحتوي إلا على إشارات قليلة إلى هذه المصادر.

لاكاريير، جاك. الغنوصيون. نيويورك: داتون، 1977. إعادة طبع، سان فرانسيسكو: سيري

لايتس، 1989.

تأمل شعري في الغنوصية والتعاليم الغنوصية. يجب تجاهل توجه المؤلف المناهض للمؤسسة واليساري، لكنه يحتوي على معلومات مفيدة ويتعاطف مع الغنوصية. يتضمن الكتاب مقدمة قيّمة بقلم لورانس دوريل.

ميركوري، دان. **الغنوص**: التقليد الباطنية للرؤى والاتحادات الصوفية. ألباني: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، 1993.

عمل إبداعي وبصير بشكل مذهل يرى أن الغنوصية نشأت من نوع معين من التجربة الروحية المشابهة لـ "الخيال النشط" لكارل غوستاف يونغ. يتضمن مواد ذات صلة من التصوف المسيحي واليهودي والإسلامي. موثق بشكل جيد وسهل القراءة.

أولدنبورغ، زوي. مذبحة مونتسيغور: تاريخ حملة الألبيجنسيين. نيويورك: مينيرفا، 1968.

عمل كلاسيكي عن الحرب الدموية واضطهاد الديانة الغنوصية (الكاثارية) في العصور الوسطى في منطقة لانغيدوك بفرنسا. أول عمل تاريخي يكشف هذا الاضطهاد بكل فظاعته. كتبه أحد أبرز المتخصصين في العصور الوسطى والروائيين التاريخيين.

أوشيا، ستيفن. الهرطقة المثالية". الحياة الثورية والموت لكاثار العصور الوسطى.نيويورك: ووكر، 2000.

سرد سهل القراءة وشائع عن ظاهرة الكاثار والحملة الصليبية على الألبيجنسيين. يتعاطف المؤلف مع قضية الكاثاريين.

بيركنز، فيم. الحوار الغنوصي: الكنيسة الأولى وأزمة الغنوصية. نيويورك: دار بولست للنشر، 1980.

دراسة مفيدة، تشوبها تحيزات المؤلف الكاثوليكية الرومانية ومحاولته الواضحة لمواجهة التأثير المؤيد للغنوصية لعمل إيلين باجل، الأناجيل الغنوصية.

رودولف، كورت. الغنوص: طبيعة وتاريخ الغنوص. سان
فرانسيسكو: هاربر آند رو، 1983.

عرض مفصل ودقيق، ذو قيمة متساوية للباحثين وعامة الناس. إن وجهة نظر المؤلف موضوعية وغير متأثرة في الغالب بالتحيز الهرطقي. يتضمن وثائق ممتازة، بالإضافة إلى مواد مندائية حصل عليها المؤلف في بحثه الشخصي.

سبيرينبورغ، هـ. ج.، محرر. هـ. ب. بلافاتسكي: عن الغنوصيين. سان دييغو، كاليفورنيا: منشورات بوينت لوما، 1994.

مجموعة من الكتابات ذات الأطوال المختلفة حول الغنوصيين بقلم الشخصية المحورية في إحياء العلوم الخفية في القرن التاسع عشر. يثبت ذلك فهم بلافاتسكي الممتاز للأمور الغنوصية، فضلاً عن التوافق الوثيق بين الغنوصية والثيوصوفيا الحديثة.

قراءات متقدمة

بلاكمان، إي. سي. مرقيون وتأثيره. لندن: SPCK، 1948.

طبعة مُعاد طباعتها، نيويورك: أميس، 1978.

دراسة كلاسيكية لتعاليم مرقيون وتأثيرها على مختلف التخصصات، بما في ذلك النقد الكتابي. يمكن القول إنها أكثر الأعمال اكتمالاً التي كُتبت عن مرقيون حتى الآن.

كوليانو، لون بي، شجرة الغنوص. - الأساطير الغنوصية من المسيحية المبكرة إلى العدمية الحديثة. سان فرانسيسكو: هاربر، 1992.

دراسة خيالية للغاية ولكنها غير ناضجة إلى حد ما للتقاليد الغنوصية، مع تركيز تاريخي قوي. إبداعي لكنه ممل.

فيلورامو، جيوفاني. تاريخ الغنوصية. كامبريدج، ماساتشوستس:

بلاكويل، 1990.

دراسة ممتازة ومتعاطفة مع الغنوصية، بما في ذلك تفسيرات ثاقبة للنصوص الغنوصية. أحد أفضل الأعمال الأكاديمية المتاحة.

هيدريك، تشارلز دبليو، وروبرت هودجسون، محرران. غنوصية نجع حمادي والمسيحية المبكرة. بيبودي، ماساتشوستس: هندريكسون، 1986.

العديد من الدراسات القيّمة، التي تتعلق في المقام الأول بمجموعة نجع حمادي من النصوص الغنوصية، والتي قام بها أربعة عشر عالماً بارزاً في هذا المجال.

كينغ، سي. دبليو. الغنوصيون وآثارهم، القديمة والوسيطة.
1887. إعادة طبع، سان دييغو، كاليفورنيا: Wizards Bookshelf، 1982.

عمل كلاسيكي من القرن التاسع عشر، يصور ويشرح في المقام الأول عناصر من الفن التمائمي للتقاليد الغنوصية.

كينغ، كارين ل.، محرر. صور الأنوثة في الغنوصية. فيلادلفيا: فورتريس، 1988.

وقائع مؤتمر يحمل نفس العنوان، عُقد في عام 1985 في معهد العصور القديمة والمسيحية في كليرمونت، كاليفورنيا. يحتوي على اثنين وثلاثين مقالاً ورداً من قبل الباحثين. المحتويات ذات قيمة متفاوتة.

كليمكيت، هانز يواكيم. الغنوصية على طريق الحرير: نصوص غنوصية من آسيا الوسطى. San Francisco: Harper, 1993.

مقدمة موجزة مفيدة عن المانوية، إلى جانب مجموعة كبيرة من النصوص المانوية الجميلة التي تم الحصول عليها من مواد تم اكتشافها في آسيا الوسطى خلال القرن الماضي.

ليو، صموئيل ن. سي. المانوية في أواخر الإمبراطورية الرومانية والصين في العصور الوسطى. الطبعة الثانية المنقحة. توبنغن: موهر، 1992.

مناقشة مفصلة للغاية للمانوية، وربما أفضل عمل حديث حالي حول هذا الموضوع. ومن الأمور ذات الأهمية الخاصة أن هذا العمل يتضمن ملاحظات شاملة للغاية وقائمة مراجع تسرد بشكل أساسي كل عمل مهم موجود حول المانوية.

———. المانوية في بلاد ما بين النهرين والشرق الروماني. ليدن: بريل، 1994.

مجموعة من مقالات ليو، معظمها متخصص للغاية في الطبيعة، والتي تكمل عمله السابق، المانوية في أواخر الإمبراطورية الرومانية والصين في العصور الوسطى.

———. المانوية في آسيا الوسطى والصين. ليدن: بريل، 1998.

مجموعة أخرى من مقالات ليو، ذات طبيعة متخصصة للغاية، والتي تكمل أعماله السابقة.

لوبيري، إدموندو. المندائيون: آخر الغنوصيون. غراند رابيدز، ميشيغان: إيردمانز، 2002.

أحد الأعمال القليلة جداً المتوفرة حول الديانة المندائية. بحث جيد وأسلوب سهل القراءة. يحتوي على العديد من ترجمات النصوص المندائية. موصى به بشدة.

ميد، جي. آر. إس. سمعان الساحر. - مقال. لندن: جمعية النشر الثيوصوفية، 1892.

باجلز، إيلين. ح. إنجيل يوحنا في التفسير الغنوصي: تعليق هيراكليوني على إنجيل يوحنا. ناشفيل ونيويورك: أبينغدون، 1973.

عرض مفيد لتفسيرات فالنتينيان لإنجيل يوحنا، بما في ذلك مواد عن يوحنا المعمدان.

———. بولس الغنوصي. - التفسير الغنوصي للرسائل البولسية.
فيلادلفيا: دار ترينيتي برس الدولية، 1975.

دراسة للقراءة الغنوصية الفالنتينية لرسائل بولس، مما يوفر منظورًا جديدًا لدراسات بولس.

———. آدم وحواء والحية. نيويورك: دار راندوم هاوس، 1988.

تأثير الفصول الثلاثة الأولى من سفر التكوين على الفكر السياسي للمسيحية. يُعد الفصل الثالث ذا أهمية خاصة للدراسات الغنوصية.

قائمة قراءات غنوصية

بيركنز، فيم. الغنوصية والعهد الجديد. مينيابوليس: فورتريس، 1993.

دراسة أكاديمية لتفاعل الغنوصية والمسيحية في العهد الجديد. مفيد بشكل أساسي للقراء المهتمين بالمنظور الكتابي فيما يتعلق بالغنوصية.

بيترمينت، سيمون. إله منفصل. - الأصول المسيحية للغنوصية.
سان فرانسيسكو: هاربر، 1990.

دراسة مهمة، تنظر إلى الغنوصية كظاهرة مسيحية بحتة. أسلوب الكاتب الغامض نوعاً ما يجعل قراءته صعبة بعض الشيء.

روكيما، رايمر. الغنوص والإيمان في المسيحية المبكرة. هاريسبرج، بنسلفانيا: دار ترينيتي برس الدولية، 1999.

مقدمة أساسية عن علاقة الغنوصية بالمسيحية المبكرة. يمثل المؤلف موقفًا بروتستانتيًا كالفينيًا ويعتمد بشكل كبير على المصادر الآبائية لعلم الهرطقة. يحتوي هذا العمل على عرض نادر للتقارب بين الغنوصية وأفلاطون وفيلو وغيرهما من المعلمين الأفلاطونيين.

ستويانوف، يوري. الإله الآخر: الديانات الثنائية من العصور القديمة إلى بدعة الكاثار.نيو هيفن: مطبعة جامعة ييل، 2000.

دراسة تاريخية ممتازة تتتبع الأصول المحتملة للغنوصية إلى المصادر المصرية والزرادشتية،

وتُظهر فهمًا دقيقًا بشكل غير عادي لديانات البوغوميل والكاثار.

(ويلبورن)، (أندرو) ماني، الملاك وعمود المجد. إدنبرة: فلوريس، 1998.

مجموعة مختارة مفيدة من النصوص المانوية مع شروح توضيحية، قام بتحريرها وتقديمها باحث متميز. يحتوي على بعض النصوص غير المتوفرة بشكل متكرر. إن وجهة نظر المؤلف تتأثر بشكل كبير بتعاليم رودولف شتاينر.

طبعات من الكتب الغنوصية

فورستر، فيرنر، محرر. الغنوصية، مجموعة مختارة من النصوص الغنوصية. المجلد 2. مصادر قبطية مندائية. أكسفورد: كلارندون، 1974.

يحتوي الجزء الثاني على مجموعة مختارة قيّمة من كتابات المندائيين في العراق. يسهل الحصول على هذا المجلد مقارنة بالكتب الأخرى التي تتناول هذا التقليد.

غاردنر، إيان. كيفالايا المعلم: النصوص المانوية القبطية المحررة في الترجمة مع التعليق. ليدن: بريل، 1995.

يحتوي على واحدة من أفضل المناقشات التمهيدية المفصلة المتاحة عن المانوية، إلى جانب ترجمة ممتازة لكتاب "كيفالايا"، وهو مجموعة من "التعاليم الشفوية لماني لتلاميذه".

الإنجيل وفقًا لتوما.- مع نصوص تكميلية. سانتا باربرا، كاليفورنيا: كونكورد غروف، 1983.

ترجمة أنيقة لإنجيل توما وكتاب يوحنا المنحول، وإنجيل الحقيقة، و"ترنيمة اللؤلؤة"، بالإضافة إلى مقدمة مفيدة تمثل منظورًا ثيوصوفيًا حديثًا.

غرينليس، دنكان. إنجيل الغنوصيين. أديار، مدراس: دار النشر الثيوصوفية، 1958.

ظهر هذا المجلد كمجلد 13 من سلسلة الأناجيل العالمية ويتضمن مجموعة رائعة من الكتابات الغنوصية، على الرغم من أنه نُشر من قبل وبالتالي يستبعد نصوص نجع حمادي. يتضمن مقدمة

رائعة، بالإضافة إلى تعليقات موسعة على الكتب المقدسة. لسوء الحظ، هذا العمل غير متوفر في الأسواق منذ فترة طويلة ويصعب العثور عليه للغاية.

________ .إنجيل النبي ماني. أديار، مدراس: دار النشر الثيوصوفية، 1958.

ظهر هذا المجلد كمجلد 12 من سلسلة الأناجيل العالمية، ويتضمن ربما المجموعة الأكثر فائدة من كتابات المانوية المطبوعة. مقدمة وتعليقات ممتازة. لسوء الحظ، هذا العمل نفدت طبعاته منذ فترة طويلة ويصعب العثور عليه للغاية.

ترجمة جديدة الكتابات الغنوصية. غاردن سيتي، نيويورك: دابلداي،

وشركاه، 1987.

ترجمات رائعة مع تعليقات على بعض النصوص المقدسة من مجموعة نجع حمادي، إلى جانب عدد كبير من الاقتباسات والإشارات إلى المصادر الغنوصية من قبل آباء الكنيسة الهرطقيين. مقدمة ممتازة وعلمية لدراسة النصوص الغنوصية.

ميد، جي. آر. إس. شظايا الإيمان المنسي. مساهمة في دراسة أصول المسيحية. 1900 إعادة طبع، كيلدير، مونتانا: كيسينجر، 1991.

عرض ميد الرائع لجميع المواد الغنوصية الموجودة قبل اكتشاف نجع حمادي.

________ . ترنيمة يسوع. 1907. إعادة طبع، ويتون، إلينوي: دار النشر الثيوصوفية، 1973.

________ . ليميت صوفيا: مختارات غنوصية.1896 إعادة طبع، بلاوتفيلت، نيويورك: جاربر، 1973.

الملحق أ

الترجمة الأكثر سهولة في القراءة لأجزاء رئيسية من كتب المخلص (المخطوطة المائلة)، مع مقتطفات من الأدبيات ذات الصلة وتعليقات قيّمة. المصدر الرئيسي في علم صوفيا الفالنتيني.

ماير، مارفن. إنجيل الأفكار: الأقوال الخفية ليسوع.

سان فرانسيسكو: هاربر سان فرانسيسكو، 1992.

أحدث ترجمة لأكثر النصوص الغنوصية سهولة في الفهم. تُعدّ مقدمة المترجم والمقال التفسيري لهارولد بلوم بمثابة نقاط دخول مفيدة لدراسة هذا الإنجيل وللغنوصية بشكل عام.

———

.التعاليم السرية ليسوع: أناجيلك الغنوصي. نيويورك

دار راندوم هاوس، 1984.

ترجمة رائعة لأربعة نصوص من مجموعة نجع حمادي: إنجيل يعقوب؛ إنجيل توما؛ كتاب توما؛ وكتاب يوحنا السري. يتضمن مقدمة مفيدة.

ميلر، روبرت جيه، محرر. الأناجيل الكاملة. سان فرانسيسكو: هاربر، 1994.

مجموعة رائعة من جميع النصوص "الإنجيلية" الموجودة - النصوص القانونية والغنوصية وغيرها من الكتابات غير القانونية - في ترجمات جديدة. المقدمات والملاحظات واضحة ومفيدة للغاية.

روبنسون، جيمس م.، محرر. مكتبة نجع حمادي باللغة الإنجليزية. الطبعة الثالثة المنقحة. سان فرانسيسكو: هاربر، 1988.

الترجمة التاريخية لمكتبة نجع حمادي بأكملها، والتي تم اكتشافها عام 1945. تفتقر الطبعة المنقحة لعام 1988 إلى فهرس الطبعة السابقة وتحتوي على خاتمة غير مبالية.

شميدت، كارل، محرر. بيستيس صوفياليدن: بريل، 1978.

بديل مفيد لترجمة ميد الأكثر سهولة في القراءة؛ دقيق وعلمي.

. كتب المستنقعات والنص غير المعنون في مخطوطة بروس.

ليدن: بريل، 1978.

الترجمة الوحيدة المتاحة لمحتوى مخطوطة بروس. تُعد كتب جيو مصادر لا تقدر بثمن في علم السحر الغنوصي. لسوء الحظ، فإن ترجمة كلمات الرسوم البيانية في كتاب "كتب جيو" غير كافية.

الملحق ب

معجم موجز للغنوصية

فيما يلي قائمة مختصرة بالكلمات الغنوصية. يحتوي على أسماء الكيانات الأسطورية التي تظهر في النصوص الغنوصية، بالإضافة إلى المصطلحات التي تدل على المفاهيم في الاستخدام الغنوصي. القائمة ليست شاملة على الإطلاق، وقد صُممت لتكون بمثابة مساعدة أساسية لقراءة وفهم الأدب الغنوصي.

أبراكسيس: **(كلمة بربرية)** الاسم الذي أطلقه الغنوصيون على الأركون الذي أنقذ، وهو ابن صوفيا، والذي جاء ليحتل منصب حاكم السماء السابعة. يُصوَّر على أنه كائن برأس ديك، وجذع رجل، وساقين على شكل ثعابين. يظهر أبراكسيس على العديد من التمائم الغنوصية التي تم اكتشافها بعد زوال الحركات الغنوصية في الإسكندرية وسوريا.

أشاموث: (عبرية) كلمة "حكمة" (Chokmah) هي قلب حروف كلمة "حكمة" (Chokmah)، وتعني الحكمة؛ وعادة ما ترتبط بالجانب السفلي من صوفيا (Sophia).

أيون: (يوناني.) جانب منبثق من الحقيقة الإلهية. غالباً ما يتم تمثيل الأيونات على شكل أزواج (ذكر وأنثى) متصلة ومتوازنة مع بعضها البعض.

الأنثروبوس: (يوناني.) رجل. النموذج السماوي للبشرية، المنبثق من الحقيقة المطلقة.

أركون: (يوناني.) حاكم. كائن كوني أدنى يحكم ويفرض قيوداً على الخلق.

الكلمات البربرية: كلمات لا تنتمي إلى أي لغة معروفة، وعادة ما تتكون من حروف العلة وتستخدم بشكل

متكرر في النصوص والطقوس الغنوصية ككلمات قوة.

باربيلو: (عبري.) اسم جانب أنثوي من جوانب الإله؛ ويُعتبر أحيانًا بمثابة الإلهة الأم.

كريستوس. (يوناني.) الممسوح. في الاستخدام الغنوصي، هو إيون سماوي يتحد مع يسوع في مرحلة ما من الزمن.

كوني: (يوناني.) النظام. الظهور المنهجي للواقع الذي تشكله وكالات إبداعية ذات ذكاء محدود وحسن نية.

الديميورج: (يوناني.) صانع عالم المظاهر الأدنى. هو رئيس الأركونات، وهو ذو حكمة محدودة وغير كامل.

إنبثاق: (لاتينية.) الطريقة الغنوصية في تصور الخلق في صورته الأصلية. جميع العوالم والكائنات انبثقت في الأصل من الحقيقة الإلهية، ولم يتم تشكيلها في أنظمة كونية إلا لاحقًا بواسطة الديميورج.

الإنجيل: (كلمة إنجليزية قديمة تعني "الأخبار السارة" مترجمة من اللاتينية *evangelism* من اليونانية *evangelion*) في الاستخدام الغنوصي، أي نص مقدس مصمم لتعزيز التنوير أو الغنوص للبشرية.

غنوص: (يوناني.) المعرفة الخلاصية، التي يتم التوصل إليها بشكل حدسي ولكن يتم تسهيلها من خلال محفزات مختلفة، بما في ذلك التعاليم والأسرار التي جلبها رسل الألوهية من خارج الكون إلى البشر.

إلداباوث: (كلمة بربرية) ربما تعني "الإله الطفولي". اسم للديميورج.

اللوغوس: (يوناني.) كلمة الله العليّ. في النصوص الغنوصية، هو أيضاً لقب من ألقاب يسوع.

مانا: (يوناني.) الغنوص. الكلمة التي اشتُق منها اسم المندائيين، وهم الخلفاء المباشرون الوحيدون بلا منازع للغنوصيين القدماء، الذين ما زالوا يقيمون في الشرق الأوسط.

بيستيس: (يوناني.) إيمان. صفة من صفات الثقة الروحية، لا سيما تلك التي توضع في الغنوص الحدسي أو المعرفة البديهية. وهي صفة تتجلى في صوفيا المؤمنة بسبب ثقتها الراسخة في النور.

البليروما: (يوناني.) الامتلاء . يشير إلى الفراغ، أو المجال المتعالي للحقيقة الإلهية، الذي انبثق منه كل الوجود الظاهر، والذي من المقدر له أن يعود إليه.

بنيوما: (يوناني.) الروح. المبدأ الأسمى الكامن في الإنسان. تشكل *Pneuma (الروح)* و *psyche (النفس)* و *hyle (المادة)* معًا ثالوث الروح والنفس والجسد المادي.

ساكلس: (آرامية.) الأحمق؛ الأحمق الأعمى. أحد أسماء

الديميورج.

صوفيا: (يوناني.) الصيغة اليونانية للكلمة العبرية *(Chokmah)*، والتي تعني الحكمة. في الغنوصية، كما هو الحال في بعض المصادر المسيحية، هذا هو الاسم الصحيح لكائن متعالٍ ينبثق من الله العلي. تصف المصادر الغنوصية سقوطها من الكمال (الإمتلاء)، ورحلتها المؤلمة في العوالم السفلى الفوضوية، وعودتها إلى مكانها الأصلي.

سوتير: (يوناني.) المخلص، الفادي. يُستخدم في أغلب الأحيان كلقب للمسيح.

قائمة المراجع للكتب الحديثة المذكورة بخلاف تلك الواردة في الملحق التاسع

بيرديايف، نيكولاي. البداية والنهاية. غلوستر، ماساتشوستس: ب. سميث، 1970.

بلافاتسكي، هيلينا بتروفنا. كشف النقاب عن إيزيس: مفتاح رئيسي لأسرار العلوم واللاهوت القديمة والحديثة. مجلدين. 1877. إعادة طبع ؛ ويتون، إلينوي: دار النشر الثيوصوفية، 1972.

———. العقيدة السرية: توليف العلم والدين والفلسفة. مجلدين. 1888 إعادة طبع في 3 مجلدات. i أديار، مدراس، الهند: دار النشر الثيوصوفية، 1978.

بلوم، هارولد. قراءة. في إنجيل توما: أقوال يسوع الخفية، مترجم. مارفن ماير. سان فرانسيسكو: هاربر سان فرانسيسكو، 1992.

———. نذير الألفية: غنوص الملائكة والأحلام والقيامة. نيويورك: كتب ريفرهيد، 1996.

بوبر، مارتن. كسوف الله- دراسات في العلاقة بين الدين والفلسفة. نيويورك: هاربر، 1952.

كافنديش، ريتشارد، محرر. الإنسان والأسطورة والسحر ″. الموسوعة المصورة للخوارق. نيويورك:

مارشال كافنديش، 1970.

(دراور)، (إيثيل ستيفانا)، (ليدي). كتاب الصلاة الكنسي للمندائيين. ليدن: بريل، 1959.

. المندائيون في العراق وإيران: طوائفهم وعاداتهم وسحرهم وأساطيرهم وفلكلورهم. أكسفورد: كلارندون، *1937*. أكسفورد: كلارندون، 1937.

إهرنفيلد، ديفيد دبليو. غطرسة البشرية. نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 1975.

هكسلي، الدوس. الفلسفة الخالدة. لندن: تشاتو وويندوس،
.1937

البابا يوحنا بولس الثاني. عبور عتبة الأمل. نيويورك: كنوبف،

يونغ، كارل غوستاف. ذكريات، أحلام، تأملات. "نيويورك: راندوم"
هاوس، 1963.

كيريني، كارل، وكي غي يونغ. مقال عن علم الأساطير.أسطورة الطفل الإلهي وأسرار إليوسيس.نيويورك: بانثيون، 1949.

كريشنامورتي، جِدّو. عند قدمي المعلم. 1910 أعيد طبعه بعنوان عند قدمي المعلم ونحو التلمذة؛ ويتون، إلينوي: دار النشر الثيوصوفية، كتب كويست، 2001.

ماغري، موريس. عودة المجوس. لندن: ألين، 1931.

باتاي، رافائيل. الآلهات العبرية نيويورك: دار كتاف للنشر، 1968.

كويسبيل، جيل. المعرفة الدينية العالمية زيورخ: أوريجو، 1951.

رونسيمان، ستيفن، سير. مانيشي القرون الوسطى: دراسة المسيحية هرطقة الثنائية. كامبريدج: مطبعة الجامعة، 1947.

تاوبس، جاكوب. المعرفة والسياسة. ميونيخ: كوسيل ، 1959.

فوغلين، إريك. علم السياسة الجديد: مقدمة. شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، 1960.

———— .النظام والتاريخ. باتون روج: جامعة ولاية لويزيانا
دار النشر، 1974.

———— . العلوم والسياسة و الغنوصية: مقالين. شيكاغو: ريجنري،
1968

واو، إيفلين. يوميات إيفلين وو. محرر. مايكل ديفي.
لندن: ويدنفيلد ونيكلسون، 1975.

ويبر ، ماكس. الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. لندن: ألين وأونوين، 1930.

ويليامز، مايكل ألين. إعادة التفكير **في "الغنوصية ":** حجة لتفكيك فئة مشكوك فيها. برينستون، نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستون، 1996.

الفهرس

كتب البحث

encourages open-minded ingum)- into world religions, philosophy, science, and the arts ui order to ,understand the wisdom of the ages

respect the unit of all life, and help pec›p1e explore individual .spiritual self-transformation

Its publications are generously supported by "f'hc Kern ,F'oundation

.a tru st committed to 3 hcosophical education

mint of the Quecst Books is the ,Theosophical I°tiblisliiny House

a division of the ’Theosophical Sociep in Merica. f'or ,iiiforination about programme, literature

on-lube study, membership benefits, and international centers, sce xvww.theosopliical.ord

.or call S(4t)—669—1571 or (outside the U.S.) 6ñ()—6fi8—1571

Related Quest Titles

The Gnostic Jung and the Seven Sermons to the Dead, Stephan A. Hoeller

fling mil the Cost Go.‹feels, S teJ hair .\. Hoeller

(U or video also ax-ailable¥@

Hermeticism and Gnosticism (audio), Stephan A. Hoeller

fot|iil Sz/oi/.r (audio), Steplian A. Hoeller